


ظنَّتْ أنها في أمان. كانت مخطئة.

توني ماغواير

# تركوا بابا يعود

توني ماغواير

# تركوا بابا يعود

ترجمة: معن عاقل



العنوان الأصلي للكتاب:

Toni Maguire
**When Daddy Comes Home**



الكتاب

**تركوا بابا يعود**

تأليف

**توني ماغواير**

ترجمة

**معن عاقل**

الطبعة

الأولى، 2018

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-891-6



الناشر

**المركز الثقافي العربي**

**الدار البيضاء ـ المغرب**

ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651
فاكس: 305726 522 212+
Email: markaz.casablanca@gmail.com

**بيروت ـ لبنان**

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 01 750507 ـ 01 352826
فاكس: 343701 1 961+
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

إن روح أية طفولة تغادر بهدوء،

وبلا ضجيج.

لم تعرف الفتاة الصغيرة

أين رحلت تلك الروح، ولا سبب رحيلها.

لكنها كانت تفتقدها، لأنها

من دونها، كانت تشعر أنها وحيدة.

# 1

- أصبحتُ الآن يافعة، والماضي هو الماضي.

هذا ما رحت أقوله لنفسي وأنا أقف أمام المكتب الذي تستخدمه أمي لضبط الحسابات المنزلية.

عندئذٍ سخر مني صوت في داخلي.

- لم تنتهِ من هذا الماضي قط يا توني. إنه ماضينا الذي يجعل منّا ما نحن عليه.

ولم تكَد هذه الكلمات الثقيلة تعبُر ذهني حتى أعادتني ذاكرتي الغادرة إلى عهد المراهقة أنطوانيت.

أنطوانيت. كان هذا الاسم كافياً لأن يملأني حزناً. طردتُ هذه الأفكار إلى قاع ذهني وفتحت طاولة المكتب، وهي قطعة الأثاث الوحيدة المتبقية من المنزل المشترك الذي تَقَاسمه والديَّ. عثرتُ على عقود المنزل ونحيتها جانباً من أجل الكاتب بالعدل. ثم على محفظة جلدية قديمة، كانت تحتوي حين فتحتها على مائتي جنيه من فئات نقدية مختلفة.

وفي الأسفل، رأيتُ رسائل مصفرّة بسبب قِدَمها وثلاث صور فوتوغرافية لا بدّ أنها كانت موجودة هناك قبل وفاة أمي. كانت

الصورة الأولى لي ولأمي وعمري فيها أقل من عام، والثانية لأبويّ أمي والثالثة صورة شخصية لجدتي، ولا بدّ أنها كانت في الثلاثينيات من عمرها.

أثارت الرسائل فضولي. كانت موجَّهة إلى أمي بخطٍّ من الطراز القديم. لفتَت إحداها انتباهي. إنها رسالة حبّ كتبها شابٌّ فصلته الحرب عن عائلته. كان مهتاجاً لولادة ابنتهما. فهو لم يرَها سوى مرة واحدة حين كان عمرها بضعة أسابيع. وقد عاد إلى إيرلندا بفضل إجازة مُنحت له بسبب الولادة، وهو الآن بشوقٍ إلى زوجته وطفلته الرضيعة.

كانت السنوات قد محَت الحبر بعض الشيء، لكنني نجحتُ في قراءة كلماتها.

كان قد كتب: حبيبتي، ما أشدّ اشتياقي إليكِ... وكلما توغلتُ في القراءة، اغرورقت عيناي بالدموع. كانت هذه الصفحات تفيض حباً، ولثوانٍ صدَّقْتُ ذلك. كان يُخبرها أنه موجود حالياً في بلجيكا وأنهم عيّنوه باعتباره ميكانيكياً للسير في مؤخِّرة الجيش.

ففكرتُ بمرارة، بالتأكيد كان محاطاً بالحسناوات الفلمنديات المتأثرات بابتسامته المُعدية وضحكته السهلة.

اختتم رسالته بهذه الكلمات: حتماً كبرت أنطوانيت كثيراً. ولدي إحساس أنني لم أرَها منذ الأزل. أعدّ الأيام بانتظار اللحظة التي سيَسَعني من جديد أن أحتضنكما فيها. أخبريها أنّ أباها يحبّها وأنه متلهّف للقائها. قبِّليها بحرارة نيابة عني.

نظَرْتُ إلى الكلمات المكتوبة وأوشكَ الحزن أن يغمرني - حزنٌ على ما قد كان وما كان ينبغي أن يكون. واجتاح جسدي ألمٌ ممضّ.

مشيتُ مترنّحة إلى أقرب كرسي وتهاويتُ عليه. رفعتُ يديَّ ووضعتهما على صدغيَّ كما لو أنه كان بوسعي، وأنا أقوم بذلك، أن أطرد الصور التي أرادَت اختراقهما عنوة.

كأنّ جهاز إسقاط اشتغل في رأسي. فاجتاح ذهني سيلٌ من الصور غير المرغوبة الوافدة من الماضي: رأيتُ أنطوانيت، الرضيعة المكتنزة التي تبتسم لأمها بكلّ براءة الطفولة المبكرة. ورأيتها بعد بضع سنوات تقريباً وما آلت إليه كطفلة مذعورة بعد أن انتزع والدها منها جوهر طفولتها؛ فقد سلبها البراءة والفرح والدهشة، واستبدلهم بالكوابيس. صارت البنية ترفض الأيام المشرقة، وعوضاً عن ذلك، عاشت في خوف وراحت تمشي في الظلمات الكئيبة.

تساءَلْتُ بعد ثلاثين عاماً: لماذا؟

رنّ صوت في رأسي وحدّثني بنبرة صارمة: «توقفي عن البحث في تصرفات رجلٍ عادي، لأنه لم يكن رجلاً عادياً. وإذا لم تستطيعي أن تتقبّلي اليوم ما كانه آنذاك، فإنك لن تتقبلينه أبداً».

كنتُ أعرف أنّ هذا الصوت ينطق بالحقيقة. لكن الذكريات التي كنتُ قد كبتُّها راحت تطفو من جديد على السطح، وتُبدِّد الضباب الذي يحمي ذهني وتعيدني في الزمن إلى الفترة التي كانت فيه الكوابيس تتوالى.

رأيتها كما لو أنها كانت بالأمس: فتاةٌ بلغت من الطول ما يكفي لتبدو مراهقة. شعرْتُ من جديد برعبها ويأسها وإحساسها بالغدر. رأيتها مذعورة ووحيدة، وغير مدرِكَة لماذا كان يجب عليها أن تتألم إلى هذا الحدّ. رأيتُ أنطوانيت الضحية.

أنطوانيت تلك، كانت أنا.

# 2

كان ذلك اليوم هو يوم محاكمة والدها.

وهي جالسة على مقعد قاسٍ وغير مريحٍ خارج قاعة المحكمة، كانت أنطوانيت تنتظر بصبرٍ استدعاءها كشاهدة وحيدة في القضية. مكثَت هناك مُحاطة من الجانبين برقيب في الشرطة وزوجته من دون أن تتفوه بأية كلمة بين هذين الشخصين الوحيدين اللذين يقدِّمان لها دعماً.

كانت قد تخوّفت من هذا اليوم. وها هو والدها سيحاكَم الآن على جريمته - الجريمة التي ستودي به إلى السجن. لقد أفهَمَتْها الشرطة ذلك بوضوح حين قالت لها إنه اعترف بذنبه.

وهكذا، لن تخضع لاستجوابٍ مضادّ، لكن المحكمة تودّ أن تعرف إنْ كان ما حدثَ قد تمّ برضاها، أم أنها ضحية اغتصابات متكرِّرة. وقد شرح لها الاختصاصيّون الاجتماعيون كلّ شيء. فهي ستبلغ سنّ الخامسة عشر من عمرها بعد أسبوع - أي أنها كبيرة بما يكفي لتفهم ما يقولونه لها.

كانت تنتظر وهي جالسة وصامتة، وتحاول الهرب من أفكارها. ركَّزت على تذكّر أجمل أيام طفولتها. كان ذلك قبل نحو عشر

سنوات تقريباً، يوم عيد ميلاد آخر في حياة أخرى، قبل أن يبدأ كلّ الرعب، حين قدَّمت لها أمها كلبة صغيرة بلونٍ أسود وأبيض تدعى جودي. وعلى الفور أحبَّتْ جودي حباً جماً وبادلتها الكلبة الصغيرة حبّها.

كانت جودي في تلك اللحظة تنتظرها في المنزل. أرادت أنطوانيت أن تتصوّر وجه حيوانها وأن تجد الراحة عند المخلوق الحيّ الوحيد الذي ظلّ يحبّها على الدوام وبلا كَلل. لكنها حاولت بلا جدوى، فقد انمحت صورة الكلبة، وحلّت مكانها ذكرى اليومِ التالي من أعوامها الستة، حين اعتدى عليها والدها لأوّل مرة.

ثم اعتدى عليها ثلاث مرات في الأسبوع، باحتراس حين لم تكن إلّا طفلة، ثم بوحشية أكبر كلّما كبرت، رغم أنه كان يساعدها على تحمّل ذلك بواسطة الويسكي ليخدّر حواسها.

استمرّ الحال على مدى سنوات، وصمتت خائفة من بطشه وتهديداته: سيأخذونها بعيداً عن منزلها، وسيحقّرونها، ولن يصدّقها أحد - وسيُلقون باللائمة عليها.

في سن الرابعة عشر حملت. ولن تنسى أبداً جوّ الخوف الذي سادَ المنزل حين راحت تتقيّأ كلّ صباح وبطنها يتكوّر.

وفي النهاية، عرضت عليها أمها اللامبالية وغير المكترثة الذهاب إلى الطبيب. فأخبرها هذا الأخير أنها تنتظر مولوداً. وعندما قال: «لا بد أنّ لديكِ علاقات جنسية مع أحدهم»، أجابت: «صحيح مع أبي».

خيّم صمت رهيب سبق السؤال التالي: «هل اغْتُصبتِ؟».

لم تكن تعرف حتى معنى الاغتصاب. زارَ الطبيب أمّها ورتّبا معاً عملية إجهاض سرّية. كان يترتب التزام الصمت المطبق حرصاً على سمعة العائلة - لكن أنطوانيت باحت بهذا السرّ لشخص آخر. ففي خضمّ معاناتها، ذهبت إلى منزل إحدى معلّماتها واعترَفَت لها بالحقيقة. وعندئذٍ اتصلت هذه الأخيرة بالخدمات الاجتماعية. ثم جرى توقيف أنطوانيت ووالدها.

روَت لرجال الشرطة كلّ ما حدث، منذ اليوم الذي بدأ فيه كلّ شيء حين كانت في سن السادسة. وأخبرتهم أيضاً أنّ أمها لم تكن تعرف شيئاً عمّا جرى. كانت تصدِّق ذلك لأنها كانت بحاجة إلى تصديقه.

وبالنسبة إلى أيّ مراقب، كانت أنطوانيت تبدو هادئة ورزينة وهي تنتظر أن يستدعونها للإدلاء بشهادتها أمام المحكمة. جلست صامتة ووحيدة باستثناء رجال الشرطة. فأمّها لم تأتِ في ذلك اليوم.

ارتدت بعناية تنورة رمادية ومريولاً مدرسياً يعوم على جسدها الرقيق. أما شعرها الكستنائي الداكن المصفّف بتسريحة الكاريه فكان ينسدل على كتفيها.

كانت مراهقة جميلة بجسدِ امرأة ووجهِ طفلة جريح. وكان شحوبها والهالتان الداكنتان الظاهرتان تحت عينيها يشيرون إلى أنها كابدت ليالٍ من الأرق وكان اختلاج عينها اليمنى الخفيف يفصح عن التوتر الذي يسكنها - وما خلا ذلك، لم تكن تُعَبِّر عن شيء.

أضعفها الإجهاض الحديث لطفلِ والدها والمرض الذي تلاه وأنهكاها. ومنحتها الصدمة والاكتئاب هدوءاً مصطنعاً بدا للآخرين رباطَة جأش طفلة أكثر نضجاً من عمرها.

كانت انفعالاتها أيضاً مخدّرة بعد محنتها الأخيرة ولذلك لم تكُن تشعر بشيء يُذكر.

كانت تعرف أنها بعد المحاكمة ستعود إلى بيتها عند أمٍّ لم تعُد تحبها وفي مدينة تحمّلها مسؤولية كلّ ما عانته. بيدَ أنّ السنين علّمتها كيف تتجرّد من هذه العواطف وصارت تُظهر هدوءاً خارجياً.

انتهى انتظارها عندما فُتح باب قاعة المحكمة ودخل كاتب المحكمة بخطى حثيثة. فعلمت أنه جاء يطلبها:

- أنطوانيت ماغواير، سيطرح القاضي بضعة أسئلة عليك.

أشارَ إليها أن تتبَعه، واستدارَ على عقبيه وقفل راجعاً إلى القاعة.

شجّعها الرقيب وزوجته بابتسامة لم تلاحظها أنطوانيت. فقد انهمكت في اللحاق بكاتب المحكمة ذي اللباس الأسود. وحين أصبحت في الداخل، أوقف صمت المحكمة المهيب خطواتها ولم تشعُر بحاجة إلى النظر إلى والدها حتى تشعر بعينيه تخترقانها من مقعَد المتهمين.

بدا لها كلّ ما يحيط بها مهيباً ومهدِّداً: أثواب المحامين السوداء والداكنة، وثوب القاضي، الأكثر بهرجة، بلونه الأحمر القرمزي، وشعرهم المستعار وتعابيرهم الرصينة.

وقفت في المحكمة، جامدة، ظِلٌّ يسحقه محيطه، تجهَل ما يريدون منها. وفي انتظار التحقيقات، مكثَت متردّدة ومضطربة من مهابة المحكمة.

ثم شعرت أنّ شخصاً يلمس ذراعها ليدلّها على مكانها. وهي

في حالة وجلٍ، دخلت إلى قفص الشهود ولم يكَد يظهر منها أعلى رأسها. خاطبها القاضي قائلاً لها، كما أخبرها كاتب المحكمة، بأنه سيطرح عليها بضعة أسئلة. ناولها كاتب المحكمة الكتاب المقدّس، وردَّدت القَسَم بصوتٍ متهدّج.

- أقسم أن أقول الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة، وليكن الله في عوني.

- قال القاضي: أنطوانيت، أود أن تُجيبي ببساطة عن بعض الأسئلة، وبعدها ستكونين حرّة وستغادرين. أجيبي عنها بقدرِ ما تستطيعين. وتذكّري بأنك لستِ أنتِ مَن تُحاكَم هنا. هل تعتقدين أنكِ قادرة على ذلك؟

انتهت إلى رفع بصرها نحو القاضي، لأنها شعرت من خلال اللهجة التي حدَّثها بها أنه يقف إلى جانبها بشكلٍ ما. لم تحِدْ بنظرها عنه. لذلك لم يَسَعَها أن ترى والدها.

- أجل.

انحنى القاضي، ووضع ذراعيه على طرف منصته ونظر إليها بأقصى ما يسعه من اللطف.

- هل تحدَّثْتِ إلى أمك من حين إلى آخر عمّا كان يحصل معك؟

- لا.

خالت أنّ تلك هي الحقيقة، بعد أن طرَدَت ذكرى ذلك اليوم الذي أخبَرَتها فيه. ضمَّت قبضتيها غارزة أظافرها في راحتيها. كانت تظنّ أنّ دموعها نضبت وأنه لم يعُد لديها ما تذرفُه، لكن ها هي توشك أن تعود من جديد. تحرقها عيناها لكنها تبذُل كلّ طاقتها

لتكبحهما. لن يجعلها شيء تبكي على الملأ ولن تسمح لهؤلاء الغرباء أن يروا عارَها.

- هل لديكِ معرفة في أمور الحياة؟ هل تعرفين كيف تحمل المرأة؟

أصبح الجوّ متوتراً بينما ينتظر الجميع ردّ أنطوانيت. ركَّزت نظرها على القاضي وحاولت أن تتجاهل الأشخاص الآخرين في قاعة المحكمة وهمست:

- أجل.

شعرَت بنظرة والدها وبالتوتر المتزايد في القاعة عندما طرح عليها القاضي سؤاله الأخير. وسمعت في تلك اللحظة شهقة كبيرة.

- إذاً، لا بد أنّ شعوراً بالخوف راودكِ من أن تصبحي حاملاً؟

سبق أن طرحوا عليها هذا السؤال مراراً، طرحه المرشدون الاجتماعيون وكذلك رجال الشرطة، وكرَّرت بالضبط ما أجابتهم به:

- كان يَستعمل شيئاً ما. شيء يشبه البالون وكان يقول بأنّ هذا سيَحُول دون حصولي على طفل.

صدرت تنهيدة جماعية بينما راح كلّ مَن في المحكمة يستعيد أنفاسه. لقد أكَّدت ما كان الجميع يشكون به، وهو أنّ جو ماغواير اعتدى على ابنته، بطريقة محسوبة ومنهجية، منذ أن كان عمرها ستّ سنوات وأنه ابتداءً من لحظة بلوغها سنّ النضج وامتلاكها بوادر الحيض استخدم الواقي الذكري.

مع إجابة أنطوانيت، تشتَّت دفاع والدها. لقد حاوَل الادّعاء أن يُظهِر أفعاله أفعالَ رجلٍ مريض، واقعٍ تحت رحمة نزواته. لكنّ

وصف ابنته البريء للواقي الذكري، كشيء لم تكُن تعرف حتى اسمه، نقضَ ذلك.

لم تكن أفعاله نزوية، وإنما عن سابق تصميم. كان جو ماغواير مسؤولاً مسؤولية كاملة عن أفعاله.

شكرها القاضي على إجاباتها وأخبَرَها أنها تستطيع مغادرة المحكمة. اجتازت وحيدة الباب ذا المصراعين نحو قاعة الانتظار وهي لا تزال تحوّل نظرها عن أبيها لتتجنّب نظرته.

لم تكن أنطوانيت حاضرة عندما نطق القاضي بالحكم. أخبرها به محامي والدها الذي دفعت له أمها، بعد نصف ساعة.

صدر حكم على جو ماغواير بعقوبة السجن لمدة أربع سنوات على الجريمة التي ارتكبها طيلة سبع سنوات. وسيُطلق سراحه بعد ثلاثين شهراً: ثلث الزمن الذي استمرت خلاله معاناة أنطوانيت.

لم تشعر بشيء. فمنذ زمن طويل، كانت الطريقة الوحيدة لتتجنّب فقدان صوابها هي عدم إفساح أيّ مجال لأحاسيسها.

- أخبرها المحامي: والدك يريدُ رؤيتك. إنه في زنزانة التوقيف.

نهضت بإذعان، وذهبت إلى هناك. كان الحديث مختصراً. حدَّق فيها بغطرسة، وهو لم يزَل واثقاً من قدرته على التحكّم بها، وأوصاها أن تعتني بأمها. أجابت الفتاة الصغيرة المطيعة، كما هو دأبها دوماً، أنها ستقوم بذلك. ولم يهتمّ البتة لمعرفة مَن سيعتني بابنته.

وبينما كانت تغادر الزنازين، أخبروها أنّ القاضي يتمنى أن يستقبلها في مكتبه. وهناك، بعد أن تخلَّص من شعره المستعار

وردائه الأحمر، بدا أقلّ تأثيراً وأكثر لطفاً. جلست في المكتب الصغير، وشعرَت بمواساة في كلماته.

- ستكتشفين يا أنطوانيت أنّ الحياة ظالمة، كما سبقَ لكِ وأدركتِ ذلك. سيتّهمك الناس، فضلاً عن أنه سبق لهم وفعلوا ذلك. ولكن أصغِ لي جيداً. قرأتُ تقارير الشرطة. ورأيتُ ملفّك الطبي. أعرف تماماً ما كابدتِهِ، وأؤكد لكِ بأنه لا ذنب لكِ في كلّ هذا. وليس عليكِ أن تشعُري بالعار.

ابتسمَ ثم رافقها إلى الباب.

غادرت المحكمة وهي تحتفظ بكلماته في مخبأ داخل ذهنها؛ كلمات ستتذكّرها على مرّ السنين لتُواسي نفسها، كلمات ساعدتها في مواجهة عائلة ومدينة لا يشاطران القاضي رأيه.

# 3

1961. تجاوزت أنطوانيت سن السادسة عشرة.

مضى عامان منذ أن حُكِم على والدها بالسجن بسبب ما أسمَته الصحف «جريمة خطيرة على قاصر».

بقيت القضية طيّ الكتمان لحماية هويتها، ولكن لم يكن لهذا أيّ أهمية - فقد أصبحت التفاصيل سراً شائعاً وعرف جميع سكان كوليرين بما حدث. عرفوا وحمَّلوا أنطوانيت المسؤولية.

راحوا يتهامسون، كانت راضية، وإلّا لماذا سكتت طيلة هذا الزمن؟

لم تحتجّ على الاغتصاب إلّا عندما أصبحت حاملاً، وألقَت وزرَ هذا العار الفظيع على كاهل عائلة أبيها.

طُردت أنطوانيت من المدرسة. ومنعتها عائلة أبيها من زيارتهم. وأغلقت المدينة أبوابها في وجهها وراح الناس يتجاهلونها أينما حلَّت.

قرَّرت روث، والدة أنطوانيت، أن تهرب من عار الجريمة ومن عار عقوبة سجن زوجها، وأرادت الفرار في أقرب وقت ممكن من الغمز واللمز في المدينة. وما كان بمقدور أيّ شيء أن يقنعها

بالبقاء. باعت بيت العائلة على عجلٍ، كما باعت كلّ شيء مثل سيارة جو الجاكوار السوداء، لكنها حتى بعد أن باعت هذين الشيئين، لم يتبقَّ لديها إلّا النزر اليسير من المال.

ودون أن تستسلم للقنوط، غادرت هي وأنطوانيت كولورين إلى حيٍّ فقيرٍ في شانكيل رود في بلفاست، واستأجرتا منزلاً صغيراً. كانت أنطوانيت منشرحة، لكن أحلامها في الدراسة ذهبت أدراج الرياح، فمارست بعض وظائف الشابات مقابل أجرٍ يغطي نفقات طعامها وسكنها لكي تستطيع المساهمة مالياً وتولّت روث إدارة مقهى في المدينة.

بيدَ أنّ الخوف لم يفارقها. كان إحساسها الرهيب، بأنّ جميع مَن أحبَّتهم نبذوها، يأبى أن يريحها من كابوسها. شعرت بأنها وحيدة، وغير محبوبة وبلا قيمة. وخالت أنّ الحلّ الوحيد هو في مغادرة العالم الذي بدا أنه لم يعُد يريدها. لذلك تناولت أقراصاً وابتلعتها مع الويسكي، وقطعت شرايين معصمها خمس عشرة مرة بشفرة حلاقة. نَجَت بمعجزة، وأمضت ثلاثة أشهر في مستشفى للأمراض النفسية في ضاحية بلفاست. ولأنها في الخامسة عشر من عمرها جنّبوها العلاج بالصدمات الكهربائية والمهدئات. وبدلاً من ذلك، ساعدها علاجٌ مكثّف على تبديد اكتئابها، وفي نهاية المطاف تحسَّنت صحتها بما يكفي لتخرج وتستأنف حياتها.

كانت روث قد نجحت في شراء منزل لهما خلال مرض أنطوانيت، وإلى هذا المكان الجديد ذهبت، وهي تحسب أنّ حياتها ربما تتحسّن لأوّل مرة منذ سنوات عديدة.

* * *

كان بيت الحارس بناءً جميلاً على الطراز الفيكتوري في أطراف المدينة. حجراته صغيرة وضيّقة ومزدحمة بالأثاث البالي والرخيص؛ والجصّ على جدرانه قديم ومحدّب وقد نشأت فيه شقوق وتصدّعات على مرّ السنين تمتد على طول إطارات النوافذ وتترك أثرها على قاعدة الألواح الخشبية. وثمّة ستائر برسومات أزهار فاقعة مخصَّصة لنوافذ أكبر منها تقلّصت وتدلّت بطيات قبيحة إلى منتصف ارتفاع الجدران بينما السجاد المنقوش بأزهارٍ غير منسجمة بهتت ألوانه واهترأت حتى لُحمته.

– قالت روث: ها نحن هنا، يا أنطوانيت. هو ذا بيتنا الجديد. غرفة لك وغرفة لي. ما رأيكِ؟

منذ دخولها إلى البيت القديم، بدأت أنطوانيت تشعر بالأمان. لم تكن تعرف لماذا لا بدّ لها أن تبدأ في هذا البيت بالتخلي عن الماضي وتركه وراءها، لكن هذ ما حدث. هنا، تضاءل الخوف الذي عاشت معه طيلة ثماني سنوات، وسيطر على أيامها واجتاح أحلامها. شعرت أنطوانيت أنّ بيت الحارس هو عشّها، والمكان الذي سيحميها من العالم.

بدأتا بتحسين المكان. تجمعهما الرغبة في خلق مكانٍ بسيط وحسن الاستقبال، طَلَتا، بمثابرةٍ هواة، الجصّ القديم المحدب بطبقتين من الدهان الجديد، وحوَّلتا الصالون المهجور والبالي إلى حجرة خاصة جميلة صغيرة مزينة بالكتب والديكورات. وُضِعت في ركنٍ مجموعة صور كلاب ستافوردشير الخاصة بروث بينما عُرِضَت صحون ذات زخارف صينية زرقاء على خزانة خشبية من السنديان المعرَّق، ومعها آنية مزخرفة وتحف اشترتها أنطوانيت وأمها من سوق

سميثفيلد وسط بلفاست. من هناك، بين بسطات بضائع تعرض للبيع كلّ الأشياء العتيقة والمفروشات المستعملة، اشترتا أفضل حوائجهما.

وذات يوم، عثرت أنطوانيت على أريكة بمساند منجّدة بقماش أخضر ثمنها جنيهان. ولفرط إعجابها بها، نادت أمها وابتاعتاها على وجه السرعة. وفي المنزل، أصبحت الأريكة المفضّلة لأنطوانيت.

كانت تعشق المخمل الناعم الذي يغطي الأريكة ووسائد المسند التي تحميها من التيارات الهوائية.

وكلما مرّت الأسابيع ووضعتا بصماتهما في المنزل الجديد، عاد تقاربها مع أمها الذي كانت أنطوانيت تحلم به منذ سنّ السادسة، ونبتت ثقتها بها من جديد. كان يهمها كثيراً ألّا تبحث أبداً عن أعذار لكلّ ما حدث سابقاً؛ فأغلقت بإحكام على كلّ ذكريات الموقف الذي اتّخذته أمها ورفضت أن تطرح عليها الأسئلة التي شغَلَتها.

آثرت النظر نحو المستقبل. وفي النهاية، أصبحت في مكان تشعر فيه بالأمان، وأخيراً أخذت علاقتها بأمها تنمو.

اكتشفت أنّ رضاها عن حرّيتها في أن تحبّ يفوق فرَحَها في تلقي الحب. ومثل زهرة في الشمس، بدأت تتفتح.

وجدت روث عملاً لأنطوانيت كنادلة في المقهى الذي تديره. لم يكُن العمل صعباً وارتاحت أنطوانيت له. وفي كلّ مساء، راحتا تبحثان بلهفة في الصحيفة عن برنامج ترغبان بمشاهدته معاً في التلفاز.

كانتا تتناولان عشاءهما على المائدة وهما تشاهدان،

مشدوهتين، أفلاماً قديمة بالأبيض والأسود، وتتدفآن بنار الفحم الذي يتلظى في الموقد. وكان التلفاز مبعث فخر لأنطوانيت - فهو قطعة الأثاث الوحيدة التي ابتاعتاها جديدة.

وفي نهاية السهرة، تملأ أنطوانيت كيسَي التدفئة بالماء الساخن وتصعد بهما على السلم الضيق الذي يفضي إلى صالون ذي صحن درجٍ مربّع صغير. تفصل بضع خطوات بين حجرتيهما غير المدفأتين بسبب سقفيهما المنحنيين ونوافذهما غير المحكمة. كانت تلف كلّ كيس كاوتشوك وردي في منامة وتدسّهما تحت الشراشف الباردة لتخلق ركناً دافئاً يستقبلهما فيما بعد.

ثم تنزل من جديد، وتشرب بصمت فنجاناً أخيراً من الشوكولا الساخنة قبل أن تصعد روث للنوم، وتترك لأنطوانيت أمور الترتيب. كانت مهمّتها الأخيرة هي تغطية النار بالرماد وأوراق الشاي لكي تستعيد توهّجها صباحاً حين تحرِّكانها بقضيب من الفونت مركون بجانب مجرفة وفرشاة تناسبانه.

كانت أنطوانيت تنهض أولاً في الصباح وتنزل لتغتسل وتتزين بسرعة على مجلى المطبخ. وكان بخار الغلاية يمتزج ببخار زفيرها وهي تسخن ماء الشاي الصباحي. أما مدفأة النفط فتُشْعَل مرة واحدة في الأسبوع. فهي تطلق أدخنة منفِّرة وتنشر حرارة ضعيفة؛ وريثما تسخن، كانت أنطوانيت تُخرج مغطساً قديماً من الحديد وتملأه بقدور من المياه المغلية. تستحمّ على عجل وتغسل شعرها، بينما يصبح المطبخ دافئاً؛ ثم تتدثّر بمئزر حمام من القطن الناعم وتنظف المغطس وتملأه من جديد من أجل أمها. كانت الملابس المغسولة يدوياً تُنشر على حبلٍ معلَّق بين عمودين معدنيين في الحديقة الخلفية

الصغيرة. وإذا ظلّت رطبة، تضعانها أمام النار لتجفّ ناشرة البخار بينما تعبق رائحة الغسيل النظيف في الحجرة.

وفي يوم الأحد، حين يغلق المقهى أبوابه، كانت أنطوانيت تحضّر طعام الفطور وتتناوله مع أمها، بينما جودي، التي هرمَت الآن ووهنت بسبب الروماتيزم، تقعي بجانب أنطوانيت وعيناها تتابعان كلّ حركة، على أمل أن تبقى الأم وابنتها في المنزل ولا تتركانها.

وعندما تغادر روث وابنتها إلى العمل، كانت تتبعانهما حتى الباب، وترمقهما بنظرة ضيق أتقَنَتها على مرّ السنين.

كانت حياة هادئة، بل إنها حملت الراحة والشفاء، بينما راحت الهوّة الواسعة التي فرقت بين أنطوانيت وأمها تُردم بالتدريج. وبقي الموضوع الوحيد الذي لم تتطّرقا إليه قط هو عمّا سيحدث في يوم بعيد حين سيطلق سراح والدها.

في الواقع، لم تذكر روث البتة زوجها ولم توجد في المنزل رسالة واحدة منه -فروث في غنى عن عار رسالة ممهورة بختم من السجن- وعلى حدّ علم أنطوانيت، لم تكتب له أيّ رسالة. كان إطلاق سراح والدها في المستقبل شبحاً أسود في الأفق، لكن هذا اليوم لم يزَل بعيداً. ومن غير المُجدي التفكير فيه الآن. كانت أنطوانيت تَعيش على تجاهلٍ تُباركه مشاريع روث المستقبلية. لكنهما الآن لا تهتمان إلّا بنفسيهما.

بعد ثمانية عشر شهراً من إقامتهما في بيت الحارس، قرّرت أنطوانيت أن تقوم بأمرٍ يخصّ طموحاتها التي تغذّيها في السرّ. ومع

أنها أحبَّت عملها في المقهى، إلّا أنها رغبت بأكثر من حياة نادلة، وأرادت أن تفخر أمها بها. لكن أرباب العمل المحتملين لن يقدِّروا أنها تركت المدرسة في سن السادسة عشر بلا مؤهلات. ومن دون شهادة، سيستحيل عليها تحسين ظروفها. ومع ذلك وجدت أنطوانيت طريقة للالتفاف على هذا الواقع.

لو أنها تابعت دراسة السكرتارية لكانت لم تنهِ دراستها وحسب، وإنما لحَصَلت أيضاً على شهادة تُفيد أنها تركت المدرسة في سن الثامنة عشر، ولَمَنَحها ذلك هاتين السنتين الإضافيتين المهمتين. لكنها كانت في عوز إلى المال لتغطية النفقات وصار لديها الآن تطلّعات للحصول عليه.

كانت قد علمت أنّ الكثير من الشابات الإيرلنديات يذهبن إلى إنجلترا أو إلى بلاد الغال خلال الصيف للعمل في مراكز العطل السنوية العائلية. وقيل لها إنّ الأجر جيد، وفوقه إكراميات مجزية. ستكون هذه طريقة سريعة وفي غاية البساطة لكسب المال الذي ستحتاجه لدفع نفقات دراساتها.

سيوافق المقهى على أن تغادر لبعض الوقت للعمل في مكان آخر، وسيعيدها عند عودتها. فقد ظلّت بلفاست تعجّ بالطالبات الباحثات عن أعمالٍ مؤقتة، لذلك لن يكون صعباً إيجاد بديلة عنها لبعض الوقت.

ما أجمل أن يصبو المرء إلى هدفه. عندما شرحت أنطوانيت لصاحب المقهى مشروعها، بدا لها أنّ الحظ حالفها. كان أحد أقاربه يدير فندقاً على جزيرة مان وهو دوماً بحاجة إلى موظفين. فلماذا لا تذهب إلى هناك في عيد الفصح لتجني مبلغاً لا بأس به من

المال كنادلة وخادمة غرفٍ في آن معاً؟ كانت الفرصة مغرية أكثر من أن تدَعَها تمرّ، وبعد خمسة عشر يوماً، غادرت أنطوانيت إلى جزيرة مان في عبَّارة.

لم تكن في الحقيقة تجربة ممتعة كما توقّعت. فالفتيات لا يكَدْن يُعامَلن أفضل من الخادمات المبتذلات اللواتي يعملن كلّ شيء، ويترتب عليهن الركض من الفجر حتى وقت متأخر من الليل.

وجدت أنطوانيت المهمّة شاقة، وأقل أجراً بكثير ممّا أوهموها. ولكن نظراً إلى قلة فرصها في الخروج وأيضاً لندرة وقتها في إنفاق نقودها، ازدادت مدّخراتها وقرَّرت العودة إلى بيتها قبل الأوان وأن تسترخي قليلاً في بيت الحارس قبل استئناف عملها.

أسرعت في اجتياز الأرصفة إلى ليسبورن، وتمنَّت لو أنّ سيارة الأجرة ضاعفت من سرعتها. ولكنها حين دخلت إلى بيت الحارس ودلفت إلى الصالون، حاملة بين ذراعيها هدايا لأمها، صعقتها المفاجأة وذُهِلَت في مواجهة آخر شخص في العالم تريد رؤيته.

- أهلاً. كيف حال ابنتي الصغيرة؟

كان والدها جالساً على أريكتها الخضراء، وابتسامة عريضة تعلو شفتيه، بينما أمها عند قدميه ووجهها يشعّ سعادةً.

# 4

كانت أنطوانيت راقدة، وليس لديها رغبة في النهوض، وتحاول إقناع نفسها بأنّ مساء الأمس لم يكن سوى حلمٍ مزعج.

لكنها تعرف بأنّ الأمر حقيقي، كما أنه عصيّ على التقبّل. كيف أمكَن لأمّها أن تُقدِم على ذلك؟ شيء لا يصدَّق بقدرِ ما هو فظيع.

ولأنها لم تكُن تستطيع تأخير هذا الاستحقاق وقتاً أطول، أزاحت الأغطية عنها، ونهضت وبدأت بارتداء ملابسها. ضاعَ جسدها تحت هذه الملابس التي لم يتغيَّر نمطها منذ أن قبَضَت أوّل راتب لها.

كانت كلّ خزانة ملابسها مؤلّفة من تنانير متماوجة وكنزات ذات قبة مبرومة لا تتماشى مع الزي الحديث؛ ثياب باهتة تحبّها أمها. لباس موحّد لفتاة في الصف المتوسط رغبتها الوحيدة هي في التماثل وعدم التمايز عن الآخرين.

انتظرت أنطوانيت في غرفتها أن تسمع أمها تغادر إلى العمل؛ لم تكُن لديها أيّ رغبة في مواجهتها هذا الصباح فضلاً عِن أنّ ألمها وغضبها جعلاها غير واثقة من قدرتها على التحدّث إليها. ثم صاحت روث، كما تفعل كلّ صباح.

- أنا ذاهبة إلى العمل يا عزيزتي. إلى اللقاء مساءً!

كان صوتها فرحاً أكثر من العادة، وبلا أدنى شكّ بسبب زيارة زوجها في عطلة نهاية هذا الأسبوع.

وحين سمعت أنطوانيت صفق الباب وراء أمها، نزلت. كانت جودي تنتظر عند أسفل الدرج، وكما سبق لأنطوانيت وفعلت ذلك مراراً وتكراراً في الماضي، جلست على الأرض وطوّقت بذراعيها عنق الكلبة العجوز، ووضعَت وجهها على الفراء الدافئ بحثاً عن العزاء. أحسَّت جودي بتوتّرها، فراحت تلعق وجهها كأنها تواسيها بينما أحسّت أنطوانيت بالدموع تطفر في عينيها ثم تسيل بصمت على امتداد وجنيتها.

عبرَت الصالون. عبقت رائحة عدوّ في منخريها - عدو لم يخطر ببالها أنها ستضطر لمواجهته من جديد. ومثل حيوان صغير يستشعر الخطر، توتّرت.

تشمّ رائحته حتى في غرفة خالية.

كانت تعرف أنها لم تحلم بأحداث ليلة أمس. حين رأت والدها جالساً هناك، انعقد لسانها وعجزت عن الكلام. وبدلاً من ذلك هربت من الحجرة، تاركة رزم هداياها والتجأت إلى غرفتها. بقيت فيها حتى غادر، ساعية إلى فهم ما حدث وهي لا تكاد تستطيع تصديق عينيها. لقد صدقت حياتها الجديدة، لكن يبدو لها الآن أنّ روث عدَّت الساعات قبل أن تستطيع استئناف حياتها السابقة. ولم تكن أنطوانيت سوى رفيقة انتظارها.

عاد والدها إلى السجن قبل عدة ساعات، عندما انتهت إجازته الأسبوعية، ومع ذلك، رائحة لفافات التبغ وزيت الشعر الهجينة

برائحة العرق الكريهة ورائحة ذكرياتها ظلّت تفسد الحجرة. وقعَ نظرها على منفضة لفافات التبغ الطافحة بأعقاب سجائر والدها الملفوفة والمسحوقة؛ كان هذا دليلاً قاطعاً على مجيئه. فتحت النوافذ وتناولت المنفضة المملوءة بالأعقاب وأفرغتها، لكن رائحته بقيت واستحضرت ذكريات مقيتة.

صار يترتب عليها الآن أن تتقبّل أن اليومين الممنوحين لوالدها كإجازة بعد أن قضى عامين من سنواته الأربع في السجن أعاداه مباشرة إلى زوجته المنشرحة جداً بلقائه. كانت أنطوانيت تعرف أنّ روث لم تتحمل تماماً هذه الزيارة - فقد تلقَّتها بحرارة.

جاء والدها إلى بيتها، ووسَّخه. راودها إحساس أنها تغوص في رمال متحركة، وأنها تصارع بلا جدوى، وتغوص بسرعة في الماضي، في ذلك المكان المعتم الذي أقامت فيه ردحاً طويلاً من الزمن.

حاولت أن تتعلّق بخيوط الأمان الواهية التي عرفتها في بيت الحارس، وأن تطرد ذكريات ليلة الأمس، وأن تستمدّ السلوى من بيئتها العائلية.

لكن إحساساً آخر طفا على السطح، بسبب الخدر الناجم عن الصدمة وعدم التصديق. وبإزاء إدراكها لخيانة أمها، استبدّ بها الغضب وانتهى إلى إنهاكها.

كيف لا يزال يَسَع أمي أن تهتم برجل ارتكب جريمة بهذه البشاعة؟ فهي تعرف ما فعله بي، بي أنا، ابنتها الوحيدة.

كيف يَسعها أن تظلّ تحبه؟ راحت تقلب الأمر وهي تجُوب

الحجرة طولاً وعرضاً. واذا استطاعت أن تغفر له، فماذا يسعها عندئذٍ أن تشعر نحوي؟ ألم يكن كلّ ذلك مجرد كذبة؟

ومع أنّ قلبنا يخصّنا، إلّا أننا لا نستطيع التحكّم به، ولم يشذّ قلب أنطوانيت عن هذه القاعدة؛ كانت تودّ في لحظة أن تكره أمها، وبعد لحظة تتحرّق شوقاً لكي تُطَمْئِنَها وتستعيد حبّها.

لكنها لم تستطعْ قبول الإجابات عن الأسئلة التي تطرحها على نفسها. فهي تتألم من فكرة أنّ والديها تشاركا من جديد سريرهما على بُعد بضعة أمتار من غرفتها.

هل مارسا الحب؟ تساءلت. إنَّ فكرة أنّ روث استطاعت أن تفعل بمنتهى الرضى ما سبق وأرغَمَها هي نفسها على فعله كانت تجعلها ترتعش.

والأسوأ، هو أنها باتت تعرف أنه طالما سمحت أمها لأبيها بالعودة إلى المنزل ولو للحظة، فهذا يعني أنه عند إطلاق سراحه بعد بضعة أشهر، سترحّب به في المكان الذي تتقاسمه مع أنطوانيت.

تبخّر إحساس الأمان الذي خالت أنها وجدته؛ وبدأت الأرض تميد تحت عالمها، وشعرت أنها تسقط في هاوية اليأس.

في ذلك الصباح، ترسّخت بقوة في ذهنها مشاعر الخيانة وما كان بمقدور أية قوة أن تطردها منه.

# 5

خلال الأسابيع التي تلت عودة والدها إلى السجن، حلَّت عدم الثقة محل حرارة الصداقة التي ربطت روث بابنتها. أصبح هنالك جدار غير مرئي بينهما، رفعته أنطوانيت هذه المرة.

كانت الخيانة التي شعرت بها حين رأت والدها جالساً في صالونهما أشدّ من أن تُنسى وأرادت الهرب أبعد ما يمكن، لكنها كانت تعرف أنّ هذا الأمر ليس مطروحاً اليوم.

وما دامت أنطوانيت جمعت الآن بعض المدّخرات لمشروعها في مدرسة السكرتاريا، فقد ظلَّت مصمِّمة على العمل خلال الصيف رغم تجربة جزيرة مان. كانت العديد من الشابات الإيرلنديات يغادرن بيوتهن صيفاً إلى مخيمات الإجازات السنوية، وإلى فنادق ومآوي بريطانيا العظمى.

لقد سبق لها أن وجدت عملاً في الصيف في مركز قضاء الإجازات السنوية لشركة باتلانز، وبالتأكيد سيُطلق سراح والدها قبل ثمانية عشر شهراً من مدّة العقوبة الصادرة بحقه قبل مغادرتها. فهل ستتحمل البقاء معه في البيت؟

لم تشأ حتى تلك اللحظة أن تترك أمها، لكنها بإزاء غدرها

وبإزاء احتمال إلزامها بتقاسم المنزل مع والدها، صارت تتمنى أن تغادر.

لكنها لو رحلت قبل أن تكسَب ما يكفي من المال، لأنفقَت مدّخراتها ولقالت وداعاً لتمويل مدرستها. ومن دون مؤهلات السكرتاريا المهمة، تعرف أنها تتجه نحو مستقبل نادلة أو بائعة.

ماذا أختار؟ تساءلت. قد لا تجد مأوى. ولن يؤجّر أحد غرفة لفتاة قاصر، حتى لو كان بمقدورها أن تكسب ما يكفي لعيشها.

مع ذلك، سيُضاف الأجر الذي ستتقاضاه في المركز إلى الأجر الذي سبق أن ادّخرته، وستنفق على دروس السكرتاريا التي تعتريها رغبة جامحة بمتابعتها. وبحصولها على شهادة، سيسعها أن ترحل عن بيتها، وأن يكون لها شقة خاصة بها في بلفاست وأن تغدو مستقلة.

إنني خائفة على مستقبلي. لقد رأيتُ الكثير من النساء في العقد الخامس من أعمارهن لا يكَدن يحصلن على ما يقوم بأودهن رغم أنهن يمضين نهارات مديدة في مطاعم الدرجة الثانية، بينما تتباهى الشابات بحصولهن على مناصب في أماكن أكثر أناقة مع إكراميات مجزية. دارت الأفكار المشوشة في رأسها حتى أدركت أنه ليس من خيار أمامها سوى البقاء.

* * *

كل صباح سبت، ترى أنطوانيت تماوج لفائف خيمة الرقص البيضاء الكبيرة المنصوبة في حقل مُزارع متعهّد. ومساء كلّ سبت، تتناهى إلى مسامعها إيقاعات أوركسترا بينما الموسيقى تصدح في الهواء الليلي.

كانت تنحني من نافذة غرفتها بأقصى ما تستطيع، وتنصت لتسمع بشكلٍ أفضل، وتنهش الخيمة الكبيرة بحسد.

بعد أن تُضاء عدّة مصابيح داخلها، كان بريقها يتّضح على سواد السماء، موحياً للجميع بأنها صورة قطعة حلوى عملاقة مضيئة.

كانت تعرف أنّ الشباب يدخلون هناك إلى عالمٍ يخصّهم، بموسيقاهم، وأزيائهم، عالمٍ يلهون فيه. بينما كانت هي تمدّ عنقها وتتذكر ما تقوله أمها في هذا الشأن.

«الفتيات المستقيمات لا يذهبن إلى هذه الأمكنة، يا عزيزتي. وإذا اقترح صبيّ عليك الخروج معه، فيجب أن يمرّ ليأخذك من المنزل، كما يليق. ومع ذلك لا يمكنك لقاؤه هناك» وتنتهي روث دوماً إلى إرفاق تصريحها بضحكتها الجافة الغريبة وابتسامتها المرحة، لكن الفارغة.

وكلَّما رددت أمها ذلك على مسامعها، تُجيب أنطوانيت دوماً بخضوع: «لا، ماما» وتكتفي بالبقاء مع أمها وتقضي السهرة في ملاطفة روث متّخذة إياها رفيقة لها.

لكن الأمور تغيَّرت الآن. صارت تريد أن تصبح جزءاً من العالم الذي رأته من نافذة غرفتها. صارت ترغب بالذهاب إلى الخيمة الكبيرة. ستحتفل بعطلة نهاية الأسبوع، وستخالط مراهقين آخرين وتعيش مثلهم. صارت متأكّدة أنّ حياة الفتيات الأخريات لا تدور حول أمهاتهن، وإنما حول الأزياء ومساحيق التجميل والحفلات الراقصة يوم السبت. وهي تريد أن تفعل مثلهن.

نظرت أنطوانيت إلى نفسها في المرآة، وتفحَّصت صورتها بنظرة باردة ومتأمّلة. كانت تعرف أنها مختلفة. وبمعزل عن نبرتها

الإنجليزية، كانت ثيابها القديمة وشعرها الكستنائي الداكن المنسدل على كتفيها بتصفيفة الكاريه يلائمون فتاة في الرابعة عشرة من عمرها أكثر ممّا يلائمون مراهقة في سن السادسة عشرة. وكان هذا نتيجة تأثير روث.

ليس بعد الآن، فكرت أنطوانيت بكآبة. أريد أن أشبه الفتيات الأخريات. سأساير الموضة.

فكرت بمجموعة الشباب السعداء والواثقين الذين خدمتهم في المقهى حين كانت تعمل في فترة المساء. كان يمكن تمييز الفتيان بشعرهم المقصوص وستراتهم وسراويلهم المكوية بإتقان كنسخ أكثر شباباً عن آبائهم، أما الفتيات فقد خلقن أسلوبهن الخاص بهن الذي لا يمتُّ بشيء لأسلوب أمهاتهن.

كان شعرهن يصفّف على أحدث دُرْجَة منتصباً بشكلٍ كعكة، ووجوههن مطلية بلون شاحب يتناقض تناقضاً صارخاً مع عيونهن المكحّلة بالأسود التي تنظر إلى الناس عبر رموش طُلِيَت بطبقة سميكة من الكحل.

لم تتلقَّ بشرة أنطوانيت إلّا القليل من مسحوق التجميل، ووضعت على شفتيها أحمر شفاه وردي طبيعي ولم يتبدَّ على عينيها سوى طبقة رقيقة من الكحل. هذا ما كان يميِّزها عن قريناتها إضافة إلى ملابسها.

قررت: أصبحت جاهزة الآن.

* * *

بدأت ستينيات القرن المعجونة بالرقيّ والتحوّل، وحملت معها رخاءً جديداً. اندمج العمال في البرجوازية الصغيرة، وظهرت

الأراضي المفروزة في كلّ مكان تقريباً، مُتيحة للأزواج الشباب إمكانية اقتناء منزلهم الخاص المكعّب المشابه لجميع المنازل المجاورة.

كانت السيارات تُركن أمام كلّ مسكن، وهوائيات التلفاز تزيّن جميع الأسطح وحلَّت كلمات «شراء عن طريق الاقتراض» مكان «شراء بالتراضي». إنها مرحلة ازدهار مترافقة بثقافة جديدة شابّة تريد أنطوانيت أن تكون جزءاً منها بأيّ ثمن.

تمتّع المراهقون بطمأنينة لم يعرفها آباؤهم قط، وخلال أوقات فراغهم، كانوا يرقصون رقصة الروك أند رول الجديدة ويذهبون إلى المقاهي ويشربون الكابتشينو ويثرثرون ببساطة. يرفضون أن يكونوا نسخاً عن أبائهم ويفضّلون أن يخلقوا عوالمهم ومواقفهم الخاصة.

هؤلاء هم الناس الذين تريد أنطوانيت أن تخالِطَهم، وحتى تقوم بذلك، تعرف أنّ عليها أن تتغيّر. لم يكن بمقدورها أن تفعل شيئاً يُذكر بالنسبة إلى لكنتها الإنجليزية، لكنها تستطيع أن تغيِّر مظهرها.

بدأت أنطوانيت أخرى مختلفة تظهر. فاشترت أثواباً تُبرز جسدها خبَّأتها في قاع خزانتها مع أحذية ذات كعب مدبَّب وملابس داخلية جديدة.

نصحتها إحدى زبوناتها الشابات بمصفِّف شعر صنعَ العجائب وأزال الشعر الكستنائي المقصوص بعناية. استبدله بشعرٍ مرفوع على شكلِ كعكة ملتفّة. وصار حاجباها المنتوفان يُبرزان الآن عينين قاسيتين، وحوَّل فقدان الشهية تقاطيع جسدها المكتنز فيما سبق إلى قوام نحيف أكثر رواجاً.

لاحظت روث التحوّل المثير للفضول وغير السارّ. فقد اعتادت

على طاعة ابنتها المطلقة التي سعَت دوماً إلى كسب رضاها، وأدهشها هذا التمرُّد المفاجئ.

ومع أنها لم تفعل شيئاً لتضعَ حداً لهذا الأمر، إلّا أنها شنَّت هجوماً معاكساً بدهاء، مستخدمة موهبتها في الفصاحة لتهيمن على ابنتها وتُحدِث ردّ الفعل المأمول. استخدمَت كلمات مشحونة بالحزن والغضب المرتبك لابتزازها عاطفياً.

- كانت تقول لها بصوتٍ مثير للشفقة: لا أفهم لماذا ترغبين في تعاستي. ألا تعتقدين أنني كابدتُ بما فيه الكفاية؟

لكن أنطوانيت لم تكُن تريد سماع شيء.

وبينما كانت أنطوانيت الجديدة تتشكّل، لاحظت أنّ الفتيات اللواتي يرتدْنَ المقهى أصبحن يتناقشن معها الآن. كان الشغل الشاغل لصديقاتها الجديدات هو كيف يتبرَّجن، ويلبسن ويحصلن على عشيق، وكانت هذه المسائل تستنزف تقريباً كلّ طاقتهم الفكرية.

هذا ما خمَّنته أنطوانيت، لأنها لم تبُح البتة بخفايا قصَّتها، بحيث أنها لم تضطر إلى اللجوء لحياة كاذبة سبق لها أن اختلقتها: منزل سعيد وأم رؤوم وأب يعمل في مكان بعيد.

قررت أنطوانيت أن تنجز تحوّلها خلال عطلة نهاية الأسبوع القادمة. وقد استغرق ساعات.

بدأت تغسل شعرها بصباغ أصهب زاهٍ، ثم شرعت تجفّفه وتعقصه حتى حصلت على شكل التسريحة التي تحبها المراهقات حبّاً جماً ولكنها تخيّب آمال أهلهم: قبّة فوق الرأس مثبتة في مكانها بكمية من مادة لاصقة بحيث يصعب على أيّ مشط النفوذ فيها.

ثم جاء دور الوجه. طلت بشرتها بعصارة صباغ أعطاها سحنة

شاحبة للغاية. وطوَّقت عينيها بخطّ سميك أسود بواسطة قلم كحل لدرجة أنهما بدتا صغيرتين. ثم تناولت الشيء الذي أغنى للتو مجموعة مكياجها المتزايدة باطّراد: علبة بلاستيكية صغيرة مزوّدة بمرآة تحتوي على قرصٍ كحل أسود.

حوَّلت بضع قطرات من اللعاب القرص الأسود إلى عجينة لاصقة كحَّلت بها رموشها بعناية. وضعت طبقة بعد طبقة حتى انغلق جفناها تحت ثقل رموشها الكثيفة. وأخيراً اختفى لون شفتيها الطبيعي تحت أكثر ألوان الشفاه الوردية اللامعة شحوباً التي طلتها بدقة على فم صغير مزموم وهي تتدرب على مطّ شفتيها أمام المرآة.

نظرت إلى صورتها في المرآة نظرة رضى. زمَّت شفتيها وابتسمت. وما فاقَمَ سرورها هو أن المرآة لم تظهر أيّ علامة من علامات المراهقة الخجولة التي حرصت أمها على التركيز عليها، ولا أي إشارة إلى الفتاة القديمة التي كانت تعمل في المقهى.

لا، ها هي فتاة عصرية، تتقاسم الطمأنينة مع أناس يثيرون إعجابها.

شعرت أنها تخرج من شرنقة وأنها تخلَّصت من الجلد الآمن «للفتاة المطيعة». وفي أعماقها، لم تزل تنقصها الثقة بالنفس الضرورية لكي تصدّق تماماً انتهاء تحولها، لكنها بذلت قصارى جهدها لطردِ هذه الفكرة من ذهنها.

فضَّلت أن تستمتع بصورتها الجديدة. وعبست بوجه فتاة المرآة.

- قالت: وداعاً يا أنطوانيت. ومرحباً بتوني.

لقد ولد عالمها الجديد وها هي تغدو فتاة مستعدّة للاحتفال بسهرة يوم السبت.

# 6

وها قد أصبح مظهر أنطوانيت لائقاً، فدَعَتها الفتيات اللاتي صادفتهن في المقهى لقضاء أمسيات يوم السبت معهن. كانوا يجتاحون في شكل مجموعة الأماكن المنعزلة ليرقصوا فيها ويمضون السهرة في الهزّ والقهقهة ومغازلة الفتيان.

وأخيراً، شعرت أنطوانيت أنها مقبولة. وأكثر من الجميع، رغبَت بصديقات وبمرافقة شباب آخرين. كانت لديها حاجة ملحَّة لأن تنضمّ إلى مجموعة وأن تضحك ضحكاً متواطئاً معهن وأن تفعل ما افتقدته طيلة حياتها: أن تلهو.

وذات صباح سبت، راقبت بتأثّر بداية تحويل الحقل المجاور في موقع موحل إلى مكان ساحر. وأخيراً ستدخل إلى هذا العالم السري، العالم الذي يرتدي فيه الشباب أحدث الأزياء، ويرقصون طوال الليل، ويدخّنون لفافات التبغ ليمنحوا أنفسهم هيئة أنيقة ويشربون الكحول المهرّب سراً. لم يَسَعها الانتظار أكثر.

شاهدت بكرة الأسلاك الكهربائية التي يمدّونها من مولّدات ديزل ضخمة صاخبة لتغذي الأضواء الساطعة التي تُنير الراقصين.

ولاحظت كرة ذات سطوح وشيء لم ترَه إلّا في التلفاز، ينقلونه إلى الخيمة.

وجلبوا ألواحاً خشبية إلى الداخل ووضعوها كأرضية على التربة الرطبة، ثم جاؤوا بالأثاث. ونقل حشد من المساعدين طاولات قابلة للطيّ وعدداً من الكراسي رُتبت حول المرقص الخشبي المركَّب على عجلٍ. أخبروها بأنه سيكون هنالك مَشرب، لكنه لا يقدِّم سوى مشروبات خالية من الكحول. وكلّ مشروب أثقل لا بد أن يُهَرَّب سراً، لكن ذلك ليس صعباً. كان الأشخاص المتساهلون المكلّفون بالأمن والبحث عن الكحول الممنوع يفتشون الزبائن ذوي الجيوب المنتفخة بشكل سطحي ونادراً ما يعثرون عليه. كانت جدران الخيمة تُرْفَع بسهولة ويجري تمرير زجاجات مليئة بالكحول من بين ثنياتها إلى أيدي المتواطئين الشرهة.

كانت أنطوانيت تحبّ الشراب. فمنذ أن درَّبها والدها على الانتشاء بالكحول، صارت تحبّ الإحساس بالخدر والاسترخاء الذي يحمله المشروب. وبينما كان معظم الشباب يكتشفون الكحول، كانت أنطوانيت معتادة عليه. وحتى الآن، تحبّ الاحتفاظ بزجاجة في غرفتها، وتُخرجها عندما تحتاج إلى شرابٍ منعش. وحين صارت تبدو أكبر من عمرها، استطاعت أن تشتري الكحول من متاجر الخمر والمشروبات الروحية متذرّعة بأنه لأمها.

وفي الفترات الأخيرة، راحت تخفي في غرفتها زجاجة فودكا صغيرة، مشروبها المفضل، معتقدة أنّ رائحتها لا تفوح في أنفاسها. ولأنها لم تكن تعرف إنْ كان الكحول سيتوفر فعلاً في هذه السهرات، قرَّرَت أن تحتسيه قبل مغادرتها، فتناولت جرعة كبيرة.

وبعد أن أدفأتها ثقة مُحرّضة وقدحا فودكا، لبست جواربها اللحمية الشفافة الأميركية وثبّتتها بحوامل مطاطية وردية. ثم انزلقت في ثوب ضيق جداً كادت معه ركبتاها تتلامسان، وانتعلت بصعوبة كندرتها ذات الكعب المدبّب. رفعت شعرها أعلى ما يمكن، ثم رشّته ببرنيق ملوّن، فحوّلته إلى هالة صهباء زاهية، وكلما ثابرت على مساحيق تجميلها، فَقَدَ وجهها احمراره ليتخذ شحوباً شبحياً. حدقت عيناها المطوقتان بالأسود الأشبه بعيني باندا من عيني ظبية، حدّقتا لآخر مرة بالمرآة، ففرحَت بما رأت. أصبحت جاهزة الآن لتجرجر ساقيها وتجتاز المسافة القصيرة التي تفصل البيت عن الخيمة.

وهي تنزل السلالم وتدخل إلى الصالون، لم يخطر ببال أنطوانيت ما ستكون عليه ردّة فعل أمها تجاه تحوّل ابنتها. لكنها سمعت الشهقة المصدومة عند دخولها، فأشاحت بنظرها عن وجه روث المرتاع وهي تتجه نحو باب المدخل. كانت تستخف بما تفكّر فيه أمها. أخيراً سوف تهزّ خصرها الأهيف على حلبة الرقص، وهذه السهرة هي الشيء الوحيد الذي يهمّها.

هذه المرة، ظلت روث مبهوتة بلا صوت، وقبل أن تستردّه، سارعت أنطوانيت إلى الخروج.

- أنا ذاهبة! هتفت أنطوانيت بلا اكتراث وهي تغلق الباب بإحكام وراءها.

كانت مجموعة فتيات يرتدين زياً مشابهاً لزي أنطوانيت ينتظرنها في رتل سبقَ أن تشكّل أمام الخيمة. وحين أصبحن في الداخل، قصدن دورات مياه السيدات، وهن يضحكن ويثرثرن، ويتخطرن أمام

المرايا. فتحن حقائبهن بطقطقة كعادة المراهقات لإصلاح مساحيق التجميل. ولم يخطر ببالهن أنّ مسير عشر دقائق من منازلهن إلى الخيمة من شأنها أن تعرِّض ساعات من التبرج للخلل. ومرة أخرى أيضاً حللن شعرهن ولففنه ورفعنه ثم رششنه بالبرنيق بسخاء، فملأن الجو بسحابة من العطر الرخيص. ورفعنه للأعلى أكثر أيضاً بإدراج أسنان مشط فيه، وعندئذٍ فقط اعتبرن أنه لم يعُد هنالك ما يضفنه.

تفحصت الفتيات بعناية وجوههن ليتأكّدن من أنهن وضعن ما يكفي من مساحيق التجميل لإخفاء سحناتهن الفتية، ثم طلين شفاههن بطبقة جديدة من أحمر الشفاه. وحين شعرن بالرضى عن صورتهن في المرآة، ساعد بعضهن الآخر لإدخال دبابيس إنجليزية في مواقع استراتيجية على طول سحّاب ثوبهن.

- تعالي، قالت إحدى المتأنقات الشقراوات ذات عينين زرقاوين لأنطوانيت. سأرتِّب لك هندامك. أين دبابيسك؟

- ليست لدي دبابيس. وبماذا تفيد؟

فجّرت سذاجتها قهقهات طفولية.

- إذا كنتِ لا ترغبين بوضعِ حدٍّ للسهرة، فعليك تثبيت ثوبك عند الخصر بدبابيس. سيسرف الفتيان في الشراب من الحانة وتعرفين النتيجة، قالت لها الفتاة وهي تتبادل ابتسامات ماكرة مع صديقاتها الأكثر خبرة.

حتى تلك اللحظة، ما كان بمقدور أنطوانيت أن تتخيل أن السحّابات تشكِّل إغراءً لا يُقاوَم إلى هذا الحدّ للشبان الراقصين. لم تفكر إلّا في الرقص ولم تطرح على نفسها أي سؤال حول رغبات الفتيان.

ازدردت ريقها بينما راحت صورة تتشكل في ذهنها عن عصابة شباب سكارى ذوي أيدٍ رطبة «ولا يشغل رأسها إلّا شيء واحد».

رأت سالي، الشقراء الأكبر سناً في المجموعة، الخوف الذي طفا على وجه صديقتها الجديدة.

- قالت لها وهي تحاول طمأنتها: لا تخافي. لا يأتي معظم الفتيان إلى هنا إلّا ليجرّبوا حظهم. أوه، لن يقولوا لا إن سنحت لهم فرصة، لكن كلّ شيء سيَسير على ما يرام. على أية حال، هذه الدبابيس موجودة لتَردعهم وتمنع أيديهم الرطبة من الصعود. سأعطيكِ بعضاً منها.

استدارت أنطوانيت بخضوع وغرَزت سالي الدبابيس الإنجليزية في داخل ثوبها بحذرٍ، ووضعتها على امتداد السحاب من الأسفل إلى الأعلى. وبعد أن أرخت الفتيات فساتينهن، ذهبن إلى القسم الرئيس من الخيمة حيث راحت الأوركسترا تعزف مقطوعة موسيقية سريعة.

لاحظت أنطوانيت أنّ قدميها تربتان مع النغم وأحسَّت أن توترها يتبدّد وهي ترى من كل ناحية مجموعات من الشبان الجالسين، يثرثرون أو يهزّون أردافهم على حلبة الرقص.

اشترت الفتيات مشروبات غير كحولية ثم تحدَّثن بلا توقف فيما بينهن وهن يتفحّصن كلّ الرجال الحاضرين. وأخيراً جلسن. مرَّ فتيان من أمامهن يرتدون سترات رياضية وسراويل بطيّات ظاهرة للعيان قبل أن يقتربوا منهن ليدعوهن إلى الرقص.

حين اقتربوا، نظرنَ إليهم ووافقن بابتسامة، ثم وهنّ يمسكن أيدي مراقصيهم، تركوهم يقودوهن إلى حلبة الرقص.

وفجأة، سمعت أنطوانيت صوتاً يسألها :

- هل تودّين أن ترقصي؟

رفعت عينيها ورأت فتى مبتسماً بوجه مدوّر، لا يزيدها سناً. أمسكت بيده الممدودة مثلما رأت صديقاتها يفعلن، وتبعته إلى الرقص. حاولت أن تتذكر الخطوات التي تدرّبت على تكرارها في منزلها؛ ثم طغى إيقاع الأوركسترا فشعرت بنفسها محمولة على أرجوحة.

بعد الرقصة الأولى، طلب رفيقها منها رقصة ثانية، ثم ثالثة. وحين أخذت الأوركسترا استراحة، شكرت رفيقها وهي مفعمة بالثقة بعد رقصاتها وانضمّت إلى صديقاتها. كانت مجموعتهم شعبية لأنهن كنّ فتيات مرحات خرجن للهو ولم تفلح مساحيق تجميلهن الكثيفة أن تخفي جمالهن الطبيعي. ودعوة وراء دعوة إلى مشروبات مدعومة بالفودكا مهربة، شعرت أنطوانيت بثقة أكبر في نفسها فراحت تهزّ خصرها على إيقاع الأوركسترا ووجنتاها حمراوان.

احتفظ بها شريكها الأول حتى الرقصة الأخيرة. وبينما أخذت الأنوار تخفت، لم تعُد تسمع سوى صوت الموسيقى البطيئة لآخر رقصة فالس. جعل الكحول جسدها مسترخياً فاستسلمت لمتعة الاستكانة وأراحت رأسها على كتف شريكها وهما يدوران حول حلبة الرقص. رفعت رأسها بينما لا تزال الموسيقى تعزف وأحسَّت بخدّ رطب عليه زغب خفيف يستند إلى خدها. صعدت يدان برعونة من فوق خصرها حتى استقرتا تماماً تحت صدرها. تقوست أنطوانيت غريزياً لتتفادى الالتماس الجسدي. سحبت يدها عن كتف شريكها واحتضنت يده بلطف، وابتسمت هازّة رأسها بخفة. وهكذا أشارت إليه أنها تحبّه حباً جماً لكنها ليست فتاة سهلة.

كانت تعرف أنه يترتب عليها أن تتعلم اللهو بين الجنسين والقوانين الضمنية التي يتواصلون من خلالها، إن أرادت أن تكون مقبولة من مجموعة صديقاتها الجُدد.

لم يكن شريكها مستعداً للاعتراف بهزيمته. وبينما كانت يد أنطوانيت تثبت يده، مال بوجهه إلى وجهها وشعرت بشفتيه تبحثان عن فمها فيما حاولت يده الأخرى عبثاً جذب جسدها إلى جسده.

انكفأت أنطوانيت برأسها إلى الخلف، وحدقت في عينيه وندت عنها ضحكة صغيرة فيما أخذ جسدها يتصلب تجاه مناوراته. أدرك أنه رغم ما يوحي به مظهرها، هي فتاة محتشمة، فأفلت يدها وابتسم بهيئة خجولة. في هذه السن، كما تعلّمت، يحلم الفتيان أن يجدوا فتيات سهلات، لكنهم نادراً ما ينجحون في ذلك.

ثم عزفت الأوركسترا النوتات الأخيرة وأضيئت الأنوار ثانية. ودَّعت أنطوانيت صديقاتها وهي سعيدة ومتعبة، وعادت إلى بيتها، وشعرها يفوح برائحة التبغ وأنفاسها برائحة الكحول.

استمرت الرائحة حتى اليوم التالي عندما نزلت ووجدت أمها جالسة في أريكتها، تنتظرها. قرأت استهجانها حين اشتمّت رائحة الكحول والتبغ القديم الكريهة.

- هل تسليتي جيداً مساء البارحة؟ سألتها روث بلهجة تبيّن أنها تأمل العكس.

رفضت ابنتها التي لم تزَل غارقة في إحساس السعادة بأول حفلة راقصة لها أن تبتلع الطعم.

- نعم، شكراً ماما، أجابتها بهدوء.

- كما تعرفين، كنتِ لوحدك مشهداً استعراضياً. بالتأكيد لا

يمكنني أن أمنعكِ من إنفاق نقودك كما تريدين. لكنني أمنعك من الخروج معي بهذا الشكل. لا أريد أن أكون مُحرَجَة.

نهضت روث لتغادر الحجرة، ولكنها قبل ذلك، رمَت سهمها الأخير.

- لا أدري ما سيقول والدك بشأن كلّ هذا عندما سيعود.

أصيبت أنطوانيت بذهول شديد عقد لسانها ممّا سمعته، ومكثَت تحدِّق في أمها. تبدّدت متعة الليلة السابقة، وحلّ مكانها إحساس بالذعر.

لم تحسب قط أن تسمع أمها يوماً تُخبرها بأمر كهذا وارتعَبَت من ذلك.

وخلال بضعة أسابيع تالية، نبت للبذرة جذر، فكبرت حتى اجتاحت أحلامها، وجعلت لياليها مضطربة مع شعور بذعر متنامٍ يهدّد بخنقها.

# 7

قريباً، ستذهب أنطوانيت للرقص كلّ أسبوع. وعند عودتها، ستفوح رائحة جديدة من أنفاسها: رائحة قيء. أصبحت غير قادرة على رفض المشروب الزائد، فصارت معدتها تتشنّج بسبب الغثيان.

أصبح هذا روتينياً. فحين تترك الرقص أو الخيمة على عجل، يسوطها هواء الليل البارد، لكن إسرافها في شرب الكحول أقوى من أن يزول الثمل. عندئذٍ تتصاعد موجات غثيان إلى حلقها، ما يدفعها للتقيؤ. تترنّح وهي تضع منديلاً أمام فمها، وتلوذ في عتمة السيارات المركونة، راجية أن تكون في منأى عن الأنظار.

ثم تحاول، وهي تضع يدها على غطاء أقرب سيارة، أن تحافظ على توازنها بينما تنحني دامعة العينين وجسدها يرتعش من الغثيان، وتتقيأ الكحول. يتدفّق من فمها سائل أصفر مرّ حار، يحرق بلعومها حتى لا يعود لديها شيء تلفظه.

ثم يأتي الحزن، المرافق الطبيعي لنشوة أزكاها الكحول، ليغمرها فيما تمسح فمها بزاوية منديل، وتنهض وتستأنف سيرها المترنح إلى بيتها.

أثبتت لها خبرتها بالكحول حين كانت أصغر سناً أنه يمكن أن

يساعدها على تسكين اضطرابات الذهن وكذلك الآلام الجسدية. لكنها لم تدرك أنها تجاوزت الحدّ الفاصل بين فتاة تشرب في سهرة ومراهقة مُدمنة على الكحول. وحتى لو فهمت أنها كانت تواجه مشكلة، لاستهزأت بها. فكلّ ما تعرفه هو أنها تشعر بتحسّن مع كلّ جرعة تبتلعها: كان خوفها يتلاشى، وتوتّرها يتبدّد وثقتها بنفسها تزداد.

كانت تستطيع إضحاك الآخرين بقصصها، وتشعر أنها عضوة مقبولة في المجموعة، وحين تضجع، تهرب أفكارها في خبل حرَّضه الكحول.

ولكن هنالك ثمن يجب دفعه. كانت تنهض صباح الأحد على مضض، غير راغبة في مواجهة نتائج إفراطها ليلة الأمس. كان الدم يطرق جمجمتها، وموجات ألم تخترقها من خلف عينيها وفي كلّ رأسها.

كانت تشعر أنّ لسانها منتفخ، وحلقها جاف، ولم تكن ترغب بأكثر من قضاء بقية النهار تحت الأغطية.

لكنها كانت ترفض منح هذه السعادة لأمها باستسلامها إلى العذاب الذي فرضته هي على نفسها، فقد كانت تعرف أنّ روث تظن أنّ لديها ما يكفي من الأسباب للتذمّر من سلوك ابنتها دون أن تقدِّم لها هذه الأخيرة أسباباً أخرى.

كانت تفضِّل عندئذٍ أن تتذكر السهرة السابقة. فتسترجع صور المرقص حيث تتناقش مجموعة من فتيات جالسات ويتمازحن متجنبات عمداً نظرات الفتية الذين يتمشون حولهن. بدأت أنطوانيت تفهم كيف تسير الأمور الآن. كانت هذه منافسة بين أنطوانيت

وصديقاتها، ومن تبدي فيها لامبالاة أكثر، ستكافأ بدعوة من فتى سبق أن اخترنه. وحين يقترب، يحلّ تعبيرٌ محايدٌ محلّ الإثارة البادية على الآخرين وتقبَل ببرود، وشبه تراجع، دعوَته إلى الرقص بهزة جافة من رأسها المرفوع.

كان الجنسان يعرفان ما يريدان: الفتاة تريد أن يتبعها الشاب ويغازلها ثم تفوز بصديقٍ جذاب. والفتى يريد أن يُظهر لأصدقائه أنّ بوسعه الحصول على فتاة يختارها.

ولكنهم رغم تبجّحهم، كان الفتية يعرفون القواعد. كان بمقدورهم التوغّل أكثر، لكنهم لا يتفاجؤون حين لا يسير الأمر على ما يرام. كانوا يعرفون أنّ قبلة حارة خلف سيارة وبعض المداعبات السريعة قد لا تفضي إلّا إلى رفضٍ من يدٍ ناعمة لكنها حازمة.

في بداية الستينيات وقبل حبة منع الحمل التي ستفجّر ثورة جنسية، كان أيّ حمل يؤدّي إلى الزواج أو العار؛ وكان الجنسان يعرفان ذلك، ولأسباب مختلفة يفضّلان تجنبه.

كانت أنطوانيت، بالمقابل، تلعب لعبة مختلفة. تريد الفودكا وتتحرّق رغبة لأن يصبح عالمها ضبابياً؛ فتتقبّل الإحساس بالدوار، ثم تمرِّر معصميها تحت الماء البارد وترش الشريان الذي ينبض لتهدأ قبل أن تصبّ لنفسها قدحاً آخر.

كانت تبتسم ابتسامة جميلة لأول فتى لديه زجاجة مخبّأة. فيملأ على عجل كأسها وقد اختلطت عليه دوافعها وحين تعرف أنها لن تحصل على كأسٍ آخر إلّا إذا أعطته أكثر من ابتسامة، تفرغ قدحها بجرعة واحدة وتنصرف سريعاً.

لم يكن أمام أنطوانيت إلّا القيام بمناورات سريعة وراء سيارة أو

أن تحمي عفَّتها حين يحاول شاب أن يرفع تنورتها سعياً منه للحصول على مكافأة بعد أن قدَّم لها عدة أقداح.

لم تهتم البتة بهذا النظام الخاص للمقايضة وظلّت تتهرب منه قبل أن يحدث. كانت صديقاتها أصغر سناً من أن يفهمن أنّ هوسها هو المشروب، وليس الفتيان. لكن روث كانت تعرف ذلك حقّ المعرفة.

المشروب هو الذي منعَ أنطوانيت عن الإقرار بأنّ علاقتها مع أمها تغيرت. فالثقة والصداقة اللتان طالما اهتمّت بهما تبدّدتا الآن. وقد كشفت لها روث أخيراً عن مخطّطاتها وأدركت أنطوانيت أنّ فرصتها الوحيدة للبقاء على قيد الحياة هي في التطهّر من هذا الحب الذي لا تزال تكنّه لأمها.

كانت أنطوانيت تعرف أنّ أمها بدأت تعتبرها مشكلة، تماماً كما اعتبرتها خلال تلك السنوات المريعة رافضة الإقرار بما كان يحدث. أما اليوم، وبينما تهرب أنطوانيت من مراقبتها، تخال روث بكلّ بداهة أنّ عبء ابنتها أصبح أثقل حملاً في حياة مزروعة بآمال وهمية. وكانت أنطوانيت تشعر بذلك.

الآن وقد أفصحت بوضوح أنها ستستقبل زوجها في بيتها وكأنّ شيئاً لم يحدث، بدأت تنتقص من قدر أنطوانيت ما أمكنها، مضطهدة إياها بمناورة ماكرة وذكية حتى تتقبّل ابنتها الوضع.

كانت روث تريد أن تسيطر، وتعرف بالضبط الكلمات التي ستجعل ابنتها تذعن بإشارة إصبع وغمزة عين.

تشرع بمخاطبتها:

- تجعلينني مهمومة دوماً عليك، يا عزيزتي. لا أستطيع النوم

قبل أن تعودي. لذلك أنا في غاية التعب هذا الصباح. هل ترغبين أن أقلق إلى هذا الحدّ؟

وحين تتعب من العزف على وتر شعور أنطوانيت بالإثم، تنتقل إلى الهجوم - أنتِ تخيّبين أملي كثيراً - وإلى الاتهامات - لا أعلم مع مَن تكونين أو ماذا تفعلن هناك، أنت وصديقاتك، بالمقابل، ليست رائحتك عند عودتك غريبة عني على الإطلاق.

كانت أنطوانيت تحاول أن تتجاهلها وهي تركز بهيئة متحدّية على برنامج جوك بوكس دجوري[1] وعلى مساحيق تجميل وضعتها من أجل سهرة احتفال جديدة في مرآة مستندة إلى التلفاز. ثم تُخرج روث ورقتها الرابحة:

- أنت تعرفين أنني أحبك.

كانت أنطوانيت تودّ أن يكون هذا صحيحاً أكثر من أيّ شيء آخر؛ ورغم الغضب الذي تشعر به تجاه خيانة أمها، لا تزال تحبّها ولا ترغب بشيء أكثر من أن تكون محبوبة بدورها. وخلال الأسابيع الفاصلة بين زيارة والدها وإطلاق سراحه، سعَت إلى كتم صوت روث التي تحاول أن تجعلها تنخرط في إعادة كتابة حكايتها. مارست أمها بمنتهى الفظاظة دهاءها خلال تلك المرحلة حتى يبدأ الإذعان، وهو العادة الأساسية في طفولة ابنتها، يتغلّب. طالبت أنطوانيت أن تلعب لعبة الأسرة السعيدة، وأن تتظاهر أنها تنتظر

---

(1) برنامج تلفزيوني بثته محطة البي بي سي بين عامي 1959 و1967 وكان يُدعى إليه أربعة مشاهير للحكم على آخر الأسطوانات المنتشرة في الأسواق.

بفارغ الصبر عودة والدها وأن تقتنع أنه لم يحدث شيء قط من شأنه أن يجعلها لا تطيق تلك الفكرة.

- سيعود البابا قريباً إلى المنزل، يا عزيزتي، كانت روث تعلن لابنتها بصوتٍ مرح وهادئ، كما لو أنها لا تستطيع إلّا أن تأمل بإجابة تثلج الصدر.

كانت أنطوانيت تشعر ببطنها ينقبض، وتتشنج قبضتاها ويتصاعد خوفها، لكنها تلزم الصمت.

فتستطرد روث بنبرة جافة منعاً لأي نقاش:

- عليكِ أن تحاولي ألّا تُغضبيه، يا عزيزتي.

وتضيف بصوت الشهيدة المعذبة التي يبدو أنها تخالها في نفسها:

- يكفيني ما عانيت! لا يعرف أحد مقدار ما عانيت. لم أعُد أحتمل.

كانت أنطوانيت تصدِّق معاناة أمها -فقد سمعت هذه اللازمة «يكفيني ما عانيت!» مراراً وتكراراً بحيث لم يكن يسَعها إلّا أن تصدقها- لكنها لم تقرأها في عيني أمها.

كلّ ما كانت تراه في روث هو الغضب تجاه المعاكسة، والبرود والحاجة الملحّة للتشبّث بروايتها الشخصية للواقع.

بدأ اليوم المشؤوم لعودة والدها يقترب. لقد سعَت خلال أعوام إلى طرد تاريخ إطلاق سراحه من ذهنها لكنها لم تعُد تستطيع ذلك الآن. وراحت صورة وجهه واللهجة الساخرة في صوته تلازمان ساعات هدوءها - النادرة أكثر فأكثر.

في الأسبوع الذي سبق عودته، أخرجت روث بزهو علبة تحتوي صبغة كستنائية.

- هذه الكعكة الصهباء يجب أن تختفي. إذا رغبتِ بتصفيفه على هذا النحو مع صديقاتك، لا يمكنني منعك، لكن ما دمتِ تعيشين هنا، ستخرجين من المنزل برأس محتشم، أعلنت لابنتها بنبرة حازمة.

كانت أنطوانيت تعرف أنه لا جدوى من الاحتجاج. ولم يكن من الصواب أن تحنق أمها عليها قبل بضعة أيام من عودة والدها إلى البيت، كانت تعرف ذلك.

تناولت غسول الشعر وهي تتنهّد، وفركت به شعرها حتى أصبح سابلاً وصبغته. وبعد ساعة، غسلت شعرها مرة أخيرة، وجفّفته بمنشفة أمام الموقد، وتمرّت في المرآة وألفت نفسها أمام صورة أنطوانيت عديمة الشأن. لم يتبقَّ شيء من توني التي كانت تتحلى بالشجاعة رغم كلّ أخطائها. وحلّت مكانها المراهقة المذعورة الشبيهة بالضحية التي كانتها. لقد فازت أمها - قوّضت الثقة التي نجحت أنطوانيت ببنائها منذ اختفاء والدها من حياتهما. والآن، مع اقتراب عودته، صارت تشعر أكثر من أيّ وقت مضى بأنها أعيدت إلى المربع الأول.

نظرت أمها إلى اللون الجديد.

- جميل جداً، يا عزيزتي، أبدَت تعليقها الوحيد، الخالي من الحرارة.

لم يكن هذا يُعتبر إطراءً.

في الأمسية التي سبقت عودة والدها، خيَّم صمت مزعج بين

أنطوانيت وأمها. ليس لدى أنطوانيت سوى رغبةٍ واحدة، أن تلتجأ إلى غرفتها وتطرُد من ذهنها كلّ الأفكار عن والدها ومجيئه، لكن روث صمَّمت على أن تمثّل بالكامل مهزَلة الأسرة السعيدة.

عندما لا تقول أمها شيئاً، تعرف أنطوانيت أنّ ذلك ليس سوى توطئةٍ للأسوأ القادم، وكلّما تقدمت السهرة، ازداد انفعالها.

- أنا ذاهبة للنوم الآن، خلصت إلى القول. أشعر بتعبٍ شديد هذا المساء.

عندئذٍ عرفت روث أنها فازت في المباراة وأن تمرّد ابنتها القصير صارَ تحت سيطرتها الكاملة، فسدَّدت ضربتها القاضية[1].

رفعت عينيها نحو ابنتها وقالت:

- غداً يا عزيزتي، ستذهبين لإحضار البابا وستعودين إلى البيت معه. لديّ عمل في الصباح وأعرف أنّ عملك في المساء، إذاً وقتك شاغر في النهار.

فتحت حقيبتها، وأخرجت ورقة نقدية من فئة العشر شيلينغات[2] ودسَّتها في يد ابنتها، وهي تبتسم ابتسامة غير صادقة، لكنها تنمّ عن عزيمة فولاذية. ثم، أضافت كأنها تستدرك دلالاً خاصاً:

- بهذا تقدِّمين له كأساً من الشاي في تلك الحانة التي تحبّينها.

- أجابت وهي مخبولة ومذعنة: حسناً ماما.

بهذه الكلمات، شعرت أنطوانيت بعودة سلطة أمها عليها ورأت

---

(1) باللغة الفرنسية في النص الأصلي.

(2) ورقة نقدية سُحبت من التداول عام 1969.

بريق الرضى في عيني روث التي تذوّقت طعم الانتصار. وكما فعلت كلّ مساء قبل تمرّدها، قَبَّلَتْ أنطوانيت بسرعة خدّ أمها وذهبت للنوم.

كانت تعرف في قرارة نفسها أنّ عالم أمها اللاواقعي امتصّها في نهاية المطاف عبر المرآة. وعلى نحوٍ ما، أدركت أنّ أمها بحاجة إلى أن تعتقد أنها هي، روث، زوجة مخلصة وأم رؤوم وأنّ جو هو الزوج الإيرلندي الوسيم الذي تعبُده. وكلاهما، لديهما ابنة لا تسبِّب سوى الهموم وروث تعاني منها.

كانت ضحية عار زوجها، ولكن ما دامت أنطوانيت ستتصرّف بحسب الأصول، ولن تزعج والدها عند عودته، فكلّ شيء سيسير على ما يرام.

في عالم روث، كانت أنطوانيت الابنة المشاكسة المسؤولة عن كلّ المشاكل. وحتى حين كانت أنطوانيت تناضل ضدّ هذه الفكرة، لا تلبث أن تفكر في أنّ أمها قد تكون محقة.

# 8

كان المقهى الذي رتّبت فيه روث لقاء أنطوانيت بأبيها هو أحد المقاهي العديدة التي انتشرت كالفطر في وسط بلفاست. كانت حانات الخمر الرائدة تبيع الكابتشينو لشباب بلفاست وكان هذا المقهى هو المفضّل لدى أنطوانيت. ففيه تلتقي هي وصديقاتها قبل الذهاب إلى المرقص، ويحتسون مشروباتهن ذات الرغوة وهنّ يعددن العدة للسهرة القادمة. وعصر ذلك اليوم، يوم إطلاق سراح والدها، لم تشعر بأيّ متعة في هذه البيئة المألوفة؛ بدا لها الداخل المعتم مرعباً بينما بقيت آلة القهوة الكبيرة ذات اللون الفضي والأسود، التي تصدر عموماً صفيراً وقرقرة ماء لطيفة، صامتة على المشرب.

كان الوقت مبكراً جداً في النهار بالنسبة إلى مجموعة زبائن المساء، وجمهور الظهر، وهو خليط من رجال أعمال متأنّقين ونساء رقيقات، عاد من جديد إلى العمل.

غمرتها عودة والدها الوشيكة بالاكتئاب. فسقطت فيما يشبه الثقب الأسود، ولم تستطعْ حتى التفكير في اليوم التالي. بدت لها أصغر مهمة مستحيلة ومن شأن أيّ شيء أن يثير ذعرها. لم يعُد لديها

أيّ ردة فعل وأصبحت الروبوت الذي كانته فيما مضى، في أمان فقط حين تطيع الأوامر.

هذا من دون احتساب وساوسها الأخرى. ماذا ستقول لو صادفت إحدى صديقاتها؟ كيف يمكنها أن تبرِّر وجود والدها؟ ولماذا رتّبت أمها هذا اللقاء فوق ما تعتبره أنطوانيت أرضها؟ كان هذا كما لو أنّ كلّ استقلال كسبته وكلّ حياة خلقتها لنفسها، قد انتزعوا منها.

تدور كلّ هذه الأفكار في رأسها وهي تتجه نحو إحدى الطاولات الخشبية وتتّخذ مقعداً. يجب أن تصل حافلة والدها في الساعة الثالثة. وهذا ما سرَّها، لأنها تعرف أنّ احتمالات لقائها وجهاً لوجه مع شخص تعرفه في تلك الساعة كانت ضعيفة.

تتساءل، أيّ أبٍ سيسلّم عليها. الأب «اللطيف» الذي التقى بزوجته وابنته على أرصفة بلفاست البحرية قبل أحد عشر عاماً؛ الأب الذي غمر روث بالسعادة وهو يضمّها بين ذراعيه وأضحك ابنته من السرور عندما قذف جسدها الصغير ذا الأعوام الخمسة في الهواء، قبل أن يطبع قبلة طنّانة على وجنتيها؟ ذاك الأب، الرجل المرح الذي ربّت تحت ذقنها بينما كان يقدِّم لزوجته علب الشوكولا بعد إحدى مشاجراتهما العديدة، لم يكن سوى ذكرى باهتة. أم سيكون الأب الآخر، بعينيه الحمراوين المحتقنتين وفمه المرتجف من شدة الحنق عند رؤيتها؟ خوفها من هذا الرجل الذي شعرت به في طفولتها وتتذكّره بوضوح، ذلك الخوف الذي حاولت طرده من ذهنها، عاد إليها.

وصلت أنطوانيت مبكرة. ارتدت كما في السابق: شعرها

المغسول حديثاً ينسدل الآن حتى ياقة سترتها البحرية وحلَّت تنورة رمادية وطقم توينز أزرق باهت مكان بنطال الجينز والقميص اللذين كانا زياً موحداً للشباب. دخلت أمها باكراً إلى غرفتها ذاك الصباح. جهَّزت نفسها للقاء زوجها وارتدت سترة رمادية بياقة من الفراء تحيط بوجهها وتلطفه. ماوجت شعرها بلون نحاسي لتخفي الشيب الذي ظهر خلال السنوات الأخيرة وأسدلته بتموجات خفيفة حول وجهها. وطَلَت شفتيها بلونٍ أحمر زاهٍ، اللون الذي ظلَّت تحبه، وارتدت خواتم براقة في أصابع طلت أظافرها بلون قرمزي. فتحت الخزانة واختارت الملابس التي يجب أن ترتديها أنطوانيت.

- هذا يليق بك يا عزيزتي. ارتديه اليوم.

- تمتمت أنطوانيت: لا يعجبني. صار زياً قديماً.

- لا يا عزيزتي، تبدين أجمل به. إنه الأزرق الذي يليق بك. ارتديه إرضاءً لي، إذا سمحت؟

وأذعنت. أرادت أنطوانيت أن تصل قبل والدها لتختار طاولة تطلّ على الباب. تريد رؤيته قبل أن يلاحظها.

كانت ثريات ترسم هالات ضوء خفيفة ودافئة على الطاولات الخشبية. أحضروا لها فنجان قهوة فاضطرت لاستخدام يديها الاثنتين اللتين جعلهما الخوف رطبتين وزلقتين حتى ترفعه إلى شفتيها. شعرت بتشنجات عصبية في معدتها وأصابها الدوار بعد ليلة أرق.

أحسَّت بوجوده قبل ربع ساعة من رؤيته. وهي ترفع عينيها نحو الباب، لم تتبيّن سوى خيال رجل. وظهره إلى الشمس، كان ظلاً بلا وجه لكنها عرفته. سرت القشعريرة في أوصالها فوضعت يديها على ركبتيها لتخفي ارتعاشها.

لم تتّضح ملامحه إلّا حين صار بجانبها.

- مرحباً، أنطوانيت.

حين نظرت إليه، رأت شخصاً لم تتعرّف إليه بعد: الأب التائب. لقد أمضى أكثر من عامين في السجن وباستثناء إجازة نهاية الأسبوع تلك، التي لمحته فيها، لم تتحدّث إليه.

- أهلاً، بابا.

ولأنها لم ترغب بسماع المزيد، بادرت بهذه العبارة:

- أعطتني أمي بعض النقود من أجل كأس شاي.

كانت أنطوانيت متكيّفة حتى أنها راحت تتصرف بشكل طبيعي. كانا يُبديان لأي مراقب خارجي مشهداً عادياً تماماً - رجل يدعو ابنته لاحتساء فنجان من الشاي. ومن الكلمات الأولى التي وجّهتها إلى والدها، تقدمت أنطوانيت خطوة أخرى في عالم أمها. عالمٌ لم يعد يوجد فيه إحساس بالراحة، وتتصرف فيه بحسب أهواء أمها. لم تكن مخيرة، فاضطرت للإذعان. وراحت تلعب دورها في هذه المهزلة كأنّ كلّ شيء طبيعي بينهم.

لكن الوضع لم يكن طبيعياً. فهنا يجلس رجل أُودِع السجن، وشهادتها هي التي وضعته هناك بدلاً من مصحّ الأمراض العقلية الذي أملَت به أمها باعتباره أهون الشرين. ومنذ ذلك الحين تساءلت ما ستكون ردة فعله حين سيتواجهان من جديد وهذا ما توشك أن تكتشفه.

أجبرت نفسها على إخفاء خوفها وعلى النظر إليه. توقّعت أن ترى تغيّرات، ولو طفيفة، على رجلٍ سُجن بجريمة جنسية. ومع أنّ الصحف لم تذكر أنّ القاصر التي اعتدى عليها هي ابنته، إلّا أنّ عمر

ضحيته أحدثَ أثراً بالتأكيد. ولا بدّ أن السجناء الآخرين أعربوا عن استنكارهم الشديد. ولا بدّ أن شعبيته لدى الرجال الآخرين تلاشت تماماً. حتى مهارته في استخدام عصا البلياردو لم تستطِعْ إنقاذه بالتأكيد. ولكنها في خضمّ ارتباكها، لم يبدُ لأنطوانيت مختلفاً عن يوم المحاكمة. لم تزل بزّة التويد التي ارتداها يومذاك لائقة به تماماً؛ وقد عقد ربطة عنقه بإحكام تحت ياقة قميصه القطني الأزرق الباهت المكوي بإتقان.

بدا شعره الكثيف المتماوج، المُضاء ببريق صحراوي، كأنه مقصوص حديثاً ولم تفصح عيناه عن أيّ قلق حين نظر إليها مع ابتسامة دافئة.

جلس مقابلها، وانحنى ووضع يده برفق على يدها. شعرت أنّ أصابعها تتشنج وتنكمش عند ملامسته، ثم ترتجف. لم تخطر في رأسها إلّا فكرة واحدة، أن تنهض من مقعدها وتركض. لم تُسعفها قواها لتفادي نظرته المُنَوِّمَة.

- أنا آسف، قال، كما لو أنّ هذه الكلمات تحمل صيغة سحرية ستبدِّد أفعاله في طرفة عين.

لكنها ودَّت بيأس تصديقه. كانت تريد أن تسترجع إيمانها في عالم الراشدين، وأن تدخل في آلة إعادة الزمن إلى الوراء حيث سيكون بوسعها إعادة كتابة سنواتها المرعبة. وتريد على الأخصّ أن تكون مراهقة عادية مع والدين محبين وطفولة سعيدة، مفعمة بذكريات يمكنها أن تحملها معها إلى سنّ الرشد.

تريد أن تكون قادرة على الابتسام وهي تُعيد التفكير بالماضي، وأن تتشارك الذكريات مع أصدقائها. كانت تعرف أنّ ما يُعاش

شخصياً وعائلياً وودّياً يشكّل بنية الحياة لكن قصتها أرهب من أن تتذكّرها، وأحطّ أيضاً من أن ترويها للآخرين.

كانت تنظر إلى هذا الأب التائب وتودّ تصديقه - لكن لم تكن هذه هي الحال.

كان جو يظنّ أنه فاز. ابتسم وطلب شاياً وكعكاً صغيراً. نظرت أنطوانيت إليه وهو يلتهم طعامه ويرتشف شايه الثقيل، لكنها لم تستطع أن تبتلع شيئاً. تحدِّق فيه بنظرة شاردة تشعر بالخوف المألوف يلوح. حين كانت صغيرة، كان هذا الخوف يعطي لعينيها المرعوبتين لمعاناً باهتاً بينما الغثيان يجعل معدتها تتشنج.

انتهى إلى وضع فنجانه والابتسام لها.

- حسناً، يا صغيرتي، إذا انتهيتِ، بوسعنا التحرّك.

لم يُبدِ أيّ تعليق على فقدان شهيتها، قال لها فقط أن تطلب الحساب وتدفعه. ثم تأبَّط ذراعها مقلداً الأب الودود وأمسكه بإحكام وهو يقودها خارج المقهى.

جلست أنطوانيت ووالدها جنباً إلى جنب في الحافلة التي قطعت المسافة القصيرة بين بلفاست وليسبون حيث يوجد بيت الحارس. صعدا إلى الطابق الثاني في الحافلة لكي يستطيع التدخين.

نظرتْ إليه يلفّ سيجارة، ورأت رأس لسانه يلحس الورق ببطء قبل إشعالها، ثم شعرت به يسترخي وهو ينفث بسعادة حلقات الدخان في الهواء.

تنشّقت الدخان، تاركة إياه يغطي على رائحة والدها المألوفة التي طالما نبذتها. حاولت أن تبدو أصغر ما يمكن. كان ذراع

والدها يتكئ على ذراعها وحرارة جسده تحرق خاصرتها في نقطة التماس. التفتت ونظرت من النافذة. كانت صورة والدها تراقب صورتها بإمعان وشفتاه تفتران عن ابتسامة ودودة مصطنعة، تلك التي عرفتها في طفولتها.

وعندما وصلا إلى وجهتهما، نزل جو وابنته في الوقت ذاته تقريباً. كان يحمل حقيبته الصغيرة بيدٍ ويمسك مرفق ابنته باليد الأخرى.

حاولت ألّا ترتعش حين لم يدَع ضغط أصابعه على ذراعها لها خياراً آخر سوى السير بسرعة إلى جانبه. ومع كلّ خطوة، راحت تعتريها رغبة لا تقاوم في سحب يدها، لكن سنوات التحكّم بأفكارها انتزعت منها كلّ إرادة ولم يعُد بوسعها فعل شيء.

وما إنْ دلفا إلى الممرّ الصغير حتى أفلتَ حقيبته على الأرض. جاءت جودي لاستقبال أنطوانيت، وحين رآها جو، انحنى ومرّر أصابعه بفظاظة على رأس الكلبة الصغيرة على سبيل التحية. وبما أنّ جودي لم تتفاعل مع الاستقبال الحماسي الذي كان جو يعتبر أنه يستحقه، شدّها من أذنيها وبرم بوزها عنوة نحوه. ولأنها لم تعتد على معاملتها بمثل هذه الفظاظة، تلوّت جودي حتى تهرب ثم اندسّت بجانب صاحبتها. اختبأت خلف ساقي أنطوانيت ورمقت الدخيل بنظرة مرتابة.

بدا الغيظ على وجه والدها بعض الشيء. حتى الكلاب كان عليها أن تحبّ جو ماغواير.

- ألا تتذكّريني يا جودي؟ سألها بلهجة مرحة لم تكَد تغطي على استيائه.

- أصبحتْ هرمة الآن، يا بابا، أجابت أنطوانيت بسرعة، وهي تأمل حماية حيوانها من سخطه.

بدا أنه قَبِلَ العذر. دخل إلى الصالون الصغير، وجلس على الأريكة الوثيرة وعاين ابنته ومحيطها بابتسامة رضى.

- حسناً، يا أنطوانيت، ألا يسرّك أنّ والدك العجوز معك في المنزل؟

كان لصوته طابع السخرية. تابع معتبراً صمتها علامة رضى:

- تلطّفي وحضري لي كأساً من الشاي إذاً. ولكن ضعي هذه أولاً في غرفة البابا والماما، قال كأنّ هذه الفكرة خطرت له بعد فوات الأوان.

وبينما كانت تنحني لترفع الحقيبة، رأت من خلال جفنيها المسبلين ابتسامة عريضة ترتسم على شفتيه. صار يعرف الآن أنّ عامين من الغياب لم يقوّضا سنوات التدريب التي حالت دون اكتسابها نمواً عاطفياً طبيعياً. لم تصبح أنطوانيت مراهقة متمرِّدة - وقد حرص على هذا. رأت الابتسامة وفهمت معناها. حملت الحقيبة دون أن تتفوّه بكلمة، فسلطته لا تزال كاملة وهي تدرك ذلك، لكنها تعرف أنّ عليها إخفاء حقدها الذي يكبُر في داخلها. وهي تصعد بالحقيبة، أحسَّت أن عينيه تترصّدان أقلّ حركاتها. أفلتت الحقيبة في غرفة والديها، وراء الباب، وهي تحاول ألّا تنظر إلى السرير الذي سيتقاسمه مع أمها الآن. ثم نزلت إلى المطبخ وملأت كالإنسان الآلي غلاية الماء ووضعتها على السخان الكهربائي. اجتاحت ذهنها ذكريات قديمة، عندما استخدم طقس الشاي هذا كأسلوب للمماطلة. فكَّرت بأمها. كانت أنطوانيت تلعنها في قرارة نفسها وتطرح أسئلةً

تتحرّق رغبة للحصول على إجابات عنها. «ماما، كيف يمكنك أن تعرِّضينني لخطرٍ كهذا؟ إذاً أنتِ لا تحبينني على الإطلاق؟ كلّ هذه السنين، وبالتحديد هاتين السنتين، ألا تعني لك شيئاً حقاً؟».

لكنها صارت تعرف الإجابة عن هذه الأسئلة الآن. قطعَ صفير الغلاية أفكارها وصبَّت الماء المغلي فوق أوراق الشاي. وهي تتذكَّر مزاج والدها السيئ إذا ما جعله أحد ينتظر، سارعت إلى تحضير صينية وفنجانين، وسكبت الحليب في إناء ووضعت السكر جانباً، قبل أن تحملهم بعناية إليه.

وضعتهم على الطاولة الواطئة، وتذكَّرت أن تصب أولاً الحليب، ثم تضع ملعقتين صغيرتين من السكر، تماماً كما كان يحب.

- لا تزالين تعدّين شاياً لذيذاً، يا أنطوانيت. أخبريني، ألم تشتاقي لوالدك العجوز؟

ارتعشت وهي تتذكّر المرات العديدة التي أربَكها فيها بمثل هذه الأسئلة، وهي أسئلة لم تستطعْ قط الإجابة عنها بشكلٍ صحيح وتمسّ ثقتها بنفسها وتبلبلها.

وقبل أن تتمكن من الإجابة، جعلت ضربة مدوية على باب المدخل جودي تنبح وانتشلت أنطوانيت من عذابها. لم يحرِّك والدها ساكناً ويترك أريكتها المريحة، وانتظر بوضوح أن تذهب لتفتح الباب.

اتجهت نحو الباب وهي مسرورة لأنها لم تُجب، فتحته وألفت نفسها أمام رجلٍ رقيق الجسم في الخمسينيات من عمره. لم يكن شعره الخفيف الأصهب المفروق إلى الجهة اليمنى وعيناه الرماديتان الصافيتان المحاطتان بنظارات ذات إطار ذهبي يشعّون بأيّ دفء.

كان طقمه الداكن يختفي جزئياً تحت معطف مطري قصير بلون الكريم لكنها لمحت ربطة عنقه المخطَّطة المعقودة بعناية تحت ياقة قميص أبيض ناصع.

لم تره قط من قبل، ولأنها لم تعتَدْ أن يطرق غرباء بابهم، ابتسمت له ابتسامة حائرة وانتظرت أن يوضح سبب زيارته. حدَّق فيها بنظرة باردة محَّصتها من رأسها إلى قدميها، وفي ردّ على هيئتها المستفهِمَة، فتحت يده محفظةً صغيرة بضربة خاطفة. ووضعها أمام عيني أنطوانيت ليُريها بطاقة هويته الموجودة فيها، ثم أعلن بنبرة جامدة:

- مرحباً. أنا أعمل في الخدمات الاجتماعية. أنتِ أنطوانيت؟

مرة أخرى، هذا الاسم الذي تكرهه. هذا الاسم والذكريات المرتبطة به هي اسم شخص لم تعُد تريد أن تكونه. ومع أنه نادراً ما استخدم منذ اعتقال والدها، لكنه صار يُكرّر باستمرار في يوم خروجه. وكلما سمعته، شعرت أنّ هوية توني تتلاشى بالتدريج. وكان سماع والدها يلفظ اسمها يقودها إلى النكوص ويُعيدها إلى تلك الفتاة المذعورة ذات الأربعة عشر ربيعاً التي كانتها عند رحيلها. وها هو هذا الغريب يستخدمه الآن. وفيما هي تنظر إليه بلا استيعاب، استولى عليها حدس سيئ. وطفقت تتساءل لماذا جاءت الخدمات الاجتماعية الآن. فهُم لم يقدِّموا لها عوناً يُذكَر من قبل.

- يمكنني الدخول؟

ومع أنّ كلماته صيغت كسؤال، لكن هيئته جعلت منها أمراً.

- يجب أن أتحدَّث إليكما، أنت ووالدكِ.

وافقت وتنحَّت لتدعه يدخل ويمرّ إلى الصالون. عاين العامل

الاجتماعي باشمئزاز واضح هذا الديكور الوثير. لاحظت أنطوانيت ردّة فعله وعرضت عليه الشاي، فرفضه بازدراء.

كانت تعرف أنّ هذا الرجل لم يأتِ لمساعدتها، فقد شكَّل فكرة مسبقة عنها، واعتبرها مذنبة، دون أن تعرف أيّ ذنب اقترفت. جلست على كرسي له مسند قاس، ويداها معقودتان على ركبتيها لتتحكّم بالارتعاش الخفيف الذي يفضح دوماً انفعالها العصبي، وجلس الزائر على الكرسي الوحيد المريح. شدّ بعناية بنطاله عند ركبتيه ليتحاشى انثناءه كاشفاً عن كاحليه الشاحبين فوق جوربيه. لاحظت أنطوانيت أنّ ركبتيه المتباعدتين شكّلتا رغم مناورته المتأنقة رأسين مدببين صغيرين في القماش. وكانت قدماه الموضوعتان بعناية جنباً إلى جنب محبوستين داخل حذاء أسود لامع إلى حدّ أنها تساءلت هل كان يرى انعكاس صورته عليه عندما ينحني لربطه!

التفت وجهه الشاحب، بقسماته العادية، نحو والدها ليثرثر بلطف مع جو متجاهلاً تماماً أنطوانيت. ظاهرياً، كان يبدو غير عدواني لكن شيئاً ما فيه -برود عينيه، ومظهره المفرط التدقيق، وتكلّفه وهو يفتح محفظة وثائقه ويضع ورقة على ركبتيه- كان يولد فيها اختلاجات توجّس. كانت تعرف أنه قيّمها واعتبرها متخلّفة عقلياً. وسرعان ما فهمت أنطوانيت سبب مجيئه. يريد معرفة مشاريع جو للمستقبل. لقد أُطلق سراحه من السجن للتو، وعلى أية حال، من المفروض أن السجون تقوم بإعادة التأهيل. وكانت تقع على كاهل عامل اجتماعي متفانٍ مسؤولية السهر على تقديم مساعدة كافية في الخارج لكي يُطبّق هذا المبدأ حتى آخره.

- سأل: إذاً، يا جو، هل لديك مشاريع في المدى المنظور؟

أجاب جو بنعم، فقد سبق لهم أن أخذوا في الاعتبار عمله في

الصيانة لدى مكاتب الجيش المحلي - وكانوا يوظفون الميكانيكيين المهرة من القطاع المدني. وبشهادات خبرته القديمة ولأنه التحق بخدمة العلم طوعاً في أثناء الحرب، كان جو واثقاً أنهم سيعرضون عليه العمل. وفي تلك الأثناء، كانت أنطوانيت تعرف من خلال نظرات مختلسة استرقها منها أنها تشكّل أحد أسباب زيارة الخدمات الاجتماعية. وبعد أن أبدى العامل الاجتماعي رضاه على ردّ جو، نظر إليها بهيئة فظّة، مع أنه وجّه سؤاله التالي إلى كليهما.

- عليكما الانتباه جيداً، مفهوم؟

لمحت أنطوانيت في عيني العامل طبع والدها ذاته، قبل أن يتمالك نفسه.

- تمتم جو: أجل.

فَهِم أنه ينتظر منه ما هو أكثر من ذلك، فعاجل العامل الاجتماعي بابتسامة ساحرة وقال بلهجة مفعمة بالأسف:

- فهمتُ الدرس وكلّ ما يهمني الآن هو أن أتصالح مع زوجتي. لم يكن الأمر سهلاً عليها في أثناء غيابي وأريد الاعتذار على الملأ.

- إذاً يا جو، لا تقترب ثانية من الزجاجة.

ما فاجأ أنطوانيت هو أنّ والدها نهض عن أريكته، واجتاز الخطوات القليلة التي تفصله عن زائره، ومدّ يده وصافح الرجل.

- أعلن: أوه، يمكنك أن تعتمد عليّ، وافترت شفتاه عن ابتسامة جديدة.

نهض الزائر معتبراً أنه أدّى واجبه، وأمسك محفظة وثائقه وتهيّأ للمغادرة. ثم التفت نحو أنطوانيت ورمقها بنظرة احتقار وقال:

- وأنتِ، يا أنطوانيت، كوني فتاة لطيفة، مفهوم؟

وهي ترى أنه ينتظر رداً، همهمت بالموافقة.

اتجه نحو الباب وقد سرّه أنه أهانها. رافقته إلى المدخل وبينما كان الباب يُغلق وراءه، أحسَّت أنّ ما تبقى من ثقتها الجديدة بنفسها التي كسبتها بمشقة قد تفتت.

تبدد عامان أعقبا اعتقال والدها وعادت المراهقة ذات الأعوام الأربعة عشر التي لاموها ونبذوها بسبب جريمة والدها.

وهي تسمع خطوات العامل الاجتماعي تبتعد، استندت إلى الجدار وحاولت أن تستردّ هدوءها قبل مواجهة والدها. أرغمت نفسها على تذكّر كلمات القاضي في مكتبه ذلك اليوم: «سيحمِّلك الناس المسؤولية... وأقول لك إنك لم تقترفي أي خطأ»، لكن آراء الآخرين السافلة وَصَمَتْها بالعار دوماً، وفقدت كلمات القاضي قدرتها على المواساة اليوم.

شعرت أنها وقعت مرة أخرى أيضاً تحت رحمة عالم الراشدين، وأنّ هذا العالم خانها من جديد، كما خانها حين اكتشف جريمة والدها.

عادت إلى الصالون وهي تتساءل عن مزاج والدها بعد زيارة العامل الاجتماعي. لم يُظْهِر أيّ ردة فعل تجاه الزائر الذي جاء في غير أوانه، لكنه مدَّ فنجانه لتملأه له ثانية. ثم قال:

- لا تتحدَّثي لأمك عن هذا الرجل. يكفيها ما لديها من هموم الآن.

ولكي يتأكّد من إذعانها، رمقَها بنظرة مُرهبة، ثم استأنف احتساء الشاي بصخب. ولم تأتِ على ذكر هذه الزيارة قط.

# 9

انحسر الماضي وألفيتُ نفسي من جديد في بيت أبي، في صالونه.

أغمضتُ عيني على ذكريات المرحلة المنصرمة، لكنني عانيت مع ذلك من الفراغ الذي خلّفه شبح أنطوانيت.

شَعَرَتْ أنها غير محبوبة وهذا وحده كان يولِّد لديها انطباعاً أنها لا تساوي شيئاً؛ فالأشخاص الحسّاسون تنقصهم الثقة بالنفس، ويرون أنفسهم من خلال نظرة الآخرين.

كانت فكرة واحدة تدغدغ عقلها: بما أنّ والداي لا يحبّانني، فهذا يعني أن جزءاً مني مسؤول عن ذلك.

وأياً كانت الصورة التي تعكسها المرآة، فهي لم تكُن تراها؛ هل هي مراهقة جميلة؟ لا، قبيحة. هل هي ضحية؟ لا، مذنبة. هل هي فتاة تستحق أن تكون محبوبة؟ لا، هي شخص يستحق أن يُنْبَذ.

لماذا لم تحتجّ إذاً؟ لماذا لم تُوضِّب حقائبها بكلّ بساطة؟ وباعتباري راشدة، أصبحتُ أعرف الجواب.

إنّ الحزن الشديد يوهن العقل لدرجة أنه يشلّه مؤقتاً. وحين يُحرَم العقل من أيّ تفكير حرّ، يصبح عندئذٍ عاجزاً عن اتّخاذ أيّ

قرار، ويعجز أيضاً عن التخطيط للهرب. كان اليأس بكلّ بساطة قد حجَّرَ أنطوانيت. لو أنها استطاعت فقط أن ترحل وأن لا تراهما ثانية أبداً، لكنها لم تبلغ بعد سن السابعة عشر في مرحلة لم يكن المراهقون فيها يتركون منزلهم للسكن في بيوت مستأجرة.

لم تشعر بالأمان إلّا للحظات قصيرة من حياتها وتصاغرت على قدر ما تستطيع مع والديها، وكدَّرها الخوف من التفكير في عدم نيل إعجابهم. لكن مهما بلغ بؤس حياتها في منزلها، فإنّ المجهول كان يثير خوفها أكثر.

كانت تظنّ أنها بحاجة إلى شذرات من حياة سوية تحملها حياة العائلة. فليس ثمة فتاة من معارفها تسكن لوحدها ولا تريد في هذه المرحلة الاختلاط بأقرانها وحسب، وإنما لديها دوماً مشاريع للمستقبل أيضاً. فهي تأمل أنّ والدها لو عمل وساهم في المنزل، فلن تتمسّك روث عندئذٍ بأجرها إلى هذا الحدّ.

وطفقت أنطوانيت تقول في سرّها إن هذه المسؤولية لو أزيحت عن كاهلها، لأمكنَها متابعة دراستها في السكرتاريا. فثلاثة أشهر من العمل صيفاً في بلاد الغال لدى بيتلنز ستُضاف إلى رصيدها السابق في البريد.

وكان هذا سيغطي نفقات عام تأهيلها، وحين تحصل على الشهادة، ستستطيع ترك المنزل إلى الأبد.

كانت يدايَ الراشدتان ترتعشان رغبةً للطَّرق على نوافذ بيت الحارس. كنت أريد العودة في مجرى الزمن وتغيير الاتجاه الذي قادتني فيه أفكار أنطوانيت المشوّشة. اجتزت ذهنياً الباب وألفيت

نفسي إلى جانبهما في الحجرة؛ وقد انمحت عقود تقاسمت خلالها الماضي مع الراشدة والمراهقة.

رأيتها في عينيها الشاردتين الآن، وهي تشعر أنها عالقة في فخّ منزل الأسرة الذي تحبّه وخياراتها تتضاءل. ومن خلال هوة السنين التي صارت تفصلني عنها، حاولتُ أن أقنعها.

- ترافعتُ بصمتٍ: لا تبقي! أصغي إلي! غادري الآن! أمك في عملها، وضِّبي حقيبتك وارحلي! لا تعرفين ما سيحدث إن بقيتِ، أمّا أنا فأعرف. أرجئي مشاريع تأهيلك إلى وقت آخر؛ استأنفيها عندما تصبحين أكثر شيخوخة. إن بقيتِ، سيدمّرانك، يا أنطوانيت. لن تحميك أمك أبداً. صدقيني، الأسوأ قادم.

انحنت أنطوانيت لتداعب أذني كلبتها. لم تسمع صوت مستقبلها. سمعت تكتكة ساعة الحائط فوق مدفأة الحطب التي تشير إلى الوقت بلا رحمة.

لا تسير ساعات الحائط بالمقلوب، ولأنني أعرف ذلك، بكيتُ على أنطوانيت.

مرةً أخرى أيضاً، تخيلتُ أنطوانيت التي أرسلتها أمها للقاء أبيها. شعرتُ بصراعها من أجل البقاء وبجهودها اليائسة لتتشبّث بشخصيتها. كانت ترفض تماماً أن يتحكّم بها والدها وما زال بمقدوري أن أسمع نبرة والدها الفظة وهو يحطّ من قيمة كلّ محاولة من محاولاتها.

أحسستُ أنّ ابتسامة حنين تعلو وجهي عند تذكّر تلك الرقصات التي تحمل براءة حقبة أخرى. وتذكرتُ أنّ جيلي كان جيل ثقافة

شباب جديدة، ثم غمرني الحزن على المراهِقَة التي كُنتها، وأنا غير راغبة بشيء أكثر من أن أعيش حياةً طبيعية.

ومرةً أخرى أيضاً، شعرتُ بوحدتها.

كانت قد اختلقتْ شخصية جديدة تختبئ خلفها: فتاة السهرات التي خدعت صديقاتها، لكنها لم تخدعها هي نفسها. ظلت على الدوام تخفي خوفها من أن يطرح أحد عليها أسئلة حول حياتها العائلية وماضيها. وبما أنه كان لا بدّ لهذا أن يحدث، فإنها كانت متأكدة من أن قناعها سيسقط وستُعامل كمخادِعَة. لم يكن لدى أيّ مراهق عادي مثل تلك المخاوف. فالتفتت إلى الشراب، واستقبلته كصديقة تسكن هواجسها، وعندما تحوّل هذا الشراب إلى عدوّ، كافحت لتتخلص من سطوته عليها.

حلّت نوبة إحباطي مكان فورة غضبي تجاه الكائنين اللذين دمرا طفولتي. أخذتُ نفساً عميقاً من دخان السيجارة، ونفضتُ بحنق الرماد فوق كومة الأعقاب المتزايدة التي صارت تملأ المنفضة الآن، ثم اخترقَت ذهني فكرة أخرى.

كان أبي ميتاً. لن يعود إلى بيته. وجدتُ في المكتب هذه المحفظة مع كلّ هذه الأوراق النقدية. افترت شفتاي عن ابتسامة حين خطرت الفكرة ببالي. على ماذا يمكنني إنفاقه؟ على ماذا كان يكرَه أن يُنفق؟ بالتأكيد على وجبات العشاء في الخارج. تذكرتُ فرح أمي عندما ذهبا للعشاء في مطعمٍ راقٍ ودمدمة الاستياء التي رافقت ما كان يعتبره تبذيراً خالصاً للمال الذي جناه بمشقة.

- هتفتُ متعجبة: حسن سيدفعُ لي اليوم ثمن عشاء!

تناولتُ الهاتف لأطلب صديقة. كانت قد رافقتني إلى إيرلندا

كي تساندني في وفاة أبي وفي الترتيبات الواجب اتخاذها لدفنه، وكانت تنتظر في فندق غير بعيد عن هنا. وأنا أتصل بها، رحتُ أفتشُ في ذاكرتي بحثاً عن انتهاكات أخرى قد تُخرج أبي عن طوره. سيغيظه بالتأكيد أن تقود امرأة سيارته الحمراء الزاهية المركونة في الخارج. سنستقلها إذاً، قلتُ مبتهجة.

وعندما ردّت صديقتي، قلتُ لها:

- ما رأيك لو ذهبنا للغداء؟ في مكانٍ راقٍ وباهظ. هذا من أجلي. سأمرّ وآخذكِ بعد عشرين دقيقة.

ثم اتصلتُ بوسيط التأمين في لندن ليؤمن على السيارة وأجريتُ آخر اتصال بالمطعم لأحجز لشخصين.

بعد ذلك، أمسكتُ مفاتيح سيارة أبي الموضوعة على طاولة المكتب بالصدفة، وخرجتُ من المنزل، وأدخلتُ بزهوٍ المفتاح في قفل التشغيل، ورفعت صوت المذياع أعلى ما يمكن وانطلقت.

وبعد أن أخذتُ صديقتي، سرنا ببطء على الطريق الساحلي المفعم بالهواء حتى شوسيه دي جيان. وبخلاف المنظر الإنجليزي، لم يطرأ تغير كبير على إيرلندا منذ نعومة أظفاري. لم نكن نرى فيها تلك الهكتارات من المنازل أو العمارات المبنية حديثاً. لم تزل جميلة كما هو دأبها دوماً. وبينما نحن نسلك طريق الشاطئ، ينبسط على يسارنا منظر رائع من التلال المخضرّة، فيما تمتد عن يميننا كيلومترات من الشواطئ النظيفة. كانت ظلال بعض الناس المرتدية ملابس دافئة تتنزه في هواء المحيط الأطلسي المنعش، بينما نوارس جائعة في السماء تنقضّ باحثة باستمرار عن طعام.

فتحت نافذتي لأستنشق الهواء المالح وأسمع هدير الأمواج المتلاطمة على الشاطئ. إنها إيرلندا التي أحبها، بلد كنت سأنتمي إليه لولا ماضيّ فيه.

اجتزنا قرى جبلية صغيرة جداً، بيوتها صغيرة من طابق واحد مصفوفة على امتداد الشوارع. وعلى عكس الأطفال في ذكريات شبابي المرتدين أسمالاً وسيقانهم محمرّة وجافة بسبب الريح وظاهرة من جزم ويللنغتون، كنت أرى أطفالاً يرتدون مثل فتية مراهقين، على دراجات هوائية براقة أو على زلاجات.

كانت سلال معلّقة تزيّن الحانات التي أعيدَ طلاؤها حديثاً، مُعلِنَة أنه لم يعُد هناك ميدان حكر على الرجال.

وصلنا إلى وجهتنا، مدينة صغيرة ذات واجهة بحرية لا تعرض فقط أحواض الزهور والسلال المعلقة، وإنما أيضاً شاخصات سوداء على الأرصفة تقترح «أطباقاً نموذجية». لقد دخلت إيرلندا الشمالية القرن الواحد والعشرين.

ركنّا السيارة أمام منزل قديم على الطراز الفيكتوري حجارته رمادية وله نافذة على كل جانب من باب المدخل. ومع أن بساطته من الخارج ظلت على حالها، إلا أنه تحول منذ عقود خلت إلى مطعم راق.

دخلنا إلى عالم آخر. ظلَّ داخله المظلم وأثاثه الضخم على حالهم ولم يكد يتغير فيه شيء منذ أن جئت إليه قبل ثلاثين عاماً تقريباً. كان قد اصطحبني إليه فتى عاشق أملَ أن يثيرني بدعوته لي.

وبما أنني لم أكُن معتادة على مثل هذ البذخ، جلتُ قائمة الطعام بحثاً عن طبق معروف لأطلبه، وظلت الحيرة تعذبني وأنا

أتساءل بأيّ الأطباق أبدأ. طلبتُ دجاجاً مطهواً بطريقة كيف وزجاجة نبيذ روزيه ماتيوس التي كانت بحسب اعتقادي آنذاك قمة الترف. أصبحتُ الآن معتادة على المطاعم المرموقة ولم تعُد قوائم الطعام تخيفني.

دخلتُ بمشية واثقة وألقيتُ نظرة على ما حولي. ورق جدران مقلّم ماركة ريجنس، سجاد أخضر طحلبي ونُدُلٌ يرتدون ثياباً سوداء وبيضاء يُضفون على الجو عراقته، لكن من يعرفون جودة الأطباق المستحدثة لا يأتون إلى هنا بحثاً عن منزل خاص من المعدن والزجاج.

توجَّهنا إلى مضيفة الاستقبال وطلبنا طاولة.

- بسرور، يا سيدتي، اتبعاني. سأرافقكما إلى المطعم.

- قلت: في الواقع، هل لكِ أن ترشدينا إلى البار؟

- سألتْ المضيفة بلهجة باردة: هل ستتغدّيان هنا؟ أليس من الأفضل لكما الجلوس في صالة المطعم؟

في هذه المنشآت، تطلب السيدات المشروب، نبيذ جريز الحلو المفضل، إلى طاولتهن، وهن يتفحصن قائمة الطعام. لم تكن هذه هي الحال بالنسبة لي.

- أحبِّذ أولاً محاراً وشمبانيا. سنتغدى فيما بعد.

تردَّدت المضيفة للحظة تجاه هذا الخرق للّياقة ثم دلَّتنا إلى طريق البار حيث يمكننا الجلوس إلى طاولة صغيرة قرب النافذة ونستلذّ بالطعام.

- هل تحتفلان أنت وصديقتك بمناسبة خاصة؟ سألت بهيئة

مستهجنة؛ ومع أنها لم تكُن طافحة بالسحر، إلّا أنها كانت ملفتة للنظر.

كان بوسعي إخبارها بالحقيقة: «أجل، أحتفل بموت أبي» لكنني لم أكن أميل إلى صدمها، فرأفتُ بحالها وأجبت:

- نحن نمضي إجازتنا وحسب. وقد نصحونا بهذا المكان. إننا متلهفتان لنجرب قائمة الطعام - سمعتُ أنها رائعة.

انفرجت أساريرها. اعتبرتنا بشكلٍ واضح سائحتين «من هناك» لا تعرفان شيئاً، ولذلك غفرت لنا جهلنا بأصول اللياقة وصحبتنا إلى طاولة بالقرب من نافذة.

هذه المرة، سأنسى حميتي، فالكلمة العليا اليوم هي للاستمتاع. أحضر نادل البار سطل ثلج مع الشمبانيا وملأ قدحين. رفعت كأسي لأشرب نخب أبي.

- شكراً، بابا، على الوجبة الأولى التي لم تَعرضها عليّ قط!

- بصحّة العجوز الطيب جو، تمتمت صديقتي، وابتسامة تعلو شفتيها، ودققنا قدحاً بقدح بهيئة متآمرة.

كانت تعرف الحقيقة. ولهذا السبب عرضت أن ترافقني إلى إيرلندا وتساعدني. وبعد ساعة، أصبحت زجاجة الشمبانيا فارغة، والمحار ملتهماً وحانَ وقت الذهاب إلى صالة المطعم. سبق أن طلبنا طبق شاتوبريان لشخصين مع توابلهما وزجاجة نبيذ أحمر ثقيل.

- هل تعتقدين أنّ زجاجة ستكفي؟ سألتُ صديقتي، وأنا مستمتعة بالذهول الذي عبَرَ وجه النادلة.

شيء آخر أيضاً لا تفعله السيدات، وهو الثمل في المطاعم الراقية الإيرلندية. لم يكن بالإمكان التنبؤ أننا معتادتان على النبيذ

والشمبانيا. ولم يزعجني ذلك. فقد سبق وقررتُ أن نعود في سيارة أجرة ونستردّ السيارة فيما بعد.

- أجل، أجابت بحزم، لكنها تساهلت حين طلبتُ طبق الجبن.

وبعد ذلك، اتفقنا أنه لا بدّ أن نتناول قهوة إيرلندية.

احتسينا ثلاثة فناجين من القهوة الإيرلندية، وبعد أن تحدَّثنا كما يتحدّث أصدقاء قدامى تبدو لهم الساعات قصيرة كأنها دقائق، لاحظنا أنّ النهار يميل إلى المغيب وأنّ المطعم يتحضر لزبائن المساء.

- حان وقت طلب الحساب، قلتُ وأنا أومئ للنادل.

بدا الارتياح على وجهه عندما أيقنَ أننا مغادرتان ولن نطلب مزيداً من الشراب. وصل الحساب بسرعة فوق طبق فضي.

ظهرت ثانية مضيفة الاستقبال مبدية من جديد استهجانها الأولي.

- هل هذه سيارتكما الحمراء المركونة أمام المطعم؟

فهمتُ التلميح.

- أجل. هل هناك ما يضير لو تركناها هنا حتى صباح الغد؟ فنحن استغرقنا في وجبتنا وربما بالغنا.

رأيتُ أنها وافقت تماماً. وفضلاً عن ذلك، بدا أنّ فطنتي الحصيفة، من دون التطرق إلى إكرامية سخية، أراحتها بعض الشيء، وبإيماءة مرحِّبة، استدعت سيارة أجرة.

وأمسكت لنا الباب لحظة مغادرتنا. ولكن قبل أن نخرج، دخلت مجموعة رجال. كنت أعرفهم - كانوا أعضاء في نادي الغولف مع أبي.

- تعازينا على مصابكم. تمتموا عند رؤيتي. فقدان الأب أمر مريع.

وشعرتُ من ورائي بتلميحات تقدح شرراً.

رجعتُ إلى بيت أبي ذاك المساء. كان ينبغي أن يجري الدفن في اليوم التالي وبأقصى سرعة سأفرز محتويات المنزل، وبأقصى سرعة سأتمكن من مغادرة المدينة.

حينها فقط سينمحي الماضي وسيحرِّرني من أفكار أنطوانيت التي تجتاح ذهني. وصورةً تلو أخرى فرضت صورها ذاتها عليّ وشعرتُ بأناي الراشدة المتعَبة على مرّ السنين.

# 10

حاولت أنطوانيت أن تتجاهل الأمر، لكنها كانت تشعر أنّ عيني والدها تتابعان أقل حركة من حركاتها. وأياً كان ما تفعله -تنظف غرفتها، تحضر الشاي، تشاهد التلفاز، تغادر إلى العمل- فإنه يراقبها. وحين تكون في المنزل، كان جو ينتظر من ابنته أن تهتم به كخادمة حقيرة مطيعة. ومع أنها كانت تبدو خاضعة ظاهرياً، إلّا أن أنطوانيت كانت تعدّ الساعات دوماً قبل أن تتمكن من مغادرة المنزل.

وفي تلك الأثناء، تابعت أمها لعب دور «بابا يعمل في مكان بعيد» وراحت تتصرف كأنه لم يتغيّب سوى أسبوع. بات ذهنها مغلقاً على واقع خلّفه غياب زوجها. كانت روث مصمِّمة على عدم ذكر الحقيقة وعلى أن تُعيد كتابة الماضي بشكلٍ مختلف تماماً وأن تخنق الدور الذي أدّته فيه. لم تساندها قط، وتعمَّدت أن تبقى صمٌّ بكمٌ، بينما ظلّ زوجها يعتدي على ابنتهما طوال سنين. وبكلّ بساطة لم يحدث شيء من ذلك.

بدا لأنطوانيت أنّ العامين والنصف الأخيرين تبدّدا. وغدت من جديد تلك الفتاة الصغيرة التي لم تعُد تسيطر على حياتها بالفعل.

الآن وقد عاد والداها ليشكلا زوجاً، أصبحا قويين وأقصيانها عن دائرتهما السحرية، وتركاها تتخبّط وحدها وأبقياها تحت رحمتهما.

لم يعد بيت الحارس ذلك البيت الأسري الذي أنشأته أنطوانيت وأمها. فقد اجتاحه حضور جو: منافض لفافات التبغ الطافحة تُرِكَتْ قرب الأريكة ذات المساند المنجدة تنتظر ابنته لتفرغها؛ صحف مهملة، مفتوحة على الصفحات الرياضية، أمّا كأسه الملطخ برواسب الشاي، الذي حضرته له أنطوانيت أو أمها، فيبقى على الطاولة المنخفضة. صارت توجد الآن طاسة حلاقة الذقن في المطبخ، وثمة منشفة قذرة معلقة على منشر كانت أنطوانيت تتحاشى لمسها.

قبل عامين ونصف، كان مزاج جو يملي على روث سعادتها، وأصبحت هذه هي الحال اليوم. أخذت ابتسامتها السعيدة المشرقة تزداد، وحلّت مكان تكشيرات الاستياء أو تعابير الشهيدة التي ظلّت روث لزمن طويل تعتبر أنها كانتها. لم تعد أنطوانيت تُسمعها عملياً دندنة ألحانها المفضلة. وطفقت تتساءل، لماذا لم تكن أمها تفهمها؟ هل نسيتْ المسرات البسيطة في حياة هادئة ومنسجمة تقاسمتاها قبل أن يعود؟ كيف ترضى لها أن تقع من جديد تحت سطوته، وأن يحكم بمزاجه أهل البيت بالكامل ويفرض عليهم سلطته المشؤومة التي تطوّقهم؟ كان يبدو لأنطوانيت أنه يستحيل على أي شخص أن يفضل اختيار هذا العيش على ما عاشتاه سوية قبل إطلاق سراح والدها.

علاوة على هذا، لا يمكن القول إنها جنت فائدة مادية من ذلك. فبينما كان زوجها يعمل كميكانيكي مدني بعقد مع الجيش، ويشتغل ساعات إضافية، لم يبد أنّ مساهمته في نفقات المنزل

ساعدت روث في مصروفاتها. في الواقع، مع فم زائد يجب إطعامه ولفائف تبغ جو الأربعين يومياً، تضاءل المال. وبعد أربعة أسابيع من عودته، أعلن أن عليه العمل في أثناء عطلة نهاية الأسبوع.

- سأغادر باكراً وأعود متأخراً، قال بابتسامة مرحة.

- أوه، بادي، احتجّت وهي تخاطبه بكنيته، ليس يوم السبت. أنت تعرف أنني حرة في عطلة نهاية الأسبوع.

كان المقهى الذي تديره روث يقصده المهنيون الذين يعملون خمسة أيام في الأسبوع ومن دون زبائنه، قرّر صاحبه إغلاقه بعد غداء السبت، وهو قرار ثمّنته روث وابنتها.

وهو يرى نظرة زوجته المرتابة، اختفى تعبير البشاشة من وجه جو وحلّ مكانه السخط.

- ألسنا بحاجة إلى المال؟ أجل، وألستِ أنتِ مَن لم تكفّي عن القول بأنك تريدين منزلاً أكبر في بلفاست؟

رأت أنطوانيت على وجه أمها سيماء مستسلمة باتت مألوفة خلال الأسابيع الأخيرة عندما أجابت:

- معك حق، يا حبيبي.

- حسن، ممّ تتذمرين إذاً؟ أجر يوم العمل في عطلة الأسبوع يعادل أجر يوم ونصف من الأيام العادية. ربما لو ساهمت ابنتك أكثر بدلاً من أن تنفق كلّ شيء على هذه الأسمال وعلى هذا الشيء التافه الذي تضعه على وجهها، لما ترتب عليّ العمل بهذه المشقّة.

انتظرت أنطوانيت أن تنقض أمها اتهاماته. فقد ساهمتُ في تسيير أمور البيت منذ أن أصبحتُ قادرة على ذلك. لكن روث لم تقل شيئاً. ومع أنها كانت تعرف أن روث رغبت دوماً بمنزل يشبه

المنزل الذي ترعرعت فيه، بناءٌ أنيق على الطراز الجورجي، إلّا أنها كانت أول مرة تسمعها فيها أنطوانيت يتحدثان عن هذا المشروع. بدا لها أنّ أباها يريد السيطرة على كلّ شيء، حتى على المكان الذي يعيشون فيه.

كان بيت الحارس مريحاً للغاية لنا قبل عودته، فكَّرت ببغضاء. ولم تكن ساعات العمل الإضافية سوى عذرٍ آخر ليُسكت زوجته.

ارتابت بقصته، ولمّا رأت هيئته الظافرة بعد فوزه في هذه المشادّة المختصرة، باتت أقل تصديقاً له. ومعرفتها بأنّ أمها كانت تتظاهر بالموافقة على تبريراته لم ينفكّ يغذّي حقدها.

- الأجدر بك أن تذهب إلى سباقات الكلاب السلوقية، غمغمت كازّة على أسنانها.

حين رأى التعبير الذي طغى على وجه ابنته وأدرك معناه، رمقها بنظرة غاضبة وقال بنبرة قاطعة:

- ما يبقيكِ هنا؟ ساعدي أمك عندما أغادر، وكوني مفيدة لمرة واحدة.

عندئذٍ، انصرف. هزَّ صفْقُ الباب خلفه الحجرة وساد الصمت بعد ذلك.

تبادلت روث وابنتها النظرات واكتشفت أنطوانيت الأسى على وجه أمها. أوصدت قلبها، لأنها تجاوزت الميدان الذي كانت تبذل جهدها لمواساتها فيه. وهذه المرة، كانت روث تستطيع مساندتها وتقول إنها ساهمت بأكثر من حصتها.

كانت تشعر بالظلم من ملاحظاتها وبالإهانة لعدم مساندة أمها لها كالعادة. إن لم تدافع هي عنها، فمن سيدافع؟

ذهبت أنطوانيت إلى غرفتها، وهي تأمل أن يفوز والدها بالسباقات بما يكفي لردعه عن العودة قبل أن تخرج إلى السهرة.

كانت تعرف أنها ساهمت مثله في نفقات البيت. ومع إكرامياتها، كانت تكسب مثله - وهو عنصر كان يغذي سورة غضبها ضده.

فكرت في طريقة احتكاره للتلفاز الذي اشترته وبقائه جالساً أمامه يشاهد برامج رياضية تمقتها؛ كيف تطهو له أمها أطباقه المفضلة، دون أن تسألَ أنطوانيت البتة عما تشتهيه؛ وكيف سخر من جهودها حين اقترحت ابنتها أن تعدّ العشاء واختصرها بقوله «قذارة طعامك غريبة». منذ عودته، وباستثناء هذه المحاولة الفاشلة، اقتصرت على إنجاز المهام القاسية فقط مثل غسل الأواني.

لم تكن أنطوانيت ترغب برؤية والدها وهي تتهيأ للخروج. فهي تعرف أنه سيسخر من محاولاتها لتبدو جميلة وأنه سينال أيضاً من ثقتها الضعيفة بنفسها. وإذا كان مزاجه سيئاً، سيستخدمها دريئة، ككرة تدريب ذهنية على الملاكمة يصبّ جام غضبه عليها، غضب لا يزال حتى الآن يبدو كامناً تحت السطح. ولم تكن تريد أيضاً رؤية الحزن على وجه روث، حتى لو لم تستطعْ منع نفسها عن الاعتقاد بأنّ أمها هي المسؤولة الوحيدة عن مصيبتها. لم تكن أنطوانيت ترى جدوى من وجود شخص في المنزل يثير مثل هذا الشعور بالشقاق، ولم تكن تفهم لماذا تركته أمها يستأنف عاداته السيئة بهذه السرعة.

كانت تدرك ألاعيب جو، وترى زهوه وتشاهد أمها تخضع لرغباته. وبإزاء هيمنة جو وخنوع روث أحسّت باحتقار متزايد لوالديها.

وعندما يكون والدها في الخارج، تبحث أمها عنها، وهي متلهّفة إلى رفيقة وإلى أذن تصغي إلى شكواها، ولكن أنطوانيت صمّمت هذه المرة على عدم التراخي والخضوع لها. لذلك أمضت العصر في غرفتها لتقرِّر أي لباس سترتديه من أجل الخروج قبل أن تتوقف أخيراً عند خيارها. بسطت بعناية على السرير ثوباً أصفر باهتاً مكشوف العنق مع شقٍّ صغير من الخلف لتستطيع السير بلا عرقلة وهي تُظهر ساقيها النحيلتين. واختارت حزاماً عريضاً يغطيه قماش غامق سيشدّ على خصرها فيُبديها أكثر رشاقة.

إنه أنيق حقاً، فكرت منتشيةً باختيارها.

اشترت هذا الثوب من أحد متاجر الألبسة الجديدة التي انتشرت في كلّ مكان، وعرضت كميةً كبيرة من ملابس المراهقين الدارجة. وهذا المتجر الذي اشتهر مؤخراً وسط بلفاست هو واحد من سلسلة متاجر جاءت من إنجلترا. وقد استبدل البائعات الخمسينيات بمجسمات موظفات ممشوقات القوام على هيئة عارضات أزياء يرتدين بأناقة التشكيلات التي ترغب جميع الفتيات بتقليدها أياً كان مقاسهن وشكلهن.

كانت تعرف أن فتيات مجموعتها الأخريات سيرتدين أيضاً زياً جديداً، لأن مناسبة هذه السهرة استثنائية. إنها أوركسترا جديدة مع عازف الكلارينيت النجم آكر بيلك تقدم حفلتها الأولى في بلفاست. وقد تحدّثت عنها جميع الفتيات بغبطة. كانت أول أسطوانة للمجموعة قد دخلت في تصنيف الهيت باراد وهذا الحدث وحده يميزها عن غيرها من النسخ التي تُنتج بانتظام في إيرلندا الشمالية.

تأهّبت أنطوانيت للقاء صديقاتها في الساعة السابعة والنصف في

مكانهن المفضل، في المقهى الذي التقت فيه والدها قبل أسابيع خلت، مع أنها كانت تحاول ألّا تفكر في ذلك. ظلت تتذكر دوماً تلك اللحظة بتكشيرة اشمئزاز.

راحت تستمع بسعادة إلى آخر أسطوانة لإلفيس بريسلي، اشترتها مؤخراً. في يدها قدح فودكا وفي اليد الأخرى لفافة تبغ ممنوعة، تغمض عينيها لتتحاشى الدخان وتتمايل على إيقاع الموسيقى.

تخيّلت نفسها على حلبة الرقص، وأحسّت بنظرات الإعجاب وهي تنفذ عملياً الخطوات الجديدة التي تعلّمتها.

كانت جودي تعرف أنّ أنطوانيت تتحضّر للمغادرة، فأخذت تنظر إليها بهيئة حزينة من جحرها الذي صنعته فوق السرير.

تفحصت أنطوانيت نفسها في المرآة مرة أخرى لتتأكد أنها وضعت مساحيق التجميل بعناية.

- تقول في سرها: يلزمني القليل من أحمر الشفاه، ثم قرّرت الانتظار حتى تنهي احتساء قدحها وتسحب آخر نفس من لفافة تبغها.

كانت تريد أن تتذوّق هذه اللحظات النادرة. شعرت بالاسترخاء والسعادة، فقد بدا لها أنه سيُستجاب لرغبتها ولن يعود والدها قبل أن تغادر. طغى صوت الموسيقى على صوت صفق باب المدخل. وبدّدت زمجرة هائجة سلامها فجأة، وعرفت على الفور، وهي تشعر بالخوف، أنّ والدها أفرط في الشراب بعد خسارته في رهانات السباق. لم يكن يعود إلّا حين يعوزه المال وكان صوته الغاضب الذي يصل إلى مسامعها ويجتاح غرفتها يُشير إلى أن يومه لم يمضِ على خير. وعلى نحوٍ ما، لا بد أن يتحمّل أحد المسؤولية، فهذه

هي الحال دوماً. كانت أنطوانيت تعرف أنها ستغدو هدفاً لمزاجه الارتجالي. فتحت باب غرفتها متوجسةً، وهي عاجزة عن تجاهل الصوت الهمجي.

- أنطوانيت، تعالي إلى هنا وأوقفي هذه الموسيقى التافهة، أتفهمين؟

انسلّت إلى غرفتها بحسرة، وسحبت الأسطوانة من المشغّل ونزلت. كان والدها ينتظرها على الدرجة الأخيرة، ووجهه أحمر محتقن بغضب سببه الكحول. رأت أمها خلفه، مُبْدية تعبير وجهها المعتاد، فمها متخثر في ابتسامة متشنجة، راحت تنظر إلى ابنتها وزوجها وهي تجلس.

أدركت أنطوانيت أنها لن تقدِّم لها أيّ عون كالعادة وانتظرت بصَمتٍ لتعرف نوايا والدها. يحتلّ إفساد خروجها مع صديقاتها رأس القائمة، لأنه لن يطيق فكرة أن تتسلى هذا المساء ما دام نهاره لم يكن على ما يرام.

- أين تظنين نفسك ذاهبة مع كلّ هذه التفاهات على وجهك؟

- إلى المرقص المجاور وحسب مع صديقاتي.

أخفت انفعالها وأجابت بلهجة هادئة آملة أن تخفِّف من مزاجه السيئ.

- ألم تنظري إلى نفسك؟ لن تخرجي من بيتي هكذا.

أمسك ذراعها وشدَّها نحوه بفظاظة. أمسك ذقنها، ورفع وجهها وتفحّصه بازدراء. تراجعت أنطوانيت وهي تشم رائحة أنفاسه الكريهة، ولاحظ ارتعاشها لكنه كان يعرف أن خوفها الشديد يمنعها

من الاحتجاج. ضحك جو باستهزاء وهو يغرس أصابعه بقسوة في لحم وجنتيها الغض.

- أمرها: اذهبي إلى المغسلة ونظفي لي هذه المساحيق التافهة.

توجّهت إلى المطبخ ونفَّذت ما أمرها به، حابسةً دموعاً غادرة توشك أن تسيل على طول وجنتيها. أزالت بسرعة قليلاً من كريم البشرة، وهي تشعر أن عينيه مركزة عليها. نظرت إلى نفسها في المرآة الصغيرة فوق المغسلة ورأت الفتاة الجميلة التي رغبت أن تكونها تختفي مع كلّ مسحة من قفاز الزينة الرطب. جففت ببطء وجهها بضربات خفيفة، رغبةً منها بتأخير لحظة رجوعها لمواجهة أبيها أطول فترة ممكنة؛ كانت تعرف أنه لم ينتهِ من تعذيبها.

- سألت وهي تكبت انفعالها: هل هذا أفضل؟

كانت ترغب بشكلٍ خاص أن تُهَدِّئَه بما يكفي لتستطيع مغادرة البيت دون أن ينفجر نزاع عام. لن يسرّه شيء أكثر من إيجاد مبرّر لمنعها من الخروج وطردها إلى غرفتها.

- ما زال منظركِ مخيفاً. وفوق ذلك، أصبحتِ سمينة.

انطلقت هذه الكلمة الرهيبة والمخيفة لأيّ مراهقة كالسهم وانغرزت بدقة فائقة في قلب ثقتها بنفسها. عبست فعرف جو أنّ طعنته أصابت حبيبها الأثير. رماها بنظرة احتقار واشمئزاز.

- ليس من مصلحتك العودة متأخرة، يا بنية. يجب أن تكوني هنا عند الساعة الحادية عشرة ولا دقيقة زيادة، مفهوم؟

اختفت كلّ ملامح المراهقة الواثقة من نفسها التي انعكست في مرآة غرفتها قبل بضع دقائق، وأخلت المكان لفتاة خرقاء وعصبية. أرادت أنطوانيت أن تفتح فمها لتحتجّ لكنها كانت تعرف ما سيحصل

عندئذٍ. أطرقت برأسها وعاينت السجاد، رافضة النظر في وجهه. أحسَّت بثقل الضغط الصامت لوالديها وهما ينتظران رداً.

- أجل، بابا، أجابت بلهجة أرادتها مسالمة.

كانت أنطوانيت تعرف أنه لا جدوى من الشرح بأنّ السهرة لا تنتهي قبل الساعة الحادية عشرة أو من الإجابة بأنه سيترتب عليها عندئذٍ أن تقف في طابور لتستردّ معطفها وتمشي حتى موقف الباص. سيترتب عليها أن تبكر في المغادرة وتعود وحيدة إلى المنزل. سَتُحرم من الجزء الأخير من السهرة؛ مرافقة الفتيات الأخريات وهن يلحقن بآخر باص، يضحكن، ويثرثرن، ويستعدن أحداث الأمسية.

التفتَ والدها وقد علت شفتيه ابتسامة رضى. الآن وقد فاز، بدا وكأنه اكتفى من تعذيبها. كانت تعرف أنه لم يضع أنظمته لأنه يهتم بساعة عودتها، وإنما لأنه يطالبها بالخضوع الكلي. ومثلما حين كانت طفلة، لم تتدخّل أمها قط.

اكتفت بتجاهل الموقف.

رأت أنطوانيت الغبطة على وجه والدها الذي شعر أنه قلَّل من سعادتها بالسهرة القادمة، ثم تلاشت الابتسامة وبانَ خبثه. كان يفضّل لو أن أنطوانيت تحدّته ليستمتع بمنعها من الخروج. فقد تمرّدت ذات مرة على سلطته ودافعت عن نفسها حين اتهمها أنها لا تقدم مساعدة كافية في البيت. وبسبب نوبة الغطرسة هذه، كما بدت له، طردها إلى غرفتها وحرمها من الخروج منها. في تلك الليلة، نامت أنطوانيت وهي جائعة بينما روائح عشاء والديها تصعد إليها مع أصوات التلفاز الذي اشترته.

صعدت ثانية إلى حجرتها وشعرت بموجة غضب تتحوّل إلى

نوبة حقد، انصبّت هذه المرة على والديها: على أبيها بسبب منغّصاته المتعجرفة وعلى أمها بسبب خضوعها. أضيف الغضب إلى التحدي فدسّت على عجل كلّ مساحيق تجميلها في حقيبة يدها. ستتبرج في الباص، قررت.

ارتاحت لهذه الفكرة، فارتدت جوربها البني الشفاف وهي تتلوى، ثم ثوبها الأصفر، وشدّت بقوة حزامها حول خصرها. انتعلت بعد ذلك حذاءها ذا الكعب العالي المدبب. أصبحت جاهزة. وحتى لا تعطيه متعة الحصول على مبرِّر آخر للسخرية منها، غطت بسرعة لباسها بمعطف.

وهي عازمة على ألّا تصبح من جديد موضوع سخرية والدها أو تهكماته، أو الأسوأ، ألّا تثير سخطه أكثر، هربت من بيتها.

كانت تعرف أنها ستصل قبل الموعد إلى المدينة وأنه سيترتب عليها انتظار صديقاتها لوحدها.

يا إلهي كم أكرهه. لماذا لا يمكنه أن يدعني وشأني؟ تساءَلَتْ بحزن وهي تتجه إلى موقف الباص، وشعرت أنّ الدموع تطفر من عينيها. مسحتها بحركة غاضبة. لم تكن تريد لما تبقى من مساحيقها أن يلطّخ خديها بمجاري سوداء.

لا تدعيه يُحبطك. استمتعي بسهرتك، ولا تدعيه يفوز. وهي تشعر بالقوة من هذه النصائح، هزّت كتفيها ورأسها وأصبحت خطاها أكثر ثباتاً.

# 11

علقت أنطوانيت بحزم ابتسامة على وجهها وهي تدخل إلى المقهى.

لم تكن تريد أن تشكّ صديقاتها بأنّ هناك شيئاً على غير ما يرام، أو أن يعلَمن أنها انتظرت ساعة في حانة، وهي تتجاهل النظرات المحدّقة على فتاة وحيدة تشرب الفودكا في وسط يسود فيه الرجال.

جاءت فناجين الكابتشينو إلى طاولاتهن وتحدّثت الفتيات عن المجموعة الجديدة، وعن براعة عازف الكلارينيت -وبحماس فائق أيضاً- عن واقعة أنه تعلّم العزف في الجيش على ما يبدو.

كانت أعينهن تجحظ مع كلّ هذر فتضحك أنطوانيت وتقهقه معهن، وهي مصمِّمة على عدم إظهار أنّ هنالك ما أفسد حماسها للسهرة. شربن فناجين جديدة من القهوة، ثم ذهبن إلى البلازا، وهي صالة رقص في وسط بلفاست. عبارة عن بناء كبير، أضواؤه لامعة، يغطي مخمل فاخر أرائكه وتزين باره مرايا متقنة. وهناك تعزف فرق على الملأ آخر الأغنيات الرائجة التي يرقص عليها شبان المدينة مساء كلّ يوم سبت. كانت الطاولات والكراسي تُحيط بحلبة الرقص

الفسيحة، وتنشر كرة متعدِّدة السطوح سحرها، وبترتيب مقاعده البارع، وديكوره الأنيق أصبح البلازا مكاناً مشهوراً بامتياز. وهناك يُعلن عن آخر الأزياء وقصات الشعر الرائجة. فالفتيات يقضين فترة العصر السابقة للحفلة عند الكوافير. أما الفتيان، فقد اكتشفوا استخداماً آخراً لملمّع الشعر بيلكريم الذي يثبت شعرهم إلى الوراء. ويمكنهم بقليل من الجهد تحويل قصة شعرهم إلى تسريحة الموزة التي أصبحت شعبية من خلال مطربيهم المفضلين.

وضعت أنطوانيت وصديقاتها معاطفهن في أمانات الألبسة، ثم انسللن مباشرة إلى دورات مياه السيدات. وانضممن هناك إلى سرب من الفتيات يضعن اللمسات الأخيرة على زينتهن ويتأمّلن بإعجاب صورهن في المرايا الكبيرة. كان لا بد لصديقاتهن أن يتفقّدن تلك اللمسات الأخيرة للزينة قبل أن يتجهن بمشية مخلوعة للانضمام إلى الحشد.

كانت السهرة على مستوى توقعات مجموعة الشابات فتمايلن على إيقاع الأوركسترا البارع مع الجمهور الذي يملأ صالة الرقص. وعندما رفع عازف الكلارينيت آلته إلى فمه، عزف للمرة الثانية، بطلب من الجمهور، اللحن الآسر لأغنية «غريب على الشاطئ»، ورقصت أنطوانيت ببطء على أنغامها المديدة.

لم تكد تلقي بالاً لمراقصها أو تسمعه ما دام تفكيرها قلق: أيّ عذر لديها حتى تغادر في وقت أبكر؟

عند الساعة العاشرة، التفتت نحو إحدى صديقاتها وأخبرتها أنّ عليها الانصراف.

- كيف، الآن؟ قالت باندهاش. ستفوتك نهاية الحفلة. إنه

أفضل جزء. لماذا يجب أن تغادري باكراً إلى هذا الحدّ؟ عموماً، لن تعودي قبلنا.

اختلقت أنطوانيت كذبتها بسهولة. على كلّ حال، أمضت كلّ السهرة في تحضيرها.

- أعرف، هذا مؤسف، لكن والديّ سيصحبانني غداً إلى كوليرين. سنتناول الغداء في بيت جديّ ثم سنرى عمتي، وأعمامي وأبناء عمي، لذلك علينا النهوض باكراً. يلزمنا ثلاث ساعات، كما تعرفين. إذاً يجب أن أنام باكراً هذا المساء.

ما أغرب أن تستطيع الكذب بهذه السهولة حول علاقاتها مع العائلة التي نبذتها قبل ثلاث سنوات.

وافقت صديقتها وهزّت كتفيها. لم يكن يهمّها أن تبقى أنطوانيت أو تنصرف:

- إلى اللقاء في الأسبوع القادم إذاً. مع السلامة، هذا كلّ ما قالته قبل أن تنشغل بالموسيقى من جديد.

تركت أنطوانيت حلبة الرقص خلسة واستردّت معطفها من الأمانات.

وعلى موقف الحافلة، وضعت حبة علكة في فمها. ومع أنها انتقلت من الويسكي إلى الفودكا منذ زمن لا بأس به، إلّا أن نكهة النعناع في أنفاسها كانت تُشعرها بالأمان أكثر. ربما كانت أمها تعرف بأنها تشرب، لكنها لن تُظهر لأبيها نقاط ضعف جديدة تُضاف إلى ما يعرفه.

لم تجد أنطوانيت ما يثير السخرية في هذه الفكرة، لأنّ والدها هو مَن حرَّضها على شرب الويسكي حين كانت طفلة.

ولأن والدها أمرها بذلك، لحقت مبكرة بالحافلة التي أوصلتها إلى بيتها قبل سريان موعد منع التجوّل الذي أصدره جو. كانت تريد أن تحرمه من أيّ مبرِّر للتذمّر من سلوكها.

وفكرت بكآبة، لن يعدم الوسيلة لإيجاد مبرِّر آخر لينغّص عليّ.

دخلت بسرعة، وارتاحت حين اكتشفت أن والديها ربما ناما، فالمنزل كان ساكناً حين صعدت السلالم من دون ضجة. ولو أنها وصلت بعد الموعد المفروض، لعرف جو بالأمر بطريقة أو بأخرى. أخذت أنطوانيت جودي ووضعتها على السرير.

حين استعدّت للنوم، استلقت قرب كلبتها وداعبتها بانتظار أن تغفو.

أمقته، فكرت بينما النعاس يغلبها. ودّت لو أن حياتها استأنفت مجراها قبل عودته إلى بيتهما، لكنها كانت تعرف استحالة ذلك.

ربّتت أنطوانيت على السرير لتدعو جودي إلى الانضمام إليها. ومع أن الكلبة الصغيرة تعاني من الروماتيزم الآن، لكنها تلقّت بفرح عموماً دعوة صاحبتها للقاء على السرير.

هذه المرة، حين حاولت أن تتسلّق، انزلقت، وسقطت مُصدرة نباحاً ضعيفاً.

مدّت أنطوانيت ذراعيها، وأمسكت الكلبة الهرمة ووضعتها قربها. أطلقت جودي صرخة نائحة جديدة، وفجأة شعرت أنطوانيت بالقلق، فبحثت عن سبب توعّكها. مرّرت أصابعها برقة على معدة الكلبة المنتفخة. أحست بوجود انتفاخ في الأسفل، صغير لكنه قاسي.

- قالت لتطمئن نفسها أكثر من تظمين كلبتها: سآخذك إلى السيد جاك ليستر. سيساعدك لتتحسن حالك.

داعبت بلطف جودي وهي تهمس بكلمات مهدئة في أذنها ولاحظت، وقلبها منقبض، أن عمودها الفقري أصبح بارزاً، ويشكل نتوءاً بلا جلد يخفيه حتى الآن وبرها الكثيف.

أدركت فجأة أنّ جودي هرمت.

ضمَّت أنطوانيت إليها صديقتها الحميمة المؤتمنة على العديد من أسرارها الطفولية التي همست بها لها منذ عيد ميلادها الخامس، وقبَّلت أعلى رأسها العنيد، مفعمةً بالحب تجاه حيوانها. كانت تعرف أن الكلاب نادراً ما تعيش بعد سن الحادية عشرة، وقد بلغت جودي هذا العمر تقريباً؛ ولكن كان من الصعب عليها الاعتراف بهذه الحقيقة.

شعرت أنطوانيت بغصّة في حلقها. فمنذ نحو ستة أشهر مضت على عودة والدها، لم تكن جودي هي السبب الرئيس لعدم مغادرتها وحسب، وإنما كانت أيضاً الشيء الوحيد السارّ في هذا المنزل.

وحتى لو استطاعت العثور على مؤجِّرة مستعدة أن تؤجر غرفة لقاصر مع حيوان، فلن تستطيع انتزاع الكلبة الهرمة من محيطها العائلي ومن الحديقة الصغيرة التي اعتادت عليها.

ماذا كانت ستقدِّم لها مقابل ذلك؟ حياة في غرفة مفروشة ضيقة، الحياة الوحيدة التي يمكنها أن تؤمنها لنفسها. ورغم قسوة والدها معها، لكنه لم يمارس قط أذاه على الحيوانات. أجل، كان يلاطف جودي والقط الأصهب الذي تحبه أمها، بينما كان يزجرها.

كانت جودي الثابت الوحيد في حياة أنطوانيت. وعلى النقيض من الكائنات البشرية التي شكلت جزءاً من عالمها، لم تخذلها الكلبة قط، وأظهرت دوماً حبّها المطلق لصاحبتها. كانت تظل قرب أنطوانيت اليائسة من حياتها، تلعق يدها بقبلات لتُظهر لها مساندتها، وبادلتها أنطوانيت الحب بدورها.

حدقت في عيني جودي الكستنائيتين الصافيتين التي بادلتها نظرتها بمنتهى الثقة وأدركت ما هو الأفضل بالنسبة إلى كلبتها. ضمّتها مرة أخرى بين ذراعيها ونزلت لتهاتف الطبيب البيطري.

وبعد أقل من ساعة، سمعت أنطوانيت الكلمات التي خشيتها منذ أن اكتشفت الورم.

- أنا آسف يا أنطوانيت، الورم خبيث.

- هل يمكنك إجراء عملية لها؟ سألته وهي تمسّد بيديها أذني جودي لتمنعها من سماع مصيرها.

من تعابير الطبيب البيطري، عرفت جوابه سلفاً. مسحت بلطف على رأس جودي واستعدت للخطوة التالية.

- إنها هرمة - وليس من الصواب أن نجعلها تتحمّل ذلك. وحتى لو استأصلنا الورم، قد يظهر ثانية، كما تعرفين.

- ماذا يمكنك أن تفعل؟

- إنها تتألم، يا أنطوانيت، وستسوء حالتها. يجب أن تواجهي هذه المحنة بشجاعة. أعرف مقدار حبك لها، تابع بلهجة هادئة، ولكن هذا آخر ما يمكنك فعله لها. أنت لا تريدينها أن تتألم، أليس كذلك؟

كبحت أنطوانيت نحيباً كاد يخرج من حلقها؛ لم تكن تريد أن

تشعر جودي بعذابها. فالكلبة الصغيرة التي عرفت دوماً متى تكون صاحبتها مضطربة، رمقتها بنظرة فضولية.

- كل شيء على ما يرام، يا جودي. لن يطول ألم معدتك، همست لها قبل أن تلتفت إلى الطبيب البيطري. متى تودّ فعل ذلك؟

- غداً. أمضي سهرة ممتعة معها، وعند أول ساعة من صباح الغد أعطِها قرص مخدّر. تعالي معها في الساعة العاشرة. سأحقنها، ويمكنك احتضانها حتى تغفو. ثم سنأخذها إلى تلك الحجرة لإعطائها الحقنة الأخيرة ولكنها في تلك اللحظة، لن تعود تشعر بشيء. وستكون آخر ذكرى لها هي ذكرى صاحبتها وهي تضمّها بين ذراعيها.

- لن تشعر بشيء، هل تعدني بذلك؟

- لا، يا أنطوانيت، لن تشعر بشيء.

تركت أنطوانيت الطبيب البيطري، وجودي تعدو إلى جانبها، وحاولت ألّا تفكر في الحياة من دون صحبة كلبتها الصغيرة.

عادت إلى بيتها، وشرحت لأمها، بصوت متهدّج والدموع تسيل على خديها، ما قاله الطبيب البيطري. هذه المرة، تعاطفت روث معها وحاولت مواساتها مع أنه لم يكن بوسع أي شيء أن يواسي أنطوانيت. وحين رأت دموع ابنتها، اغرورقت عينا روث بالدموع، لأنها كانت هي أيضاً تحبّ الكلبة الصغيرة.

بعد ذلك، في غمرة اندهاش أنطوانيت، قال والدها جملة غير متوقعة على الإطلاق.

- أنطوانيت، أعرف مقدار حبك لكلبتك. هل تودّين أن آخذها غداً صباحاً؟ ليس سهلاً عليك القيام بذلك كما تعرفين.

وانحنى جو ليداعب جودي، بلطف هذه المرة.

نظرت إليه أنطوانيت لبرهة، مذهولة؛ وحين أدركت أنه صادق ومعترف بالجميل.

- شكراً! بابا، لكنني أريد أن أفعل هذا من أجلها. أريد أن أكون معها.

نهض والدها وربّت بلطف على رأس ابنته.

- اسمعي، سأخرج لأشتري «سمكاً وبطاطا» وستُعِدّ أمك لنا شاياً لذيذاً. أما أنتِ، فستبقين مع كلبتك الصغيرة.

انصرف جو، وعلى وجهه ابتسامة ذكَّرتها بالأب الذي عرفته في بدايات طفولتها المبكرة.

عاد يحمل حصصاً كبيرة من السمك والبطاطا، ومعها أيضاً بصل بالخل وهريسة البازلاء. أعدّت روث المائدة، وقطّعت شرائح رقيقة من الخبز والزبدة وباشروا المأدبة.

وبعد السمك والبطاطا جاء دور قطع كبيرة من الكاتو بالفواكه، وبينما هم يأكلون، راحوا يخفّفون حزن ذلك النهار بتبادل الذكريات عن حياة الكلبة الصغيرة.

- سأل جو: هل تتذكرين حين قفزت جودي من نافذة الطابق، عندما لم تكن سوى جرو؟ اضطررتُ لاصطحابها إلى الطبيب البيطري، وفوق ذلك، لم يُكسر فيها عظم واحد. تمزقت عضلة واحدة فقط. ومع هذا، دفعتُ فاتورة محترمة.

ضحكوا وهم يتذكّرون كيف ربطت قائمتا جودي الأماميتان معاً ريثما تشفى عضلتها، وكم كان منظرها مضحكاً. لم تكن مشيتها

الغريبة حين نخرج في نزهة تسلبها شيئاً من متعتها، ولم تكن تمنعها من القفز بقوائم موحلة على المفروشات.

- قالت روث: ولما أجّرتها إلى مزارع في المنطقة لتلتقط الجزدان؟ كنتُ مغتاظة منك!

لكنهم وهم يتذكرون مآثر كلبتهم الشجاعة، تلاشى الغضب وحلت مكانه الضحكات.

- انتهى والدها إلى القول: لقد عاشت حياة هانئة، يا أنطوانيت. سأرتاح. اذهبي أنت وأمك لمشاهدة التلفاز قليلاً وأنا سأعدّ شاياً لنا.

وخلال هذه السهرة، حُملت أنطوانيت على الاعتقاد بأنّ تمثيلية الأسرة السعيدة التي قادتها روث لم تعُد موجودة. فقد شجعتها هذه اللحظات السعيدة القصيرة على تخليد الأسطورة التي تنسبها إلى الأسرة.

تقاسمت جودي في ليلتها الأخيرة السرير مع أنطوانيت؛ تكوّرت في حضن صاحبتها ولم تتحرك. وحين فتحت أنطوانيت عينيها باكراً في اليوم التالي، لعقتها جودي بلسانها لعقات لطيفة قبل أن تستقرّ بسعادة فوق السرير. رفعتها أنطوانيت وأنزلتها لتُخرجها إلى الحديقة.

وهناك، أقعت جودي، مستمتعة بعمليات نظافتها الصباحية ثم اشتمَّت بفتور بعض باقات العشب قبل أن ترجع إلى المنزل.

صبّت لها أنطوانيت قليلاً من الشاي في صحن الفنجان. كانت جودي تفضل الشاي على الماء منذ زمن وتلعقه بامتنان. وعندما لم يتبقّ منه قطرة واحدة، رمقت صاحبتها بنظرة مترقبة. وحين قدمت لها

هدية أخرى، هزت ذيلها تعبيراً عن سعادتها الفائقة -قطعة كبيرة من لحم الخنزير- وفي وسطها أخفت أنطوانيت ببراعة قرص الدواء. حين أكلتها جودي، رفعتها أنطوانيت ووضعتها على ركبتيها ومسَّدت بأصابعها وبرها الخشن حتى صادفت البروز الذي يشوه معدتها ورسمت دوائر صغيرة حوله. وضعت وجهها الناعم على وبر كلبتها القاسي وتركته يدغدغ وجهها. ثم أمسكت بوز رفيقة طفولتها بيديها، وأدارته نحوها وقرأت فيه تعابير الإخلاص.

كانت جودي قد منحتها حباً أعمى نجح في إذابة المكان المتجمد والمرعب من قلبها وقدمت لها المواساة عندما لم يكن الآخرون يقدمون شيئاً لها. كما أنها بكَت مرات كثيرة في فرو جودي إلى حدّ أن الحيوان الصغير كان يمسح دموعها بلعقات من لسانه.

شعرت أنطوانيت بألم في صدرها، مثل ورم تشكّل من الدموع التي ذرفتها على مرّ السنين. من أين يأتي هذا الدمع، تساءلت. هل هنالك جيب مصنوع من غشاء رقيق يخترقه حزننا وينفخه بالماء، وحين يمتلئ، ينتهي إلى الانفجار، محرِّراً سيلاً لا ينضب؟

عندما بدأ جسم جودي يتثاقل وتنفسها يصبح أكثر عمقاً، علمت أنطوانيت أنها غطت في نوم عميق وأنّ لحظة اصطحابها إلى عيادة الطبيب البيطري حانت. رفعتها بعناية وهي غير راغبة في إيقاظها، وحملتها إلى مصيرها.

فتح الطبيب البيطري الباب لها، وابتسم بلطف، وقادهما بسرعة إلى غرفة العمليات.

- أنطوانيت، سأزرقها فقط بالحقنة الأولى، ستغطّ ببساطة في نوم عميق. ولن تشعر بشيء.

وهي تكافح لتكبح انفعالاتها، نظرت إلى الإبرة تنغرز تحت قذال حيوانها. وحين انتهى ذلك، أعادت كلبتها برفق إلى غرفة الانتظار. جلست، محتضنة جودي بين ذراعيها، وهي تأبى أن تفكر في السهرة التي تنتظرها عندما ستعود وحيدة إلى منزل والديها. وبعد انقضاء ساعة، أعادها الطبيب البيطري من أجل الحقنة الأخيرة.

أخذ الكلبة الغافية من بين ذراعي أنطوانيت ومدّدها على الطاولة. نظرت إليه يزرق الحقنة في كعبها. وهي لا تزال تكبح دموعها، داعبت رأس جودي حتى أحسّته صار رخواً، وبينما كانت الحياة تغادر الكلبة الصغيرة، ودَّعتها وداعاً صامتاً.

سالت الدموع على وجهها بغزارة وهي عائدة إلى بيت الحارس بمشية مترنحة.

دخلت إلى المنزل الذي يسوده الآن صمت لا يُطاق وتوجّهت مباشرة إلى غرفتها. تشبّثت بالوسادة لتواسي نفسها وبكَت لفقدها رفيقة طفولتها.

كان عزاؤها الوحيد هو أنها بادلت كلبتها حبّها وقدمت لها آخر هدية، تركتها تركن بهدوء لنوم غير مؤلم برعاية حبّ صاحبتها.

# 12

خرجت أنطوانيت لأول مرة في حياتها مع فتى وشعرت بنفسها فجأة أنها مراهقة بلا هموم. كان ديريك يريد اصطحابها للغداء في مطعم افتُتح حديثاً في بلفاست. إنه مطعم صيني، نوع من الحداثة في هذه المدينة، وبدت أنطوانيت متحمِّسة لمجرد الفكرة، لقد سمعت فقط أقاويل عن هذا المطبخ الغريب.

في مرقص بلفاست يوم السبت الفائت، دعاها شاب أشقر قوي البنية في العشرينيات من عمره للرقصة الافتتاحية ولم يتركها بعد ذلك. انتظر حتى عُزِفَت موسيقى هادئة ليقول لها:

- أنتِ لا تتذكرينني، أليس كذلك؟ رقصتُ معكِ منذ نحو عام في خيمة ليسبورن.

نظرت إليه بإمعان.

- أجل! أتذكرك، هتفت متعجّبة حين أدركت أنه كان الفتى ذا الوجه المدوّر. ألم تكُن وقحاً بعض الشيء؟ قالت، لكن ابتسامتها لم تحمل أيّ خبث.

بادلها ديريك ابتسامتها، وكلما تقدّمت السهرة، اكتشفت أنطوانيت أنه تحول خلال عام من فتى مهذب إلى شاب لائق. قدم

لها مشروبات خالية من الكحول، ولم يناولها أي من المشروبات الممزوجة بالفودكا المهربة سراً التي جاءت أنطوانيت لتتذوقها، لكنها لم تعلق أهمية على ذلك لأنّ الإعجاب الذي قرأته على وجهه راقها أكثر. التمعت عيناها. أحبّت مظهره. كان يتميّز عن معارفها المألوفين بسترته الرياضية وسرواله من المخمل المضلّع.

- باح لها: أبحث عنك في كلّ مكان منذ الليلة التي رقصنا فيها.

- حقاً؟

كان يصعُب عليها أن تُصدق. فقد اعتادت أن تتفادى الأيادي الرطبة للمراهقين الثملين من المشروب أكثر من اعتيادها على معجب يرغب حقاً بلقائها. إنه يبهرها - فهو لم يكن يبحث عن تملق سريع وإنما كان يرغب بالتعرف عليها وقضاء وقت معها. وحين عرض عليها العشاء معه، ارتبكت وحاولت إخفاء حماسها عندما قبلت.

كانت أول مرة يدعوها فيها أحد للخروج معه، وكانت جميع الفتيات اللواتي تذهب للرقص معهن يحلمن بذلك. أرادت أن تشاركها أمها سعادتها، وأن تُسَرَّ لأجلها، لكن غريزتها أخبرتها أنّ روث لن تكون مغتبطة.

هذا ما أوحت به الأسابيع التي مضت على عودة زوجها، وها هو وجه روث يبدو الآن موسوماً على الدوام بتعابير الاستياء. وسرعان ما تلاشى المزاج اللطيف الذي أظهره زوجها عشية موت جودي، ومرة أخرى أيضاً، قلّما وُجد في المنزل في عطلة نهاية الأسبوع ودون أن يقدم تبريرات.

قالت في سرّها وهي عائدة إلى بيتها ذاك المساء، لكن ديريك

أراد اصطحابي إلى العشاء يوم السبت. لن أخبر أمي أو أبي بالأمر. ولكن لن يَسعني إيجاد أيّ عذر للتأخر في الخارج مساءً خلال الأسبوع. لا، سيترتب عليّ إخبارها وآمل أن تأذَن لي.

ومع أنها كانت تستطيع الخروج مساء كلّ سبت، إلّا أنّ هذ لم يعُد صحيحاً لأن تاريخ هذا الامتياز يرجع إلى ما قبل عودة والدها. ومهما تمادى في رغبته للحد من هذا الأمر، إلا أنه لم يخطر بباله بعد أيّ عذر مقبول، لأنه يعرف حق المعرفة أنّ مساهمة أنطوانيت في فواتير المنزل تزيح عن كاهله عبئاً ثقيلاً. ولو أنه تمادى معها ورحلت، لترتَّب عليه بالتأكيد أن يزيد من مساهمته.

وكما فعلت ذلك مراراً، رغبت أنطوانيت بأسرة طبيعية. كانت تحلم بوالدين يريدان الأفضل لها، بدلاً من أبٍ يعذبها بمضايقاته وأمّ لا تهتم إلا بالحفاظ على السلام على حساب سعادة ابنتها.

قد أستطيع اختلاق عذر، قالت أنطوانيت في سرها. يمكنني إخبارها أنني ذاهبة إلى السينما مع صديقة. . . لا، لن ينجح الأمر. فهي تعرف أنه ليس لدي صديقة مقربة. لن تصدقني البتة. ستستدرجني لمعرفة اسمها. وستطلب مني اصطحابها إلى المقهى لأعرّفها بها. . .

لم تكن فتيات مجموعة أنطوانيت يلتقين إلّا للذهاب إلى الرقص، لذلك كان يستحيل عليها الذهاب إلى حلبات الرقص وحيدة، وقلما كن يلتقين في الخارج، وروث تعرف ذلك حق المعرفة. سيكون من الصعب عليها اختلاق صداقة مفاجئة.

كانت أنطوانيت تعرف أنّ الصداقة خطيرة في سن السادسة عشرة. فهي تترافق مع أسئلة ولم تكن تريد أن تضطر لتقديم إجابات

حول ماضيها أو حاضرها. نادراً ما سمحت لنفسها أن تشعر بالوحدة أو أن تجرفها الرغبة بصداقة فتاة أخرى من سنها. لم تزل تتذكر بجلاء كيف انفضَّت رفيقاتها في المدرسة عنها، وبعضهن كنّ يعرفنها منذ سنين، حين خرجت الأخبار المتعلقة بحملها إلى العلن.

أدركت أنطوانيت أن الفتيات اللواتي تخرج معهن للرقص سيختفين من حياتها بمجرد أن تحظى بصديق. رضيت بلامبالاتهن بإزاءها وارتاحت لأنها لم تُثر فضولهن أيضاً.

سأخبرها بالحقيقة، قرّرت، وليكن ما يكون.

في اليوم التالي وجدت أمها لوحدها في المطبخ.

- دُعيْتُ للخروج، قالت أنطوانيت بلهجة لامبالية قدر المستطاع. شاب يدعى ديريك يريد دعوتي للعشاء يوم الخميس. قلتُ له أنه بوسعي الذهاب. هل أحسنتُ صنعاً؟

من مراصدها، رأت انفعالات متضاربة على وجه أمها: قلق وخوف، وأيضاً تَرَدُّدٌ في أن ترفض لأنطوانيت طلباً بسيطاً وعادياً إلى هذا الحدّ.

تساءلت أنطوانيت، ممّ تخاف أمي أيضاً. فهي تعرف أنهما كلتاهما تخشيان والدها، كل واحدة على طريقتها، ومع ذلك تشعر غريزياً أنّ الأمر لا يتعلق بهذا. على كلّ حال، سيترتب على أنطوانيت في حالة الصداقات والعلاقات الطبيعية أن تجيب عن الأسئلة.

لعلها ستقول ذات يوم الحقيقة لشخص ما وستخبره عن كلّ هذا الصرح الذي بنته بعناية، وستتداعى الحياة التي حاولت روث اختراعها بمشقّة وأرادت تصديقها بقوة.

راقبتها أنطوانيت تصارع ضدّ شكوكها، قبل أن توافق مطلقة تنهيدة.

- حسنٌ جداً، بوسعك الذهاب. فأنا أرى رغبتك الجامحة للخروج معه، وبما أنك أعطيته موافقتك، لا أظن أنّ بمقدوري منعك، قالت قبل أن تضيف: لكنني أعتقد أنه سيكون من الأفضل لو ظنّ والدك أنك ذاهبة إلى السينما مع صديقة. اطلبي من هذا الفتى أن يوصلك إلى المقهى بعد العشاء لأنني في وردية المساء، وهكذا ستستطيعين العودة معي إلى المنزل.

- جيد جداً. شكراً ماما.

إذا كان هذا هو ثمن السهرة مع ديريك، فسيطيب لها أن تدفعه، مع أنها كانت قد أملت أن يوصلها ديريك بسيارته حتى البيت. كانت تعرف في قرارة نفسها أنّ أمها تريد الحفاظ على السلم في المنزل وأنّ روث اختارت مرة أخرى أيضاً الحلّ السهل بإظهار تواطئها مع هيمنة زوجها.

طردت إلى أعماق روحها السؤال الذي يدغدغها لمعرفة ما الذي قد يضير والدها من خروجها مع فتى. وتجنّبت أن تتساءل لماذا اقترحت أمها إخفاء الأمر عنه. كانت تعرف في أعماقها الإجابة عن هذين السؤالين، وبما أنها لم تكن مستعدّة بعد لمواجهتها، فضّلت إبعادها وإخفاءها في قرارة نفسها.

في المساء الذي سبق خروجها إلى المطعم، فتّشت أنطوانيت خزانتها، باحثةً عن لباس ملائم ومستبعدة أثوابها واحداً واحداً. وانتهت إلى التوقف عند ثوبها الأصفر المفضّل لكن ديريك سبق

ورآها ترتديه، لذلك لا. وعلى غرار معظم الفتيات الشغوفات بالموضة في مثل سنها، كانت تفضل الكمية على النوعية: المهم هو ارتياد محلات الثياب والظهور بملابس جديدة. وهي تشعر أنّ الفساتين التي ارتدتها في حفلات الرقص الأسبوعية غير مناسبة فعلاً، اقتنعت بلا عناء أن تستخدم مدّخراتها. فقد سبق لها أن اكتشفت أنه لا شيء يغري أكثر من ثياب جديدة مغلَّفة بورق حريري، وموضّبة في كيس أنيق مطبوع عليه شعار متجر مشهور.

في اليوم التالي، غادرت المنزل باكراً متجهة إلى المتجر الذي سبق لها أن رأت فيه ثوباً راقَ لها ترتديه عارضة أزياء بلاستيكية جميلة على الواجهة. وفي الطريق، أبقت أصابعها متشابكة، وهي تأمل أن يكون الطقم الذي لفت نظرها لا يزال موجوداً هناك، وأن يناسب مقاسها. وصلت إلى المتجر بعد دقيقة من موعد افتتاحه ورأت بارتياح كبير أن اللباس الذي تريده لم يزل معروضاً. وحين نزعته البائعة عن مجسم عارضة الأزياء، اكتشفت بسرور أن مقاسه اثنا عشر، أي مقاسها.

وهي تتأمّل نفسها بإعجاب أمام المرآة، شعرت أنه اللباس الملائم لموعدها الغرامي: تنورة منسابة بلون أزرق بحري مع كنزة متجانسة مكفوفة بأردان بيضاء وياقة بحرية بيضاء.

قالت في سرها وهي تدفع ثمنه، حذائي الأبيض وحقيبة يدي المتناسقان سيلائمانه تماماً. ثم ذهبت إلى متجر وولوورث الكبير وبحثت في تشكيلة ريميل. اختارت أحمر شفاه وردي باهت يشبه نصف دزينة سبق أن اقتنتها. وأخيراً أهدت نفسها زجاجة عطر بلوغراس، وذهبت لتحتسي فنجان قهوة قريباً من هناك وهي منتشية

بهذه المشتريات. جلست، محاطة بأكياسها، وهي تحلم أن العالم الجميل فتح لها ذراعيه. صارت تدعى إلى سهرات تلفت فيها جميع الأنظار بلباسها الأنيق. راحت تتخيل نفسها والقدح في يدها، مشيقة القوام بكعبها العالي، وهي تتحف حشداً من المعجبين بقصص مسلية. وفتيات أخريات، يطلبن منها، بنظرة حسد، يطلبن منها نصائح عن الموضة.

تنبَّهت من حلمها حين نظرت إلى ساعتها ورأت أن موعد ذهابها لاستلام نوبة الظهيرة في المقهى حانت. وفي العمل، يجب أن تكون الموائد جاهزة والأدوات نظيفة والكؤوس مجففة، لكن طيلة ذلك الوقت، ظلت أنطوانيت ترسم ابتسامة على وجهها وهي تقدم طبقاً وترفع طبقاً. لم تكن تستطيع أن تمتنع عن التفكير بالسهرة القادمة.

كان يجب على ديريك أن يمرّ ليأخذها من المقهى. فهي تُنهي عملها في الساعة الخامسة والنصف؛ وقد أخذت موعداً عند مصفّف الشعر المجاور، لأنها تريد تسريحة لائقة تماماً مثل لباسها. سيكون بوسعها التبرج أمام مرآته بينما ينشّف ويسرّح شعرها. ثم سيكون بإمكانها تبديل ملابسها في المقهى وانتظار مجيء ديريك، وأمامها فنجان كابتشينو، مبدية هيئة لامبالية.

وصلت أمها لاستلام نوبتها المسائية حين رجعت أنطوانيت وشعرها مصفف ومساحيق تجميلها مطلية بعناية.

- كيف أبدو، ماما؟ هل تحبين لباسي الجديد؟ أتعتقدين أن ديريك سيحبه؟

- جميلة جداً، يا حبيبتي، كان هذا تعليق روث الوحيد، وهي اكتفت به.

ظهر ديريك في الموعد المحدد وقدّمته أنطوانيت إلى روث. كانت روث هي المديرة، وكانت ترتدي بشكل لائق حسبما يبدو لها، على العكس من النادلات ذات اللباس الموحد. ابتسم ديريك عندما قدَّمته لها، وبدا مرتاحاً معها.

لا بد أنها تشبه أمهات أصدقائه، فكرت أنطوانيت مرتاحة، وهي ترى الاستحسان على وجهها: كانت لهجة روث الرقيقة وطقمها الأنيق يوحيان أنها لا تنحدر من بيئة محترمة وبرجوازية فحسب، وإنما تؤكدان ذلك أيضاً. على أية حال، لا بد لأي والدين طبيعيين أن يهتما بابنتهما المراهقة وأن يرغبا بحمايتها؛ ويريدان أن يلتقيا الرجل الذي تخرج ابنتهما معه ويتوقعان احترام مواعيد العودة.

بدا أنّ روث خمّنت ما تنتظره أنطوانيت منها وصارت غريزياً الأم المرحّبة وهي تضع ابنتها برعاية شخص آخر خلال السهرة.

أصبحت أماً تكتشفها أنطوانيت لأول مرة. وهي تغادر، شعرت أنها مثل مراهقة في أول موعدٍ لها.

كانت هذه المنشأة على مستوى توقعاتها. فمطاعم بلفاست الأخرى تفضل جدران الآجر المزينة بلوحات عن الصيد، أما هذا المكان فقد طُلِيَ بلون نبات الماغنوليا ويعرض لوحات نساء لهن شفاه حمراء آسرة في حليّ فريدة. وكان شعرهن الأسود الكثيف المشبوك بعُقَدٍ كبيرة يكشف أعناقاً طويلة ونحيفة بينما تمسك أياديهن الناعمة مراوح غنية بالألوان. فتنتها صور هؤلاء النسوة الأجنبيات من قارة أخرى وأنغام موسيقى الخلفية الغريبة، كما لو أنها كانت تستشفّ، من هذا المكان، ثقافة مختلفة؛ أعرق من ثقافتها وأكثر غموضاً.

- إنه رائع، قالت أنطوانيت بينما يرشدونهما إلى طاولتهما.

- يسرّني أنه يعجبك. هل تودّين احتساء شراب ما؟

طلب نبيذاً، ثم قدّموا لهما قائمة الطعام. وحين وُضعت أمامها، احتارت أنطوانيت بين الأطباق التي لا تشبه ما تناولته من أطباق في الماضي. وأمام تشوّشها، اقترح ديريك بكياسة أن يطلب لها، وبعد بضع دقائق، وصلت زبادي بورسلان صغيرة مملوءة بمرق الدجاج مع الذرة الحلوة.

وضعت ملعقة البورسلان الضخمة في فمها وابتلعت بتأنٍّ. فأنارت ابتسامة سرور وجهها. إنه لذيذ، فكرت وهي متفاجئة ومنشرحة في آنٍ معاً: إذا كان كلّ طعامهم مثل هذا، أظن أنني سأحبّ المطبخ الصيني.

بعد الحساء، أحضروا لهما طبقاً يسمّى شوب سيوي. ولإرضاء الحليمات الذوقية في إيرلندا الشمالية، وضعوا فوقه بعناية بيضة مقلية. صبّت كمية قليلة من صلصة فول الصويا على طرف صحنها، والتقطت الطعام بشيء من الصعوبة، وشعت بهجة وهي تحمله إلى فمها.

- هل تحبين؟ سألها ديريك، مبدياً الابتسامة العريضة ذاتها.

أبدت رأيها وتساءلت عمّا سيقوله لو عرف أن هذه ليست وجبتها الصينية الأولى وحسب، وإنما أيضاً موعدها الغرامي الأول. لكنها بحكمة أنثوية خالصة، احتفظت لنفسها بهذه المعلومة. ربما ستخبره بذلك عندما تتعرّف عليه بشكل أفضل. وبشيء من التكلّف، تحدثا عن سهرات حضراها وعن نمط موسيقى أحباه. لم يكونا البتة أكثر من مراهقين، لكنهما يحاولان التصرّف كبالغين، وهما يقلّدان ما يتخيلان أنها أحاديثهم.

وبعد أن احتست شرابها الروحي الثاني المحلى بالسكر وشربت فنجانها الأخير من القهوة، حان وقت المغادرة. على أيّ حال، يجب عليها أن تحترم موعد العودة، وكانت تعرف، بينما ديريك يساعدها في ارتداء معطفها، أنّ ذلك ما برح يزيد احترامه لها. شعرت باحمرار وجهها من السرور حين عرض عليها أن ترافقه إلى السينما هذا السبت لرؤية فيلم يعتقد أنه لا بد أن يعجبها، ودون أن تعرف اسم الفيلم، قبلت عن طيبة خاطر.

وصلت إلى المقهى في الوقت المحدّد لتلتقي أمها.

- هل أمضيت سهرة ممتعة، يا حبيبتي؟ سألت روث حين رأت أنطوانيت.

- أوه أجل، كانت رائعة، أجابت مبتهجة. وكانت الوجبة...

كانت تتشوق لإخبار أمها بكلّ شيء، لكن هذه الأخيرة قاطعتها:

- حسنٌ. لكن كما تعرفين، من الأفضل ألّا تخبري أباك بما فعلته. هذا لن يسبب سوى المشاكل. وربما سيترتب عليك أن تبدلي ملابسك قبل مغادرتنا. هل تفهمين، تكلمي، يا أنطوانيت؟ ليس مجدياً أن تعارضي أباك.

وبينما راحت تحدّق في أمها، بدأ انفعالها يتلاشى. لم تفلح روث في النظر إلى عينيها مباشرة وشعرت أنطوانيت أنها كانت تجد صعوبة في أن تشرح لماذا سيستنكر زوجها أن تحظى ابنته بحبيب. كان يشقّ على روث أن تجد الكلمات، ولم تعطها أنطوانيت الفرصة هذه المرة للتعبير عنها. لن يفسد عليها شيء سهرتها.

# 13

بعد ثلاثة أشهر على موعدها الأول، قال ديريك لأنطوانيت أنه يرغب أن يعرّفها على أصدقائه المقربين.

- شرح لها: نيل وشارلوت يخرجان معاً منذ بضع سنوات. شارلوت تعيش في منزلها، بالتأكيد، أمّا نيل فينهي عامه الدراسي في جامعة كوين ويعيش غير بعيد من هنا في شقة مع طالبين آخرين. سيكون رائعاً أن نخرج نحن الأربعة معاً. ما رأيكِ؟

- بكلّ سرور، أجابت أنطوانيت، رغم الذعر الذي أصابها فجأة وهي تتساءل إن كان أصدقاء ديريك سيقدّرونها.

قرّرت على الفور أن ترتدي الطقم الأزرق البحري الذي ارتدته حين ذهبت إلى المطعم الصيني مع ديريك.

منذ ذلك الخروج، التقته بانتظام ونجحت حتى الآن في إخفاء علاقتها بأبيها، مع أنّ هذا الوضع بدأ يؤلمها. كانت تلتقي ديريك مساء كلّ سبت عندما يخرجان للرقص، وفي بعض الأحيان يوم الأحد حين تتسلّل خفية من بيتها للقائه. كانا يذهبان للتنزّه أو إلى السينما، ثم يتبادلان القُبل ويتحاضنان. لا شيء غير عادي وقد

نجحت حتى الآن في تحاشي أن يرافقها إلى بيتها، لكنها لم تكُن تعرف إلى متى سيَسعها أن تسكت عن وجود ديريك.

هذه المرة، في أمسية خروجهما مع نيل وشارلوت، وافقَت أن يمرّ ليأخذها من بيتها. وبما أنّ أمها كانت في نوبة خدمتها المسائية وأباها يلعب البلياردو، فسيكون البيت لها وحدها فقط. وسيكون جو قد غادر حتى منتصف الليل على الأقل، ليحتفل مع أصدقائه إنْ فاز أو ليواسي نفسه معهم إنْ خسر. وهكذا لن تراه وستبقى مخطّطاتها للسهرة مجهولة بالنسبة له.

وهي تتهيّأ، شعرت بتوتر عصبي. على أية حال، ما دام ديريك يريد أن يعرِّفها بأصدقائه، فهذا يعني أنّ علاقتهما بدأت تُصبح جدية. مع ذلك فقد قاومت إغراء أن تبتاع لباساً جديداً. وعنّفت نفسها بقسوة، يجب أن أقتصد من أجل مدرسة السكرتاريا. كانت لا تزال تحلم أن تنال المؤهلات الضرورية لانطلاقتها.

نهضت وسرّحت شعرها، وتبرّجت بعناية، ووضعَت اللمسات الأخيرة على مظهرها قبل أن تتعطّر بسخاء. أصبحت مستعدة، ولكن بقي نصف ساعة على موعد وصول حبيبها. كانت تحبّ كلمة حبيب ولم تتوقّف عن ترديدها في رأسها، وهي تشعر بالدفء يغمرها في كلّ مرة. أخذت تترصَّد الجلبة المُعلَنة عن وصول ديريك وعندما سمعت باب السيارة يُصفق، هرعت نحو الباب.

وبدلاً من السيارة القديمة الضخمة التي كان يقودها من قبل، ركن ديريك قرب بيتها أصغر سيارة رأتها في حياتها.

- ما هذه السيارة؟

- إنها ميني. نزلت حديثاً إلى الأسواق.

- ما أجملها! هتفت بإعجاب وهي تدور حولها وتتفحّصها. إنها صغيرة للغاية!

- هل أعجَبَتك؟

- أوه، أجل، أجابت وهي ترى الفخر والسرور في صوت ديريك بإزاء دهشتها. أجدها رائعة.

فتح لها باب السيارة بحركة استعراضية. جلست على المقعد وأدخلت ساقيها بحركة قرأت عنها في مقال مجلة يصف كيفية الصعود والنزول من سيارة بأناقة.

حين جلست، قفز إلى مقعده، وضغط على دواسة الوقود فأحدثت السيارة الصغيرة جداً هديراً مثل سيارة كبيرة.

فكرت بغبطة: نجحتُ أخيراً. لا بدّ أنها أكثر سيارة تثير الحسد في بلفاست. كانت ركبتاها تلمسان لوحة القيادة ومرفقها يحتكّ بزجاج النافذة، ولكن لم يكن بمقدور شيء أن ينتزع منها شعورها بالبهجة لأنها محطّ الأنظار في سيارة بهذه الأناقة.

إنها سيارة مخصَّصة للشباب الباحثين عن آخر الصرعات وها هي موجودة في داخلها!

اجتازا بلفاست حتى كاندل لايت إن، وهو مطعم وحانة معروف يقع في ضاحية المدينة. ركن ديريك السيارة بمهارة وخرجا. تأبّط ذراعها بطريقة مستأثرة وصحبها إلى داخل الحانة.

وصل أصدقاؤه قبله. حين رأتهم أنطوانيت، شعرت بالضيق.

كانت شارلوت ترتدي تنورة بسيطة رمادية اللون، وكنزة وجاكيت بلون أصفر باهت وتنتعل خفاً رياضياً من الجلد. وكان شعرها متماوجاً على طبيعته، وباستثناء لمسة خفيفة من أحمر شفاه

وردي، لم يحمل وجهها أيّ مساحيق تجميل. أما نيل فيرتدي سترة رياضية وبنطالاً صوفياً. كان أصدقاء ديريك بملابسهم المريحة والأنيقة يعطون انطباعاً بحياة مريحة وهانئة لا هَمَّ فيها. أرادت أنطوانيت أن تخفي حذاءها الأبيض ذا الكعب المدبّب تحت مقعد الحانة. فجأة بدا لها مظهرها مزرياً ومساحيق تجميلها صارخة.

وحين انتهى ديريك من تعريفهم ببعض، لاحظت شيئاً أوهن عزيمتها. ثمة ربطة عنق تعرفها معقودة تحت ياقة نيل. إنها تخصّ طلاب المدرسة الثانوية في كوليرين - مدينة مسقط رأس والدها.

فكرت، نيل أكبر مني سناً، وبالتدريج تملّكها الخوف. أجرت حساباً سريعاً. لا بد أنه كان في سنته الجامعية الأولى حين انتشرت الفضيحة التي كانت هي محورها في كوليرين. مع ذلك توترت لرؤية ربطة العنق. حاولت بلا جدوى طمأنة نفسها، فوجود هذه القطعة من القماش المقلّم على بُعد بضعة سنتيمترات من وجهها أثار فيها الخوف من انفضاح سرّها.

لم تزل تتذكر المقطع المنشور في الصحيفة الذي يُخبر المدينة بجريمة والدها واعتدائه عليها. كان يبدأ هكذا: «جو ماغواير، ميكانيكي يعيش في كوليرين، حُكم عليه اليوم بالسجن أربع سنوات لارتكابه جريمة مروّعة ضد قاصر» ومع أنّ المقال لم يذكر اسمها، لأنها قاصر، إلّا أنّ المدينة بأكملها عرفت أنها هي المقصودة.

شدَّت على كأسها بين يديها، وابتلعت جرعة طويلة محاولةً وضعَ حدٍّ لقلقها. كانت قد قرأت نبذها على وجوه كثيرة وكانت تعرف ما يحدث حين يكتشف الناس ماضيها. أنّبت نفسها: توقفي. ركّزي على سهرتك وتمتّعي.

- ماذا تعملين؟ سأل نيل، وأصبحت نبرته ودِّية ومهتمّة حين طرح عليها السؤال الذي طالما خشيته.

- سأتابع دراستي في السكرتاريا العام القادم، أجابت بلهجة هادئة. والآن أساعد أمي في إدارة مقهى.

أرجوكم، لا تسألوني عن عمل والدي ولا في أيّ مدرسة كنت، وبدا لها أنهم استجابوا لرجائها، لأنّ الشابان انشغلا، بعد بضع دقائق من الأحاديث التافهة المهذبة، في الرياضة أكثر من ماضيها. شرعت عندئذٍ بحديثٍ متكلّف مع شارلوت التي تأمل أيضاً أن تتابع تأهيلاً مماثلاً بمجرّد أن تُنهي آخر امتحاناتها المدرسية.

- سألت شارلوت: لماذا لا تتابعين التأهيل هذا العام أيضاً؟

الحقيقة: «لأنه ليس لدي ما يكفي من المدّخرات»، لم ترغب أنطوانيت أن تقدّم هذه الإجابة. فارتجلت على عجل.

- أوه، كان أمامي خياران، إما هذا أو الإدارة الفندقية لذلك اقترحت عليّ أمي أن أفكِّر لمدة عام.

اعتبرت أنها أدارت السؤال من دون مشاكل تُذكر، ابتلعت جرعة من مشروبها، وأفرغت كأسها دفعة واحدة. وحين رأى ديريك كأسها فارغاً، طلب على الفور أقداحاً أخرى. كان يشرب هو ونيل البيرة، وشارلوت بابيتشام[1]. ودون أن تفكر، طلبت أنطوانيت فودكا، المشروب الذي يُعيد لها ثقتها بنفسها. طلبه ديريك لها بلا أيّ سؤال وتجرّعته دفعة واحدة، ثم أبقت يدها على الكأس لتُخفي فراغه المفاجئ.

---

(1) مشروب فوار مستخلَص من خميرة عصير الإجاص، صنع عام 1953 وتفضله النساء بشكل خاص.

غمرتها موجة من الكآبة. فهؤلاء الناس يعيشون الحياة التي تحلم بها. كانت واثقة قبل زهاء ثلاث سنوات أنّ بوسعها الذهاب إلى الجامعة، لكن سرعان ما تبدّد هذا الحلم. وبدلاً من ذلك، توقّفت دراستها فجأة حين طُردت من المدرسة.

حين علمت الإدارة بما حدث لها، طلبوا منها أن تترك المدرسة. لو أنها استطاعت البقاء والدراسة كما هو متوقع، لأصبحت واحدة منهم. الآن لم تعُد تلك الطالبة المجتهدة والفخورة بعملها المدرسي وإنما فتاة تعتبر أن لديها القليل جداً من القواسم المشتركة مع اللواتي يمكنهن متابعة دراستهن.

لم يفارقها شعورها بأنها ليست في مكانها المناسب خلال السهرة، وفي المطعم، لم تكَد أنطوانيت تلمس الأطباق التي قُدّمت لها. بدت الحجرة خانقة. ولم يتوقف النادل عن ملء قدحها بينما هي تحتسي نبيذها أسرع من الآخرين. شعرت بنظرة ديريك حين لاحظ إفراطها في احتساء الشراب. تضايقت لكنها لم تستطعْ مع ذلك أن تُمسك نفسها عن الشرب.

عندما انتهوا جميعاً، اقترح نيل أن يأخذوا قدحاً أخيراً في الحانة. شعرت أنطوانيت بالدوار في رأسها، وبينما هي تجتاز المسافة القصيرة حتى الحانة، ترنّحت ساقاها قليلاً فوق كعبيها اللذين خالتهما في تلك اللحظة أعلى من أيّ وقت مضى. تهاوت على مقعد الحانة المخملي، وصالبَت ساقيها تحته وحاولت أن تبدو متّزنة.

ثم، وهي تحاول متابعة اللغط الودّي في الحديث حولها، انتصب شعر قذالها.

اعتراها فجأة إحساس مزعج بأن أحداً ما في الحانة يحدّق فيها. شعرت أنّ نظرته تخترقها فالتفتت رغماً عنها.

إنه والدها.

كان بصحبة مجموعة رجال لم ترَهم من قبل. لا تكاد تفصلها عنه بضعة أمتار؛ وقد اخترق خبث نظرته المسافة بينهما. وهي في غاية الارتباك، التفتت نحو رفاقها، وابتسمت لهم ابتسامة حائرة وتناولت كأسها وأفرغته بجرعة واحدة.

- سألها نيل بتهذيب: هل تريدين قدحاً آخر؟

أخذت تشعر باستهجان ديريك المتزايد. كان هذا قدحها الكبير الثالث من الفودكا في السهرة، لكن حاجتها للشرب كانت أقوى من رغبتها في إرضائه.

- أجل. لو سمحت، فودكا أيضاً. أجابت بمكابرة.

- وشارلوت؟

- من دون كحول بالنسبة لي، شكراً، قالت قبل أن تضيف بسرعة، يجب أن أدرس غداً.

لم تدرك أنطوانيت أنّ شارلوت كانت تحاول بقولها هذا أن تُبدي كياستها معها. وعلى العكس، زادتها كلمة «أدرس» تعاسة.

- أوه، أنا حرة حتى ما بعد ظهر غد، ردّت بصوت تعرف أنه أصبح جهورياً أكثر من اللازم.

ثم شعرت من جديد بوخزات في قذالها. شعرت بوجود أبيها خلفها حتى قبل أن تلتفت لتواجهه.

كان جو واقفاً هناك، قريباً جداً.

- أنطوانيت، تعالي معي لأكلمكِ.

ودون أن يقيم اعتباراً لرفاقها، اتّخذ هيئة متوعّدة وأشار لها أن تتبعه.

انزلقت عن مقعدها وأذعنت، وقد اجتاحها توجّس شؤم.

رأت أنطوانيت والدها بعيون أصدقائها الجدد: رجل في الخمسينيات، عيناه محتقنتان بالدم ووجنتاه الحمراوان تنمّان عن مدمن كحول؛ رجل فظ، يرتدي بطريقة مبهرجة، يمدّ ساقين متباعدتين مثل شخص يُظهر التحدي؛ مدمن كحول ذو هيئة متوعدة وصوت صاخب يميّز الفظين.

أدركت على الفور أنّ أصدقاءها لن يرحّبوا به أبداً في منازلهم.

- ماذا تفعلين مع هذا الحثالة وأصدقائه؟

رأته يشدّ قبضته وعرفت أنه يضبط نفسه بصعوبة حتى لا يرفَعها عليها.

- عودي لتُوافي أمك.

شدّت أنطوانيت قبضتيها بالمثل، لكن لتتغلب على خوفها.

- سيَصحبني ديريك بعد قليل، أجابت وهي تعرف أنّ أيّ شيء تقوله لن يهدئه.

قرأت في عينيه السبب الحقيقي لهياجه. الغيرة. لقد عاقبه القانون على جريمته، لكن الرغبة بارتكابها ثانية ظلّت تراوده. ثمة تعبيرٌ متخفٌ في عينيه، يتعلّق بأمرٍ مشين مكتوم في داخله.

- تعودين مباشرة إلى البيت، هل فهمتِ؟

ظهر ديريك إلى جانبها.

- هل أنتِ بخير؟ سألها باهتمام.

لم يسبق له أن التقى إلّا بأم أنطوانيت وابتسامتها الساحرة

وصوتها الهادئ لم يعطياه طبعاً أيّ سبب ليعتقد أنها متزوجة برجلٍ من طينة هذا الرجل الواقف أمامه الآن.

- ديريك، هذا أبي، جوزيف ماغواير، ألقَت جملتها، وهي تتضرّع حتى لا يحُول المزاج السيئ لوالدها دون أن يكون مهذباً. بابا، أقدِّم لك ديريك.

تجاهل جو يد ديريك الممدودة ورمق بنظرة شريرة الشاب الذي تراجع خطوة رغماً عنه. ثم بدأ نوع من غريزة البقاء يلجُ ذهن جو. فقد لاحظ هو وأنطوانيت في آنٍ معاً رجلين ببذّتين داكنتين، من جهاز الأمن السري، ينظران إليهما.

مرَّت لحظة واكتفى بدمدمة ساخرة قبل أن يعلّق بصوت يتحشرج من شدّة الغضب:

- أعِدْها حالاً إلى البيت ولا تشتري لها المزيد من الشراب!

بعد هذه الكلمات، عادَ جو أدراجه فوراً وانصرف بمشيته الثملة بعض الشيء، وعنقه حمراء كالآجر من شدّة سعاره العاجز، يجرجر صمتاً مذهلاً. شعرت أنطوانيت أنّ وجهها تضرج خجلاً -كانت تعرف أنّ كلّ الناس سمعوا كلامه- وحاولت أن تخفِّف مهانتها بثرثرة منفعلة وهي تعود إلى مكانها.

لا بد أنهم اعتبروني ابنة رجل سليط اللسان، طاغية سوقي، فكّرت يائسة.

وإذا كانت يداه الملطختان بالشحوم كعامل لم تُظهرا بجلاء أنه ليس من مستواهم، فإنّ تصرفاته السيئة أظهرت ذلك.

- هيا يا أنطوانيت، سأوصلك.

تأبّط ديريك ذراعها وأمسكَها بإحكام، حرصاً على أن تمشي

منتصبة أكثر منه كدلالة على التعلق، بينما هي تتمايل وتترنح على كعبيها.

ولم تكد السيارة تغادر موقف السيارات حتى شعرت بالغثيان.

- أوقِفْ السيارة، سأتقيّأ.

أحدثت كلماتها أثراً فورياً - لن يعرّض ديريك سيارته الميني الجديدة لأي خطر. توقفت السيارة في الحال وانحنى ليفتح لها الباب ودفع رأسها فوق الرصيف.

تقيّأت أنطوانيت في الشارع ثم مسحت فمها بمنديل. وهي تتهاوى على مقعدها، تساءلت إن كان ثمة شيء آخر سيخفق. ثم هاجمتها موجة غثيان جديدة فألقت رأسها ثانيةً على جانب السيارة لتتقيأ من جديد.

سالت دموعها على امتداد وجهها، حاملةً معها آثاراً من مساحيق التجميل.

- هل انتهيتِ؟

- أعتقد ذلك، تمتمت خجلةً.

- أنزلي الزجاج من جهتك، قال لها بنبرة مقتضبة. ربما سيجنّبك الهواء أن تصبحي مريضة.

كانت تعرف أنّ ديريك مهتم بداخل سيارته الجديدة أكثر من اهتمامه بمشاعرها. انطلقا ثانية وسارا بسرعة على امتداد طرق الريف المتعرجة ليعودا إلى ليسبورن. كانت أنطوانيت منكمشة على نفسها إلى جانبه، ذراعاها مشدودتان إلى جسدها لتشعر بالدفء، وحافظا بقية المسافة على الصمت. كانت محبَطَة تماماً حين توقفت السيارة أمام البيت.

- ها قد وصلنا، قال ببرود حين وصلا.

ثم رأى وجه أنطوانيت المتهتّك، فبدا أنه يشفق عليها.

- اسمعي، من المؤسف أنّ السهرة لم تنجح مثلما تمنيت. أعرف أنك مغتاظة من والدكِ ولكن عليك ألّا تلومي نفسك على سلوكه.

توقف وأضاف:

- لكنه كان محقاً بشأن إسرافك في الشرب، كما تعرفين.

شعرت بالارتياح وهي ترى ديريك يعزو تصرّف والدها إلى غضبه من حالتها الثملة، وليس لأنها خرجت معه.

- ما كان عليكِ أن تفرطي في الشرب.

انحنى وفتح لها باب السيارة. لم تتفاجأ حين لم يقبّلها -فمَن سيرغب في تقبيل شخص تقيّأ للتو؟- لكنه لم يتكلم أيضاً عن اللقاء بها مرة أخرى. أحسَّت أنطوانيت بمغصٍ في معدتها الخاوية. كان يمكنها أن تبغضه بصعوبة. والمسألة مسألة وقت قبل أن يكتشف مَن هي حقيقةً.

نزلت من سيارة الميني وصعدت بخطوات مترنّحة مدخل البيت، وهي تسمع سيارته تغادر قبل أن تفتح الباب.

التفتت فرأت الأنوار الخلفية للسيارة تتوارى. شعرت أنطوانيت بالتعاسة؛ فقد انتزع رحيله منها جواز السفر إلى الحياة التي ترغب بها.

# 14

خلال اليومين التاليين، تحرّكت أنطوانيت في ضباب اليأس. وفي اليوم الثالث، اتصل بها ديريك. وعلى دهش منها، عاد الكائن اللطيف والودود الذي تعرفه. لم تعُد لهجته تحمل أيّ أثر للاستهجان الذي عبَّر عنه قبل بضعة أيام. هل تودّ الخروج هذا السبت كالعادة؟

تلاشت كآبتها وارتفعت طاقتها بسرعة مع هذا الوقف للتنفيذ. فهي لم تزَل تشكّل مع ديريك ثنائياً - صارت تنتمي من جديد إلى مجموعة الفتيات المحظوظات اللواتي لهن عشيق. ولم يعُد عليها أن تقلق بشأن قضاء سهرات السبت في المراقص مع المجموعة. كانت الفتيات النادرات اللواتي لم يجدن بعد عشيقاً يبدون أكثر يأساً كلّ أسبوع.

شكراً لله، لستُ أنا، فكّرت بارتياح. كانت قد اعتادت على الخروج مع ديريك. ولم تعُد تشعر حقاً بالاندفاع لتحضير نفسها بغية الانضمام إلى صديقاتها. والتفكير فقط في الذهاب معهنّ إلى حلبات الرقص أصبح بالأحرى محبطاً؛ كانت تريد أن تقضي مساءات السبت مع عشيقها. فمن الرائع جداً أن تكون مع شخص تستطيع

التحدّث معه، ويقف إلى جانبها وينظر إليها نظرة عطف. حين كانت تقرأ الإعجاب في عينيه، تشعر بأنها متميّزة.

شعرت أنطوانيت بمظاهر الحبّ الأول. كان مبهِجاً ومرعِباً في آن معاً، وكانت تصاحبه رغبة جارفة للثقة بالنفس. راحت ترغب بما يريده معظم الناس - أن تكون محبوبة لشخصها هي. أرادت أن يعرفها ديريك، ويفهم حياتها، ثم يُخرجها منها، وهو يُلقي عليها معطفاً سميكاً واقياً. أحبَّتْ إحساسها بأنها محميّة حين كان يقبّلها ويحتضنها - ولم يتعدَّ الأمر ذلك قط وهي لم تتخيّل حتى هذا الاحتمال، ولم تتمناه. كانت سعيدة بهذه الحال كما هي.

رافقها حلم الحياة العجيبة التي يحبّها ويحميها فيها ديريك وهي تعدّ الساعات قبل أن تلقاه.

كانت هذه فكرتها الأخيرة قبل أن تغفو والأولى حين استيقظت. وأملت أن يغدو حلمها واقعاً ذات يوم.

بدأت أنطوانيت تستعدّ للموعد مع ديريك بعد ظهر يوم السبت. وبينما هي تغسل شعرها فوق مجلى المطبخ، أحسَّت بإثارة متزايدة لفكرة لقائه. راحت تداعب ذهنها أحلام عادية عن حياة اثنين، عن الأمان والحماية، بعيداً عن والدها. لم يكن لديها إلّا تصوّرٌ مبهَمٌ عمّا يتطلبه العيش مع ديريك. فأنطوانيت التي لم تختبر إلّا وجهاً واحداً للحياة، ولم تكن تعرف إلّا النذر اليسير عن الوجه الآخر. لم يُخبرها أحد عن العلاقات بين البالغين ولم تهيّئها أمها قط لتكبر. استقت معلوماتها من المجلات ومن الصحبة العابرة للفتيات اللواتي ذهبت للرقص معهن، وقُبيل سن السابعة عشر، كانت أكثر سذاجة

من بنات عصرها. لم يكُن بمقدورها أن تتخيل إلّا سيناريو حكايات خرافية تعيش فيها هي وديريك بسعادة وهناء حتى نهاية الأزمان.

وهي متمدّدة أمام التلفاز، راحت تطلي أظافرها.

كانت أمها تعدّ الشاي وكان تكدّر مزاجها يتبدى في طريقة قرقعتها لآنية المائدة وفي تعليقاتها اللاذعة العابرة.

- احرصي على العودة باكراً. لا يحبّ أبوك أن تتأخري في الخارج.

لم تُعِرْها أنطوانيت أي انتباه. لن يكدّر شيء متعتها بلقاء ديريك. نظرت إلى جاك بوكس جوري، وهي تصاحب أغانيه التي تتذكرها بدندنة ركيكة وتحلم في الوقت عينه بافتتانٍ بحياتها الجديدة.

لم يتطرّق والدها إلى يوم السبت الفائت، وبدا بالأحرى منشرح المزاج في المرات القليلة التي شاهدته فيها منذ ذلك الحين. لعلّ نوبة هيجانه أمام أصدقائها فَرَّغَت جزءاً من شحنة غضبه عليها. وفي كلّ الأحوال، كانت أنطوانيت تحترم الهدنة المؤقتة للتصرفات العدائية.

انتفضت حين فتح والدها الباب على مصراعيه ودخل بمشية متثاقلة - فقد طغت الموسيقى على صوت هدير سيارته وهو يركنها. وعلى الفور تبيّنت أن مزاجه المنشرح فارقه. كانت رائحة الكحول الكريهة تفوح منه وراح ينظر إليها بهيئة شريرة.

- ماذا تفعلين ببقائك جالسة في هذا اللباس؟ سألها عندما رأى أنها لا ترتدي إلّا ثوب الحمام.

ارتجف فمَه من شدّة الهيجان، فانتصبت على قدميها بسرعة وهي تزمّ أطراف ثوبها في الوقت عينه.

- أطفئي هذا التلفاز اللّعين! لا أريد مشاهدة أوبة حمقى يرقصون على موسيقى همجية صاخبة.

- أوه، هيا، بابا، إنه البرنامج الوحيد الذي أشاهده. أنت تضع دائماً الرياضة عندما تكون هنا. وأنا مَن اشتريته كما تعرف.

رمقها بنظرة غاضبة. لم يحتَج إلّا للحظة واحدة كي ينتفض؛ احمرّ وجهه حنقاً لأنها تجرّأت على الردّ في وجهه.

صعد احمرار داكن من ذقنه إلى جبهته، وصبغ حتى بياض عينيه. أطلق رذاذ لعابه وهو يصرخ فيها بصوت متهدّج من شدة الهيجان:

- لا تقولي لي ماذا يجب أن أفعل في منزلي، أيتها البنيّة!

وهي تلاحظ الوعيد الظاهر على وجهه، حاولت أن تتحرّك لكنها تأخرت كثيراً. انكمشت أنطوانيت على نفسها من الخوف وهي تراه يزمّ قبضته. كانت تعرف أنها تمادت وأنه سيطلق العنان لغضبه.

أمسكها من كتفها بيدٍ بينما تحمّس باليد الأخرى وضربها على صدرها.

غشت دموع الألم والرعب عينيها وهي تحاول أن تستعيد أنفاسها. إنها المرة الأولى التي يضربها فيها منذ إطلاق سراحه.

كان من قبل شريراً وعنيفاً تجاهها لكن منذ دخوله السجن، ظنّت أنطوانيت أنّ الخوف من العقاب سيردعه. واضح أنه لا.

سمعت صوت تنفسه السريع وشمّت رائحة عرقه، فارتعشت رعباً.

مسحت عينا والدها امتداد جسدها، وحدّقت بثوب الحمام المفتوح قليلاً وأظهر وجهه تعبيراً مفاجئاً عن انتصاره، وهي هيئة

عرفتها في طفولتها. كان يعرف أنها عارية تحت ثوبها. إنه تعبير شهواني، لكن شيئاً أسوأ أيضاً يقبع في أعماقه: رغبة لا تقاوم لإيذائها.

حين كانت طفلة، خالَ أنها تخصّه ويستطيع أن يفعل بها ما يشاء. كلفه هذا الاعتقاد عقوبة السجن. وخلال هذه الثواني القليلة الفاصلة، حين التقت نظراتهما، تضرّعت لكي يتذكر ذلك.

وقد تذكّر.

دفعها مع همهمة تشبه الاشمئزاز. تراجعت مترنحة، لكن الغضب اجتاحها. أرادت القيام بهجوم معاكس.

لأوّل مرة، لم تكن مستعدة لاستعادة الأمان في غرفتها بالإذعان. أتعبها هذا التعبير الذي يمنحها إحساساً بالدنس، وشعرت بغضبٍ يصدر عنها حين صرخت في وجهه:

- إنْ لمستني سأتصل بالشرطة! هيا! حاول!

رغبت بهذه المواجهة في هذه اللحظة، وأرادت أن يضربها لتتصل الشرطة. ولم تُثنِها عن ذلك حتى فكرة أنها ضُرِبَت. ولم تكَد تصرخ بهذه الكلمات حتى فقد السيطرة على نفسه تماماً.

جذبها نحوه وبينما يرفع قبضته ليسدّد لها لكمة أخرى، دخلت أمها إلى الحجرة.

وهي لم تزل وضيعة كما هو دأبها، لم تخَف روث من الرجل الذي تزوجته ولم تخف على ابنتها. لكنها خشيت الفضيحة وكانت أنطوانيت تعرف حق المعرفة ما الذي دفع أمها لتتدخل.

- لا، يا بادي، قالت بلهجة ملاطِفَة وهي تضع يدها على ذراعه.

بدا أن صوتها هدّأه فتوقف، لاهثاً، وأنزل قبضته. أفلت أنطوانيت، ودفعها وحدق فيها. ثم قال لزوجته، وهو خارج عن طوره:

- أريدها أن ترحل عن هذا البيت، لا بد من ذلك، حين تبدأ هذه المدرسة اللعينة في السكرتاريا التي صدعت رؤوسنا بها. أراهنك إن كانت ستستمر فيها. حسن، فلتنصرف إلى أصدقائها المهمّين إلى هذا الحدّ. أين ستذهب هذا المساء؟ لقد أرخيتِ العنان لها لزمن طويل.

وبينما تخرج هذه الكلمات من فمه المغطى باللعاب، اجتاحته موجة غضب. لم يعُد يبدو خائفاً من العقاب حين دفع روث، وأمسك ابنته وهزّها.

- لم أعد أريدك هنا! لقد تسببتِ بما يكفي من الهموم! صرخ. وضّبي حقائبك وانصرفي، هل فهمتِ؟

وعند هذه الكلمات، جرّها نحو السلالم ودفعها عليها. وبينما هي تتسلّقها بأطرافها الأربعة، راغبةً في الهرب، أراد أن يضربها على ظهرها. هرعت إلى أعلى الدرج ولاذت في غرفتها وارتمت على سريرها. ظلت تسمع صوته القادم من الأسفل، المشحون دوماً بالغضب، ثم صوت أمها الرقيق وهي تحاول تهدئته. وأخيراً، صُفِقَ باب المدخل.

مرّت بضع دقائق ثم تناهى إلى سمعها وقع خطوات أمها على السلم. انفتح الباب ودخلت روث إلى غرفتها.

كانت أنطوانيت جالسة على السرير، وذهنها فارغاً. وكعادتها

حين كان والدها يبدأ بمهاجمتها، انكفأت على نفسها وكبتت كلّ انفعالاتها وردود أفعالها. كانت هذه الطريقة الوحيدة للمواجهة.

مع ذلك، حين دخلت أمها، رفعَت عينيها يحدوها الأمل. لا بد أنّ روث رأت زوجها على حقيقته؟ فقد ضربها، وتوعَّد برميها خارجاً، لسببٍ تافه حقاً. هل كان هذا صائباً أو عادياً؟

قضى وجه أمها الجامد على كلّ توقعاتها. ومات كلّ أملٍ في تلقّي أيّ دعم من جانب روث مع كلمات أمها الأولى.

- أنطوانيت، لماذا يجب أن تعارضي أباك إلى هذه الدرجة؟ لقد تعبتُ من محاولة الحفاظ على السلم. تحدثتُ إليه ووافَق أن تبقي حتى مغادرتك إلى بيتلنز. أي لمدة أسبوعين. سيكون لديك ما يكفي من النقود لإيجاد غرفة للإيجار في المدينة عند عودتك. لا يمكن أن تبقيا معاً تحت سقفٍ واحد. لا تستطيعين أن تكفّي عن مضايقته. هذا لأنكما متشابهان، على ما أعتقد.

- متشابهان؟ كرّرت غير مصدّقة.

- نعم، يا حبيبتي، أنتِ تشبهين آل ماغواير. تريدين دوماً الخروج ولا تستطيعين السيطرة على نزواتك وكلاكما أنانيان.

رأت نظرة ابنتها المصدومة أمام هذا الاغتيال المنهجي لشخصيتها وسارعت إلى المتابعة.

- بلى، يا حبيبتي، هذا صحيح. انظري إلى عدد المرات التي تركتني فيها وحيدة عندما لم يكن البابا هنا. لكن لا بأس، دعينا لا نتحدث عن هذا. إنه زوجي وأنت كبيرة بما يكفي لتهتمي بنفسك، لذلك أنتِ مَن عليها أن تغادر.

جلست على حافة السرير وقالت بمزيد من اللطف:

- هكذا أفضل. سيكون بوسعك المجيء لزيارتنا، بالتأكيد. أودّ فعلاً أن تحصلي على مكانٍ يخصّك وحدك.

وأدركت أنطوانيت أنّ أمها حدّدت خيارها مرة أخرى أيضاً.

حين خرجت أمها، بقيت على السرير، وعيناها شاخصتان نحو السقف دون أن ترياه. رجعت ثانية إلى أعوامٍ خلت، حين كانت صغيرة، مذعورة وحتماً من دون أيّ دفاع.

كانت الطفلة المرعوبة موجودة مرة أخرى هنا، وترغب بأيّ ثمن أن يطرد أحد ما هذا الألم وهذا الخوف ويمنحها الشعور بأنها على ما يرام. فمَن يسَعه مساعدتها؟

لم أعُد وحيدة. سأخبر ديريك بالأمر، هذا ما سأفعله. إنه يحبّني. يريد أن يحميني. أعرف أنه سيساعدني، ومعه سأشعر بالأمان.

أراحتها هذه الفكرة، فتركت ابتسامة طفيفة تعبُر وَجهها. وأخيراً، سيكون بوسعِ شخصٍ ما أن يزيح عن كاهلها هذا العبء.

# 15

أحاطها ديريك بذراعه وهي تبكي. كانت قد ارتمت على مقعد سيارة الميني الأمامي وحين وجدت نفسها بأمان في السيارة، أرخَت العنان لحزنها مع نوبات بكاء تهزّ كتفيها.

- ماذا ألمّ بك، يا أنطوانيت؟ ما الأمر؟ سألها مهموماً.

كان يُبدي قلقه عليها لكنه لا يعرف ماذا يفعل الآن وقد حلّت هذه الفتاة المضطربة اضطراباً شديداً والتي تبدو أصغر سناً من السابق مكان المرأة الشابة المرحة التي كان يخرج معها خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة.

حاولت أنطوانيت، لكنها لم تفلح في كبح عبراتها ولا في أن تنطق كلمة واحدة.

- لن نذهب إلى المطعم، فأنتِ لستِ على ما يرام، قرّر مقطباً حاجبيه. من الأفضل أن نذهب إلى بيتي.

كانت تعرف أنه يتقاسم شقة مع صديقه، لكنهما لم يذهبا إليها معاً من قبل. حين لا يرتادان مطعماً أو حلبة رقص، يلتقيان في سيارته. وهناك يتبادلان القُبل ويتداعبان قبل أن يُعيدها إلى منزلها.

لم يحاول قط أن يتمادى معها أكثر من ذلك، لأنها تعرف أنه يرى فيها فتاةً قد يُقيم معها علاقة جدية.

أن يضع فتى فتاةً يحترمها في سريره كان يعني التزاماً ولم يكونا مستعدين لذلك بعد، أياً تكن أحلام أنطوانيت الوردية.

ذهبا إلى شقته. كانت خالية، فقد خرج صديقه، ورافقها برقّة إلى أريكة جلست عليها.

كانت قد توقفت عن البكاء، لكن تنفّسها ظلّ غير منتظم ولم يزَل جسدها يرتعش.

- سأحضر لك كأساً، قال ديريك بلطف. كأنك تحتاجينه هذه المرة.

سكب لها كأساً مترعاً بالويسكي، وأضاف إليه قليلاً من الكوكا كولا وقدمه لها.

- اشربي هذا. سينعشك.

وسكب لنفسه الشيء ذاته ثم جلس إلى جانبها وطوّق كتفيها بذراعه.

ويداها ترتعشان، رفعت الكأس إلى فمها وابتلعت جرعة.

- هيا. أخبريني الآن بمشكلتك.

رفعت نحوه وجهاً مخضّلاً بالدموع.

- إنه أبي. ضرَبني.

استأنفت ذرف الدموع التي مسحتها بيدها وشربت جرعة مديدة من الويسكي.

وبالنظر إلى تعابير ديريك، كان واضحاً أنه ليس لديه تجربة تُذكر مع العائلات التي يضرب فيها الآباء بناتهم.

كان قد حظي بتربية محافظة، في أسرة برجوازية صغيرة ولم يتعرّض أحد من معارفه لمشاجرات بهذا العنف.

- لماذا ضربك؟

- لأنني قلتُ له أن التلفاز لي.

- وبعد؟

- ضربني على صدري.

وسالت دموع جديدة.

- وأمك كانت موجودة؟

- أجل، ولم تفعل شيئاً كالعادة. كانت في المطبخ ولم ترَ أين ضربني. لكن ما كان هذا ليغيّر شيئاً.

- هل سبق وضربك؟

- أجل.

- اسمعي، أجيبي عن هذا السؤال: هل يضرب أبوك أمك؟

- لا.

- كيف هذا؟ إن كان عنيفاً، فلماذا معكِ فقط؟

- لأنها كانت ستتركه. إنها تستطيع السيطرة عليه عندما تريد ذلك.

ساقت هذه الجملة كمّية جديدة من العبرات. انتظر ديريك أن تتوقف النوبة. كان يبدو حائراً وغير مرتاح، وهو يبحث عمّا يقوله. وأخيراً، تكلم: - ولكنه إذا كان يضربك، لماذا تبقين هناك؟ هل يمكنك أن ترحلي الآن، أم لا؟ على كلّ حال، أنتِ تعملين وتكسبين المال. الآن وقد ماتت كلبتك، هل ثمة شيء آخر يجعلك تمكثين هناك؟

لم يأخذ الحديث المنحى الذي أملته أنطوانيت.

أين عرضه لمساعدتي، فكَّرت حزينة. متى سيقول لي أنه سيهتمّ لأمري ويعتني بي؟

وفجأة، أرادته أن يفهم فداحة ما جرى في الواقع. سيغدو عندئذٍ في غاية الاستياء، رغم كلّ شيء، وهذا لوحده سيدفعه إلى الاعتناء بها.

- عندما ضربني، ظهر على وجهه التعبير ذاته الذي كان قبل أن يذهب إلى السجن، صرَّحت ببطء.

- هل كان مسجوناً؟ سألها ديريك متفاجئاً. وما السبب؟

- تمتمت: لأنه جعلني أحمل.

وعلى الفور، شعرت أنّ جسد ديريك يتشنّج. رفع ذراعه عن كتفيها والتفت ليصبح قبالتها.

- أعيدي ما قلتيه الآن، طلب منها بصوت ضعيف.

جعلتها هيئة الذهول المرتابة على وجهه الذي شحب فجأة ترغب في التراجع عمّا قالته، لكنها كانت تعرف أنّ الأوان فات. ودون أن تستطيع تكرار كلماتها، ألفت نفسها تسرد حكاية طفولتها. روت له عن سنوات من العسف المؤلم على يدي أبيها.

المناسبات الوحيدة الأخرى التي تحدّثت فيها عن هذا الأمر كانت أولاً مع الشرطة والمعلمة، وبعد ذلك مع الاختصاصيين النفسيين. وهذه أوّل مرة تبوح فيها بالأمر لشخص تهتم لأمره ويهتم، كما تظنّ، لأمرها.

لكنها شعرت بالهلع لأنها لم تقرأ في عيني ديريك أيّ تعاطف،

أو تفهّم أو شفقة. وإنما قرأت فيهما شيئاً من الاشمئزاز حين أدركَ أنّ العذراء الطاهرة التي وقع في غرامها هي فتاة مختلفة، وتُثير نفوره بسبب ما حدث لها. لم تعُد رفيقة جميلة ومسلّية وإنما كائن قذرٌ وقبيح.

وهي تحدّق فيه من خلال دموعها، رأت وتبيّنت النفور الذي قرأته غالباً في نظرات الآخرين حين كانت في سنّ الرابعة عشر من عمرها لمّا علم العالم الخارجي بما حدث لها. سمعت صدى وعيد والدها الذي ردّده غالباً على مسامعها حين كانت صغيرة: «لن يحبك الناس يا أنطوانيت، إنْ أخبرتهم بذلك. جميع الناس سيلومونك».

في خيالها، كانت ترى نظرات الازدراء على وجوه الناس وهم يتجنّبونها ويصفقون أبوابهم في وجهها. كانت ترى الفتيات، زميلاتها في المدرسة، وقد مُنعن من التحدّث معها، وكأنّ إلقاء التحية عليها ستُصيبهن بالعدوى أيضاً.

وفكرت بحزن: لماذا تغابيتُ إلى هذا الحدّ وخلتُ أن الأمر سيكون مختلفاً الآن؟!

قالت في سرّها إنّ الشيء الوحيد الذي يمكنها أن تحاول فعله هو أن تلملم ما تبقى من كرامتها. انتصبت ووقفت باستعداد.

لم يعُد يُجدي الخوض في هذا الأمر أكثر. فقد عرَفت أنها راهنت وخسرَت.

- هل ستُعيدني إلى منزلي؟

- لا. سأطلب لك سيارة أجرة وأعطيك النقود.

برمت وجهها بقصد أن توصل له شيئاً ما. كانت تعرف أنه لطيف بطبيعته لكنه كان ثمرة تربيته أيضاً. كان يعتقد أن الفتيات

الصالحات لا يمارسن الجنس يميناً ويساراً وأن حالات الحمل غير المرغوبة تؤدي إلى الزواج أو إلى العار.

الأرجح أنه لم يسمَع قط عن فتاة أقامت علاقات جنسية مع أبيها، وحتى لم يكن يعرف أنّ هذه الجريمة موجودة. شاهدت انفعالات متناقضة تعبُر وجهه حتى تكلم أخيراً.

- اسمعي، يجب أن ترحلي من بيتك. إذا ذهبتِ لإخبار الشرطة، فسيعتقلون والدك بسبب ماضيه ولكن ذلك لن يساعدكِ في شيء. الأمر الوحيد الذي يمكنه أن يساعدك، هو أن ترحلي.

حدَّقت فيه، وقد أصبحت مثله الآن تواقة إلى إنهاء هذا الحديث.

- ستعملين عند بيتلنز بعد بضعة أسابيع، لا ترجعي إذاً.

- إذا فعلتُ هذا، هل ستستمرّ بلقائي؟ سألت، وهي عاجزة عن إخفاء لهجتها المتوسِّلة.

لكنها كانت تعرف الإجابة حتى قبل أن تطرح السؤال.

- لا.

نظر إليها عندئذٍ، ورأت بوضوح أنّ حبّه لها تلاشى.

- أريد أن أتزوج وأنجب أطفالاً ولن يسعني أبداً الزواج بك، هل تريدين معرفة ما أفكر فيه؟

لم تكُن تريد لكنها تعرف أنه سيخبرها.

- عندما تلتقين بشخص آخر، لا تخبريه شيئاً عن والدك. لا تخبري أحداً بذلك. لا تحدِّثي صديقاتك بهذ الأمر وعلى الأخص لا تحدِّثي الرجال عنه، لا تتحدثي إذا أردتِ أن تحظي بحبيب آخر.

ثم خيَّم الصمت عليهما وهما ينتظران سيارة الأجرة. لم ترغب أنطوانيت أن تسمع منه كلمة وداعاً.

كانت تريد فقط أن تغادر قبل أن تنهار. ثم تذكَّرت كيف واجهت هذا الوضع من قبل، حين لم يكن لها من العمر سوى أربعة عشر عاماً. حينها انفصلت عن انفعالاتها، ومنعت الواقع من الدخول إلى وعيها.

قررت: هذا ما ينبغي عليّ فعله من جديد.

# 16

لم يعد جو إلى بيت الحارس في المساء الذي تركت فيه ابنته البيت.

كانت تعرف أنه سينتظر مغادرتها كي يعود. تصرّفت أمها كأنه يوم عادي وأنّ ابنتها تغادر في عطلة. حاولت أنطوانيت أن تُقنع نفسها بذلك أيضاً. على كلّ حال، ستذهب للعمل في مخيّم عطل عائلي، إذاً ستتسلى بالتأكيد.

حين أغلقت أنطوانيت حقيبتها الصغيرة وأصبح كلّ شيء جاهزاً، التفتت نحو روث. قاومت رغبتها في الارتماء بين أحضان أمها؛ فهي تعرف أنّ أيّ أسف تُبديه روث سيكون كذباً. لذلك أعطَتها خدّها وتلقت قبلة باردة.

- إلى اللقاء، يا حبيبتي. لا تنسَي أن ترسلي بطاقة بريدية، اتفقنا؟

- أجل، بالتأكيد، ماما، أجابت، وهي عاجزة عن كسر عادة الخضوع المحفورة عميقاً في داخلها.

تناولت حقيبتها، وفتحت الباب وسلكت الممرّ نحو الحرية.

ليست أول مرة تعبُر فيها بين إيرلندا الشمالية وبريطانيا العظمى.

فقد ولدت في إنجلترا ولم تأتِ للعيش في مسقط رأس والدها إلّا في سن الخامسة والنصف.

حين وصلت الحافلة إلى الرصيف البحري ورأت السفينة تتهادى فوق الماء الزيتي، تذكرت الرحلة التي قامت بها هي وأمها قبل أحد عشر عاماً. ذهبتا مع جودي بالقطار من كينت حتى ليفربول، ومن هناك ركبتا العبَّارة لمدة اثنتي عشرة ساعة حتى بلفاست. كان والدها قد غادر قبلهما كي يجد مكاناً يعيشون فيه وعملاً، لكنه سينتظرهما على الرصيف البحري.

تذكرت أنطوانيت قشعريرة الحماس الخفيفة التي سرَت في أوصالها حين اضطرّت أمها أن تحملها لأنها كانت أصغر من أن تستطيع الرؤية عبر حاجز السفينة. عندئذٍ، في ساعات الصباح الأولى الندية، شاهدت أرصفة بلفاست البحرية. كانت واثقة من أنّ ذلك كان إعلاناً عن بداية حياتها في مدينة سيعيشون فيها جميعاً بهناء.

شعرت بغصّة في حلقها عندما تمثلت لها الصغيرة أنطوانيت تتلفت بفارغ الصبر وهي تفتش الحشد بنظرها بحثاً عن أبيها. في تلك الفترة، لم يكن بالنسبة لها إلّا رجلاً طويلاً ووسيماً يُضحكُ أمها ويشتري هدايا لابنته.

وفي غمرة سعادة روث الفائقة، كان جو قد استعار سيارة ليُلاقي أسرته ويؤمّن لها إكمال المرحلة الأخيرة من رحلتها بشكلٍ مريح. وهي مدثرة بغطاء دافئ، ظلّت ابنتهما الصغيرة جالسة في الخلف، وقد لوت عنقها لئلا يفوتها رؤية شيء من البلد الجديد الذي سيعيشون فيه. رفعت جودي إلى النافذة وأرَتها بانفعال المنظر المختلف. كان الجميع ينتظرونهم في بيت جدّها الصغير حين وصل

جو وأسرته، وكانوا مستعدين للعناية بها وتدليلها قدر المستطاع. فهي أول حفيدة لهم وأصغر فردٍ في العائلة. وانتهى بها الحال إلى التولّه بجدّتها الإيرلندية، القصيرة والبدينة ذات الشعر الأشيب، وبجدّها الصموت، وعمّاتها وأعمامها وأبنائهم الكثر.

وحين أصبحت أنطوانيت في سنّ الحادية عشرة، عادت الأسرة إلى جنوب إنجلترا، آملةً إيجاد السعادة التي بدا أنها تفرّ منهم دوماً.

في تلك الفترة، اختفت تلك الطفلة السعيدة التي كانتها عند وصولهم بالسفينة إلى بلفاست، وحلَّت مكانها الفتاة ذات الأحد عشر ربيعاً بوجهها الشاحب، المكتئبة والمنعزلة التي تعاني بين يدي أبيها منذ خمس سنوات خلت. ساقت أنطوانيت حياة تعيسة في إنجلترا، وحين أخبروها بعد ثلاث سنوات أنهم سيغادرون من جديد إلى إيرلندا، شعرت بالراحة.

لم تعد الفتاة ذات الثلاثة عشر عاماً التي رجعت إلى إيرلندا إلّا شبح أنطوانيت التي جاءت إليها صغيرة. ومع أنها تأهَّبت لإنهاء مدرستها هناك وارتياد الجامعة، إلّا أنّ حماسها لم يعُد يثير انفعالها منذ زمن طويل.

أصبح عالمها مكاناً كئيباً وحتى فكرة اللقاء بعائلتها لم تبدِّد سحابة الحزن التي ترزح تحتها.

في الثالثة عشر من عمرها، كانت تعرف أنها أسيرةُ حياةٍ لا مفرّ منها ووحده وجود جودي فيها كان يخفِّف عنها.

منذ ذلك الحين، غاصت حياتها في البؤس أكثر فأكثر وهو ما بدا لها كأنه عقاب لا نهاية له على أمور لا يدَ لها فيها.

طردت أنطوانيت الأفكار التي فجَّرتها رؤية السفينة؛ كانت تريد

أن تنسى والديها وتنبذ عائلتها. كانت تريد أن تنفي إلى أعماق روحها قلقها العنيد لأنها لم تبلغ السابعة عشر من عمرها وهي بلا مسكن، ما خلا السكن المؤقت الذي يقدِّمه لها بيتلتز خلال الصيف.

يجب ألّا أفكر في ذلك الآن، أمرت نفسها. يمكن لهذا الأمر أن ينتظر عودتي. أمّا الآن، فأنا أخوض مغامرة ولذلك سأهتم بنفسي. سأعمل طيلة الصيف، وأكسب المال الذي سيكون ملكي أنا وعلى الأخص، سأقابل أناساً لا يعرفون شيئاً عني ولا من أين جئتُ.

أرغمَت نفسها على إظهار ابتسامة فرحة على وجهها وهي تعبُر الجسر الصغير لتصعد إلى متن السفينة وتقصد المقصورة التي حجزتها. كانت تريد أن تخلو إلى نفسها بعض الوقت. خلفت وراءها على الضفة الإيرلندية أنطوانيت وحين أصبحت على سفينة الرصيف ظهرت توني.

كانت توني ترتدي ملابسها وتصفِّف شعرها كما تقتضي الموضة. تتبرّج مثلما تفعل بقية الفتيات، وجهها وشفتاها شاحبون ويعلو عينيها خطّ سميك وكحل أسود. وتعيش توني في بيت أسري سعيد مع أبوين ودودين وتتطلّع إلى متابعة دروسها في السكرتاريا، وتستعد توني لعقد صداقات جديدة.

حين أصبحت في المقصورة، بدأت أنطوانيت تتحوّل. خلعت الثياب التي غادرت بها من بيتها. حشرت في أسفل حقيبتها التنورة الرمادية والكنزة الزرقاء التي صارت تكرهها. وارتدت بدلاً منهم بنطال جينز ضيق وقميصاً أبيض وخفاً رياضياً جديداً من الجلد الطري. وهي تقف على الكرسي الوحيد في المقصورة، تأمّلت

صورتها في المرآة الصغيرة جداً فوق المغسلة، وقفزت والتقطت حقيبة مساحيق تجمّلها. واحتاجت لبضع دقائق حتى ترسم وجه مراهقة مطمئنة وحيوية، وأكمل الشخصية شعرٌ مبرنق. ومثل أفعى، تخلّصت من جلدها وتحوّلت إلى مراهقة نموذجية. تمرَّت في المرآة من جديد ورأت فتاةً واثقة لا أثر للقلق عليها وذات شعبية عمّا قريب. شعرت فجأة أنها مفعمة بالتفاؤل والأمل.

ولكي تختبر صورتها الجديدة، غادرت المقصورة الصغيرة وتوجّهت إلى البار. حدَّقت في زجاجات الفودكا برغبة.

ومع أنها كانت تعرف أنها تبدو في الثامنة عشرة من عمرها، لكنها تخشى أن يطلبوا منها إثبات ذلك، وفضَّلت أن تطلب قهوة. حملتها إلى طاولة صغيرة وتفحّصت الركاب الآخرين الجالسين في مجموعات وتساءلت إن كان أحدهم يقصد المكان نفسه الذي تقصده.

علا ضجيج الجسر الصغير وهو يرتفع واهتزت السفينة وهي تبتعد عن الرصيف.

شاهدت أنطوانيت من خلال الكوة خط أفق بلفاست يتضاءل في البعيد بينما الباخرة الضخمة تغادر رصيف المرفأ، ثم تلاشى.

أشاحت ببصرها حين لم تعُد ترى إلّا بصيص ضوء القمر الفضّي الباهت يلقي ظلالاً على لجج بحر إيرلندا السوداء ويضيء رؤوس الأمواج البيضاء. فعادت إلى مقصورتها ونامت.

نهضت في الصباح وسارعت إلى ارتداء ملابس شخصيتها الجديدة. ثم ذهبت، وحقيبتها في يدها، لتشاهد دخول السفينة إلى مرفأ ليفربول.

# 17

دوّنت ملاحظات إرشادية لتذهب إلى عند بيتلنز. أولاً ركوب قطار حتى غال الشمالية. ومن هناك، ستقلّها، هي وبقية الموظفين الجدد، حافلات إلى مخيم العطل.

كان من السهل العثور على محطة ليفربول، مع أنّ المدينة بجانب بلفاست واسعة ومخيفة. وسرعان ما استدلّت أنطوانيت على قطارها وجلست قرب النافذة. كانت قد كذبت بشأن عمرها لتحصل على عمل عند بيتلنز، لكنها بعد أن عاينت نفسها مراراً أمام المرآة ووضعت اللمسات الأخيرة على زينتها، اقتنعت أنه لن يكتشف أحد أنها ليست بعد في الثامنة عشر من عمرها. غادر القطار المحطة وغرقت بسرعة في حلم يقظة بينما راحت المناظر تتقاطر من وراء الزجاج. لم تشعر بمرور الوقت وها هي قد وصلت. نزلت من القطار وأخذت تبحث عن الحافلة التي ستقلّها إلى المخيم. كانت مركونة قرب المحطة وممتلئة بالشبان الذين جاؤوا أيضاً لقضاء الصيف. حقائبهم مبعثرة بإهمال في الممرات، والفتيات الثرثارات والضاحكات يتدافعن ليشغلن كلّ مقعد. وجدت أنطوانيت مكاناً وجلست، مستمتعة بالجو الصيفي على متنها. لا يشبهن في شيء

فتيات يذهبن إلى مكان عملهن، إنما بالأحرى يشبهن فتيات صغيرات يخرجن في نزهة. فكرت، مفعمة بالأمل، أنها ربما ستستمتع.

المخيم كبير مثل ليسبورن، قالت أنطوانيت في سرّها حين اجتازت الحافلة الحواجز أخيراً. إنه يشبه مدينة صغيرة ذات شوارع تنتشر على جانبيها الحانات والمطاعم والمتاجر، وفي آخرها صفوف عديدة من الشاليهات الخشبية. وتوجد بالقرب منها صالات مطاعم كبيرة. رأت في كلّ مكان مجموعات من المصطافين يتنزّهون بملابس مريحة.

وهم يتدافعون للنزول من الحافلة، جمع الموظفون الجُدد حقائبهم واقتيدوا إلى شاليهاتهم. اصطحب موظف يرتدي الأزرق أنطوانيت إلى سكنها وأخبرها أنّ هذا موسمه الثالث. شرح لها أنّ السترات الزرقاء تدلّ على مشرفي المخيم، وأنه يجب على الموظفين الجدد الرجوع إليهم في حال حدوث مشكلة. ستتقاسم أنطوانيت الشاليه مع ثلاث فتيات أخريات، ولأنها كانت آخر مَن وصلت، خصّصوا لها سريراً في الأعلى وخزانة أدراج صغيرة لأمتعتها. سيكون هذا سكنها خلال الثلاثة أشهر القادمة. طاف بصرها حول الحجرة وتساءلت باختصار كيف يمكن لأربعة أشخاص السكن معاً طوال الصيف. كانت أربعة أسرّة ذات أغطية ناعمة تشغل معظم المكان، تاركةً حيزاً صغيراً لطاولة واطئة وأربع كراسي خشبية. وفوق صوّان صغير توجد غلاية، وإبريق شاي، وإناء حليب وفناجين. من جهة، كانت تتسرّب أصوات عبر جدران داخلية لا تكاد سماكتها تتجاوز سماكة الفواصل، ومن الجهة الأخرى تُسمع الموسيقى.

كانت رفيقات غرفتها الثلاث على العكس تماماً ممّا وصفتهم أمها باعتبارهن «فتيات مستقيمات». ملابسهن تشدّ على أجسادهن، ومساحيق تجميل صارخة على وجوههن وسجائر متدلّية في زاوية الشفتين وهنّ يطلين أظافرهن. لم يكدن يلقين عليها نظرة وأرينها خزانتها الصغيرة التي يمكنها أن تعلّق ثيابها فيها.

أعدّت إحداهن شاياً ثقيلاً جداً.

- هل تودّين احتساءه؟ وجّهت سؤالها إلى أنطوانيت وهي تضع إبريق الشاي وسط الطاولة الواطئة.

- بكلّ سرور، أجابت أنطوانيت بتهذيب.

- تناولي فنجاناً إذاً، قالت وهي تشير إلى الصوان.

انصاعت أنطوانيت.

جلسن وشربن الشاي بينما تجفّ أظافر الفتيات وأخذن يثرثرن.

- ما اسمك؟

- توني، أجابت، فأبدينَ استحسانهن، وقَبِلْن هذا الاسم بلا اعتراض.

أخبَرنها أنهن جئن من شمال إنجلترا وأنهن اعتدن على بيتلنز - وأنّ هذا موسمهن الرابع.

- اعترفت أنطوانيت: هذا أوّل موسم لي. وأنا متوترة للغاية. ليس لدي أدنى فكرة عمّا ينتظرني.

- لا تقلقي، أجابتها أصغر الفتيات الثلاث، فتاة متوقّدة قصيرة وسمراء. سنعلّمك أسرار العمل. يوجد الكثير من الأشياء للقيام بها هنا.

- والكثير من الرجال الذين تقومين بها معهم! هتفت أخرى وهي تضحك، فتاة شقراء جميلة ناصلة اللون.

وأخذن يروين مغامراتهن بتلذّذ. أصغَت أنطوانيت إليهن، ومسحة اشمئزاز تعلو وجهها. كان جزء منها يرغب في الاندماج بهذه المجموعة من الفتيات، المختلفات للغاية عن الفتيات اللواتي صادفتهن في إيرلندا، بينما كان الجزء الآخر منها مرعوباً وهو يصغي إلى مغامراتهن مع الفتيان.

منذ قطيعتها مع ديريك، لم تشعُر بأيّ رغبة لتلتقي أحداً آخر. وهي تستمع إليهن، أدركت أن الأمور مختلفة جداً هنا. كان يوجد في إيرلندا قانون صارم للسلوك ولا يأمل الشباب أن يقيموا علاقات جنسية، وعلى الأقل، ليس بالأمر السهل. هذا القانون لا يسري هنا. فالفتيات يتحدّثن عن الواقيات الذكرية بمنتهى السهولة حتى أنهن يطلبنها مثل ملعقة ثانية من السكر. جعلتها هذه الكلمة لوحدها تنقبض وشعرت أنّ ثقتها بنفسها التي بدأت في الارتفاع تتزعزع.

أخبرتها رفيقاتها أن شتّى أنواع الرجال يأتون إلى عند بيتلنز، وجيوبهم مملوءة بالمال، سيقضين وقتاً ممتعاً. حظيَت كلّ واحدة منهن بعشيق في بداية الموسم السابق، واستبدلنه عدة مرات، وهكذا دواليك حتى عودتهن إلى بيوتهن. وبعد أن تستمرّ كلّ علاقة خمسة عشر يوماً وتنتهي الإجازة الصيفية، يتبادلون كلمات الوداع المؤلمة والوعود بالمراسلة، وسرعان ما ينسونهم حين تُنزل الحافلة التالية مجموعة جديدة من الشبان المتلهّفين.

- ألا تردن عشيقاً جذاباً؟ سألت أنطوانيت وهي تفكّر في فتيات بلدها اللواتي لا يرغبن إلّا في ذلك.

حين عبر السؤال شفتيها وحدّقت فيها ثلاثة أزواج من العيون المدهوشة، عرفت أنها كشفت عن سذاجة تفوق بكثير سذاجة مظهرها.

- ولكن مَن ستريد ذلك؟ تصل دفعة منهم كلّ خمسة عشر يوماً، وجيوبهم مملوءة بالنقود.

انفجرن ثلاثتهن بالضحك أمام تعبير أنطوانيت، فشعرت بوجهها يتضرّج. التمعت عيونهن عند التفكير في الليالي القادمة. وتملّك أنطوانيت قلق من عدم تمتّعها مثلما ظنّت.

لاحظت الجميلة السمراء انزعاجها فسألتها بصراحة:

- هل أنتِ عذراء إذاً؟

كادت تندّ عن أنطوانيت صرخة رعبٍ. ما كانت أيّ شابة إيرلندية لتتجرّأ على طرح هذا السؤال، ولا لتجيب عنه فضلاً عن ذلك. بحثت بيأس عن ردّ. لو قالت «لا»، لأصبحت واحدة منهن، ولكنهن في هذه الحالة، سينتظرن منها أن تشارك في نشاطاتهن. ولو أجابت «نعم»، لانتُبِذت جانباً وهذا ما ترفضه.

أشفقت عليها رفيقات سكنها. فحين رأينَ انزعاجها والوقت الذي استغرقته للإجابة، افترضن أنها فضحَت نفسها. ظاهرياً، لم تزَل عذراء، وكان انعدام التجربة معيباً أكثر من ممارسة الجنس مع الفتيان.

- أخبريني، كم عمركِ؟ استفسرت إحداهن وهي تتفحّصها عن كثب.

فكرت برهةً لتعرف هل عليها أن تدّعي أنها في سن الثامنة عشر، لكنها أدركت على الفور أنهن لن يصدّقنها.

- ستة عشر عاماً ونصف.

تبادلت الفتيات النظرات فيما بينهن، ثم التفتن إلى أنطوانيت.

- أنتِ تخوضين مجازفة كبيرة، هل تعرفين ذلك؟ قالت السمراء.

- أعرف. كذبتُ بشأن عمري لأنني كنت أتحرّق شوقاً للمجيء إلى هنا. لن تُخبِرْن أحداً بشيء؟

- لا تقلقي، سنكون صامتات كالقبور.

- هل تَعِدْنَني؟

- بكلّ تأكيد. نحن لا نبالي بعمرك، قالت إحداهن، وسايرتها الأخريان.

- ولكن ما دمتِ صغيرة إلى هذا الحدّ، استفيدي من ذلك لأطول فترة ممكنة! أضافت الشقراء بلطافة.

سألنها عن سبب مجيئها إلى هنا، فاختلقت أنطوانيت بسرعة قصّة عن والدها الذي هجر والدتها وعن عوزها للمال من أجل تغطية نفقاتها المدرسية.

قالت إنها جاءت لتقتصد ما أمكن. وأدركَت أنها كسبت دعمهن وأنها لم تعُد بالنسبة إليهن فتاةً غريبة بلكنة متعجرفة، وإنما شابة صغيرة وبريئة يجب حمايتها.

- جميع الرجال أوغاد، أعلن ثلاثتهن كجوقة.

- إذا ضايقكِ أحدهم، تعالي وأخبرينا، قالت الشقراء، وأيّدتها صديقتاها بإيماءة من رأسيهما.

شعرت أنطوانيت فجأة بالأمان، وهي تتذوق حرارة اللطف المفاجئ من صديقاتها الجدد. وفي ذلك المساء، أخرجتها الفتيات،

وأشرنَ لها أين يمكنها أن تلتمس عملاً إضافياً إن أرادت العمل في المساء.

- انتظري إلى الغد، قالت الأولى.

- انتظري حتى تعمَلي يوماً، وحتى تري كيف تشعرين، نصحتها الثانية.

- لا تنسي أنّ عليك أيضاً أن تتسلّي، أضافت الثالثة وهنّ يدخلن إلى أوّل حانة للسهرة.

كانت الحانات أكبر من مراقص بلفاست، ومزدحمة بالعائلات. هنا، تظهر ثلاثة أجيال وقد غادروا معاً لقضاء عطلة. وتُشاهد أيضاً مجموعات أصدقاء من الجنسين. أول محطة للفتيات هي حانة متلألئة بالأضواء وعلى خشبة مسرحها الكبيرة تصدح امرأة ترتدي ثوباً قطنياً بأغنية كوني فرانسيس[1] بينما تعزف الأوركسترا وراءها. كان موظفو الحانة منهمكين بسحب كؤوس البيرة، وملء أقداح الكحول ووضع الشلمونات في زجاجات المشروبات الغازية المخصَّصة للأصغر سناً من زبنهم. أخذ النُدل، وهم يحملون صواني الكؤوس، يشقون بصعوبة ممراً لأنفسهم بين حشد الزبن السعداء الذين لوّحت الشمسِ بشرتهم شباباً وعجائز. أطفال يضحكون وهم يمسكون أكياس الشيبس ويتراكضون بين سيقان اليافعين بينما بعض المراهقات يردُدن شعرهن وينظرن مواربةً إلى مجموعات الشباب، وأزواج في شهر العسل يحتضنون بعضهم بعضاً.

ارتاحت أنطوانيت حين رأت أنّ رفيقات سكنها أخَذْنَها تحت

(1) مغنيّة إيطالية أميركية اشتهرت نهاية عقد الخمسينيات وبداية الستينيات.

جناحهن ورُحن يشرحن لها كلّ ما عليها معرفته للعمل عند بيتلنز. وفي نهاية السهرة، ارتفعت معنوياتها ورجعن معاً إلى الشاليه، ونامت أنطوانيت بهدوء في سريرها العلوي حتى رنَّ منبِّهها عند الساعة السادسة والنصف.

وعلى العكس من الفتيات الأكبر سناً، لم تجد أنطوانيت صعوبة في الاستيقاظ باكراً وزاد من تقدير الآخرين لها أنها أعدَّت الشاي الصباحي. وفي الساعة السابعة والنصف، اصطحب الثلاثي أنطوانيت إلى صالات مطعم عملاق يتناول فيه مئات المصطافين وجباتهم على دفعتين. تركنها مع مشرف ليعلِّمها أسرار العمل وذهبنَ لإنجاز مهامهن الخاصة. وبعد جولة سريعة في مكان العمل، سلَّموها لباساً موحّداً مؤلفاً من ثوب ذي مربعات فارتدته، واستعدّت للنهار الذي ينتظرها. كانت تعرف أنها ستنجز عملها بسهولة، وسَرَّها أنّ عملها في المقهى أعدّها لما يترتب عليها أن تقوم به هنا. وبخلاف العاملات الأخريات الجديدات، اللاتي انتعلن أحذية جميلة ذات كعب، كانت تعرف معنى البقاء واقفة لمدة ساعات، فاحتاطت وانتعلت حذاء عملياً وجوارب قطنية.

نظرت نظرة مفعمة بالتعاطف إلى الفتيات اللاتي ارتدين جوارب نسائية، وهي تفكر بالبثور المائية التي ستحرق كعابهن في نهاية النهار.

خُصّص لكلّ نادلة مكان يضمّ عشر طاولات وقطاع لجلي الأواني. وخلال ساعتين، يجب أن يخدمن ثمانين شخصاً، ويرفعن الموائد وينظّفن الأدوات قبل أن يستطيع طاقم الموظفين تناول غدائه.

أخذت النادلات يَجُلْن الممرات، وهن يستخدمن رفوفاً تتكدّس فيها الوجبات، ويرمين الأطباق أمام الزبائن قبل أن يدفعن بخطى حثيثة عرباتهن الضخمة الساخنة لإعادة تحميلها. يجرين ذهاباً وإياباً راكضات، ويوزّعن الوجبات والابتسامات قدر ما يسعهن.

كانت النادلات يُدركن تماماً أنهن بقدر ما يبتسمن، بقدر ما يحصلن على إكراميات مُجزية نهاية كلّ أسبوع حين يعرب المصطافون عن امتنانهم لحظة مغادرتهم.

كانت توجد ثلاث نوبات خدمة في اليوم، وبعد كلّ نوبة، كان طاقم الموظفين يلتهم بسرعة وجبته. ولا يكادون يبتلعون آخر لقمة، حتى يحين موعد تحضير الطاولات للنوبة القادمة.

كان المساء تكراراً للغداء، ما عدا أنه يوجد ثلاث خدمات، بمعنى آخر، يجب وضع الأطباق أمام المصطافين مئتين وأربعين مرة. لم تزَل النادلات أكثر اندفاعاً ليخدمن بسرعة زبن العشاء: جميعهن يردن العودة إلى الشاليه وتبديل ملابسهن من أجل الخروج.

وحين يحلّ الغسق، يشعر طاقم موظفي بيتلنز أنهم في عطلة مثل الضيوف، وتدعوهم أيضاً مصابيح النيون في العديد من الحانات والنوادي الليلية للاحتفال طوال الليل.

قرّرت أنطوانيت أن تتبع نصيحة صديقاتها الجُدد وأن تعمل فقط خمسة مساءات في الأسبوع وأن تحتفظ بالمساءين الآخرين للاستمتاع. أكّدت لها رفيقات سكنها أنهن سيحمينها.

- سنمنع الفتيان من مضايقتك، قلنَ لها بالتحديد.

أصبحت بمثابة التميمة في المجموعة، لكنها سعيدة، وصارت

تدخل تحت حمايتهن حين تغادر الشاليه برفقتهن لقضاء ليلة جديدة من المتعة.

التمست أنطوانيت وظيفة نادلة في الحانة الواسعة من المساء الأول. ابتسم لها المدير وطرح عليها سؤالاً وحيداً بدا أنه يهمّه: كم مساء تريدين أن تعملي؟ يجب أن تبدأ من اليوم التالي. قالت لها صديقاتها إنّ العائلات التي ترتاد المكان تترك إكراميات مجزية أكثر من المراهقين. فالشبان يبذّرون أموالهم بسرعة قبل نهاية عطلتهم والإكراميات مهمة. وإذا استطاعت أن تؤمّن بها حاجاتها اليومية، فسيسعها توفير راتبها كله. حسبت أنه سيكون لديها قبل نهاية الفصل ما يكفي لدفع أجرة غرفة مفروشة وكذلك نفقات المدرسة.

وسرعان ما أصبحت الحياة في المخيم روتينية. في النهار، تعمل بمشقّة في مطعم المصطافين. وفي المساء، تقصد الحانة وتبدأ خدمتها فيها. كانت الجدران تهتزّ حين ترفع المجموعات صوت مكبّرات الصوت لتمنع لغط أحاديث مئات المحتفلين من الطغيان على موسيقاهم. كان الزبن بغضّ النظر عن أعمارهم يتقاسمون الرغبة ذاتها: أن يمضوا لحظات ممتعة ويستفيدوا من عطلتهم، وهو ما يخلق جواً من المرح المُعدي. هنا، لا مكان للحزن. جميع الناس يريدون الترفيه عن أنفسهم والاستمتاع بكلّ دقيقة. استغرقت أنطوانيت في هذا الجو وتلاشى الحزن الذي تولّد عن قطيعتها مع ديريك.

طردت بحزم كلّ فكرة عن أبويها وعن المستقبل غير المضمون الذي ينتظرها في البيت.

قالت في سرّها: سأرى هذا الأمر فيما بعد. أحبّ أن أكون

هنا. صار لدي أصدقاء، ومكان أسكن فيه وثلاثة أشهر لأستمتع، لذلك سأستفيد من هذا إلى أقصى حدّ.

قرّرت أن تقضي وقتاً ممتعاً في أثناء سهراتها الحرة. كانت استراحات مجانية، بالنسبة إلى المصطافين كما بالنسبة إلى طاقم الموظّفين. كانت مكبّرات الصوت تستقبل السّواح كلّ صباح بهذه الكلمات: «صباحكم سعيد أيها المصطافون الأعزاء!» ثم يعلن مذيع يرتدي سترة حمراء عن النشاطات اليومية المرتقبة. هناك نشاطات لكلّ الأعمار، شباباً أو عجائز، وكانت أنطوانيت ورفيقاتها يستمعن إلى كلّ عروض السهرة قبل أن يقرّرن.

كان خيارها المفضّل يتّجه إلى سهرات المواهب التي يتخلى فيها المؤدّون الواعدون عن ملابسهم اليومية ويظهرون بأبهى ملابسهم ويتبخترون على المنصة بثقة المحترفين الحقيقيين. إحدى زميلاتها النادلات، وكانت ترتدي نظارات سميكة كقعر الزجاجة وتركض بخجل بين الأجنحة لتقدِّم خدماتها، تحولت مساءً إلى مغنية ملهى مبهرة. استبدلت ثوب عملها القطني ذي المربعات بثوبٍ برّاق، واختفى الخفّ الرياضي والجوارب القطنية وانتعلت مكانهم حذاءً بكعب عالٍ ارتفاعه ثماني سنتمترات، وتركت نظّارتها في الكواليس. حين راحت تؤدي أغنية سامرتايم، ساد صمت مطبق في الصالة واقشعرّت أبدان الجميع بينما تنتشر موسيقى صوتها الشجي في كلّ أرجاء الصالة. وهي تمسك الميكرفون بيدٍ شاحبة واليد الأخرى مسبلة بحرية على طول جسدها، كانت تقف قبالة جمهور ضبابي بسبب قصر نظرها، واستغرقت في المقطوعة الموسيقية الشهيرة لجيرشوين.

استقبلت بابتسامة صغيرة مرتبكة عاصفة التصفيق التي تلت

الأغنية، كأنها لم تكن تصدّق قوة صوتها؛ ثم نزلت عن المنصّة، وعادت من جديد النادلة الخجولة ذات الصوت الرقيق.

في المساءات الأخرى، كانت الفتيات الأربع يذهبن لمشاهدة حفلة استعراضية لمؤدين مألوفين-مغنون، راقصون، ممثلون هزليون، سحرة... إلخ، يأملون أن يلاحظهم مكتشف مواهب ويقذف بهم إلى المجد. بعضهم أصبحوا مشهورين، وغيرهم طواهم النسيان. أحبّت أنطوانيت السحرة الذين يجدون حمائم تحت المناديل، ويوهمون المصطافين أنهم ينشرون مساعديهم المرتدين ملابس قصيرة إلى نصفين ويخرجونهم دوماً من صندوقهم معافين ومبتسمين للجمهور بينما الأضواء تتلألأ على بدلاتهم البراقة المزركشة.

وفي غمرة فرحها، اكتشفت خلال خمس سهرات عمل أنّ السياح أكثر سخاءً ممّا أملت. راحت كلّ مساء تعدّ حفنات النقود المتروكة على الطاولة. لا يسعها أن توفر راتبها وحسب، وإنما أيضاً جزءاً كبيراً من إكرامياتها. ثم، وتتويجاً لكلّ شيء، أخبرها بيتلنز أنها ستتلقى مكافأة بقيمة عشرة شلينغات عن كلّ أسبوع عمل، شريطة أن تعمل طيلة الموسم. وبإضافة رواتبها النهارية والمسائية، أصبح لديها ما يكفي من المال للاستئجار والنفقات، وأيضاً لتشتري ثياباً مناسبة لمدرسة السكرتاريا.

مرّ الوقت بسرعة كبيرة في العمل نهاراً وليلاً حتى أنها لم تشعر بالشوق إلى منزلها. أرسلت العديد من البطاقات البريدية إلى أمها، أخبرتها عن نشاطاتها وأنها في أمان، لكنها لم تتلقَّ بالمقابل سوى رسالة قصيرة.

وقبل مغادرتها بأسبوع، ذهبت أنطوانيت وصديقاتها الجدد إلى متاجر الألبسة لشراء ثياب للمدرسة التي تأمل أن تلتحق بها في الخريف. كانت قد سجلت فيها قبل مغادرة إيرلندا لكنها لن تعرف إن قُبلتْ إلّا عند عودتها. أرادت أنطوانيت أن تُبدي تواضعها وتميّزها وتذكرت كيف كانت شارلوت، صديقة ديريك، ترتدي ذلك المساء المشؤوم أثناء لقائهم.

قرَّرت أن تقلّد هذا الأسلوب، فاشترت تنانير وكنزات أنيقة وبسيطة. وبهيئة ثلاث أمهات رؤومات، قهقه الثلاثي مستهجناً الملابس التي حجزَتها. كنّ يفضّلن زياً أكثر جرأة وأناقة وعبّرن عن رأيهن بقوة.

وبابتسامة عريضة، تجاهلتهن أنطوانيت ودفعت ثمن مشترياتها. كانت مغتبطة بخياراتها. دعتهن إلى مقهى للاحتفال بالحدث حول كعكات صغيرة، وكاتو بالكريما وفناجين شاي ثقيل جداً.

جاء اليوم الأخير عند بيتلنز. فوجئت أنطوانيت بالتأثّر يجتاحها لفكرة ترك هذا المكان، وأدركت أنها كانت سعيدة فيه. كان العمل شاقاً، لكنها استمتعت كثيراً أيضاً واتّخذت صديقات مخلصات. انقضى الوقت بسرعة فائقة مع كلّ هذا النشاط حتى أنها لم تكد تصدّق أن ثلاثة أشهر ونصف مضت. كان جميع الناس ينشطون، يوضبون حقائبهم، ويستعدّون للعودة إلى الحياة العادية.

- هل سنراك العام القادم؟ سألتها إحدى رفيقات سكنها.

- آمل ذلك.

- سيكون سنّك مقبولاً تقريباً، على كلّ حال، قالت أخرى بخبث. ولن نحتاج للتعارك مع الفتيان لإبعادهم عنكِ.

ضحكت أنطوانيت. فقد أحبّت أن تكون تميمتهن وشعرت بالأمان طيلة الصيف تحت حماية صديقاتها. تعانقن واتفقن على اللقاء في المكان عينه العام القادم، قبل أن يصعدن إلى متن الحافلات التي ستقلهن إلى وجهاتهن المختلفة. وفيما راحت حافلة المحطة تبتعد عن المخيم، لوّحت أنطوانيت لصديقاتها بحركات قوية، قبل أن تجلس في مقعدها. لم تكن تعرف ماذا يخبئ لها العام القادم وكانت متوترة من فكرة العودة إلى بيتها. عليها أن تتدبّر أمرها وتجد مكاناً تعيش فيه وتهتم بالدراسة. كان هذا بالأحرى مرعب.

لكنني سآتي ثانية العام القادم، إن استطعت، عاهدت نفسها. ولا أرى سبباً يحُول دون ذلك. لم يكن بمقدور أنطوانيت أن تعرف في هذا الأسبوع من بداية أيلول، أنّ حياتها ستتغير من جديد. وأنها قد لا تعمل موسماً آخر.

# 18

جلست أنطوانيت على إحدى الكراسي الخشبية خارج قاعة المقابلة. تحمل في حقيبة يدها ما يجب أن تدفعه لقاء فصلٍ دراسي.

أخيراً، بعد عامين من التوفير، إضافة إلى ما كسبته في أثناء الصيف عند بيتلنز، صار لديها ما يكفي لتحقيق حلمها. تساءلت وهي متوترة إن كانت سَتُقْبَل. أظهرت لها بطاقة تسجيلها قبولاً مبدئياً، لكن كلّ شيء يتوقف على المقابلة مع مديرة المدرسة السيدة إليوت.

بدأت هذا النهار باستبدال تسريحة شعرها المرفوع بتسريحة أكثر بساطة ووضعت مساحيق تجميل خفيفة. ثم ارتدت تنورة وكنزة من مشترياتها في بلاد الغال، آملةً أنها أحسنت الاختيار. كانت ترغب أن تتشبّه بالطلاب الآخرين.

حين كانت تنتظر دورها، شعرت أنها لفتت النظرات الفضولية لشخصين آخرين موجودين معها؛ فتاة من عمرها تقريباً وامرأة، يبدو أنها أمها. تلبسان ثياباً متشابهة مؤلفة من معطف نسائي معقود عند الخصر ياقته من الفراء وحذائين مطليين بالورنيش بكعب قصير متناسقين مع حقيبتي يدهما اللتين يمسكانهما بإحكام بيدين ترتديان قفازات جلدية.

بدتا مرتاحتين وميسورتين، وبدت الفتاة واثقة بإزاء المقابلة القادمة. نظرت إليهما أنطوانيت وهما تغادران حين نُودِيَ عليهما، وتمنَّت أن يكون عندها ولو ذرّة من ثقتهما.

إنها الأخيرة التي دُعيت إلى مكتب المديرة. ووجدت فيه امرأة مهيبة في الخمسينيات من عمرها، جالسة وراء مكتب.

كان طقمها الرمادي الداكن، وشعرها الكثيف بتصفيفة الكعكة المتقنة التي تبرز وجهها، يوحيان لأنطوانيت بصورة شخصية صارمة. بدت السيدة إليوت متفاجئة ثم مستاءة لرؤيتها مراهقة لا يرافقها أحد.

- أنتِ أنطوانيت ماغواير، أليس كذلك؟ أنتِ بمفردك؟ سألتها بلهجة جافة.

- أجل.

ولأن محاولة اختلاق أعذار ليست مُجدية، لم تُضف شيئاً.

نظرت إليها السيدة إليوت نظرة فضولية.

- لنرَ، في هذه المناسبات يحضر أحد الأبوين عادةً. إذا عرضنا عليك مكاناً، فإنني سأحتاج إلى التحدث عن التكاليف مع شخص ما.

كانت أنطوانيت تعرف أنّ هناك قائمة طويلة من الفتيات الراغبات بدخول هذه المدرسة المشهورة. وبإزاء تعبير السيدة إليوت المستهجَن، تملَّك أنطوانيت قلق من فكرة أنّ غياب أحد الأبوين قد يُلحق بها ضرراً أكثر ممّا تصورت. لكنها لم تمضي عامين في العمل والادّخار لتقبل الهزيمة بهذه البساطة.

انتصبت، ونظرت إلى السيدة إليوت في عينيها وأعلنت:

- أحمل نفقات التسجيل في حقيبة يدي. فأنا أدّخر منذ عامين.

ولبرهة، بدت المرأة الأكبر سناً في حيرة حقيقية. ثم لانَ وجهها المنتقد.

- إلى هذا الحدّ ترغبين أن تكوني سكرتيرة؟

فكّرت أنطوانيت أنها ستتغلب عليها إن قالت الحقيقة.

- لا، أريد شهادة مدرسية تثبت أنني تركت المدرسة في سن الثامنة عشر وليس في الرابعة عشر، كما هو الحال.

لم تكن ترى أيّ سبب لتجميل الحقائق، وهي متأكدة من أنّ السيدة إليوت ستكشف أيّ خدعة يوماً ما.

تساهلت السيدة إليوت بابتسامة خاطفة إزاء جرأة الفتاة الشابة.

- تفضلي بالجلوس.

جلست أنطوانيت بارتياح. كانت تعرف أنها قدَّمت نوعاً من الاختبار وسارت بقية المقابلة بسرعة وهدوء. ولم تكد تمضي بضع دقائق، كما بدا لها، حتى طلبت منها السيدة إليوت أن توقّع الاستمارات وتدفع الدفعة الأولى. ثم رحَّبت بها المديرة كطالبة في مدرسة بلفاست للسكرتاريا بمصافحة قصيرة.

استُقبلت أنطوانيت استقبالاً بارداً للغاية لدى عودتها من عند بيتلنز.

تجاهَلَها والدها، ممضياً وقتاً أطول من المعتاد خارج المنزل، وبدت أمها متحفِّظة، ولم تحدِّثها إلّا لتحثها على البحث عن مكان تعيش فيه.

- تعرفين ما اتفقنا عليه، يا أنطوانيت. يجب أن ترحلي. لم يعُد أبوك يريدك هنا. وأنت قادرة تماماً على إعالة نفسك.

وبما أنها حصلت على مكان في المدرسة، بدأت تبحث عن سكن. قبل ذلك، كانت ستجد صعوبة في العثور على شخص يؤجِّرها غرفة. أما الآن، فإنّ المؤجرات سيتساهلن معها خاصة أنّ بوسعها إثبات أنها طالبة وعليها إيجاد غرفة قريبة من المدرسة. وجدت على الفور تقريباً مكاناً شبه مناسب، عبارة عن غرفة مفروشة في منزل بحي الطلبة في مالون رود. لم يكن مكاناً مثالياً، لكن إيجاره رخيص، والمؤجِّرة مستعدة لتأجيره لها. يُضاف إلى ذلك أنه وسيلة للهرب من ذاك البيت الذي لم يعُد أحد على ما يبدو يرغب بوجودها فيه.

دفعت سلفة وقالت إنها ستُقيم فيه فوراً. ثم ذهبت لتوضّب أمتعتها. وبينما كان والداها خارجاً، هجرت بيت الحارس وحيدة ومن دون وداع.

قالت في سرِّها وهي تنزل السلالم مع حقيبتها أنّ عليها أن تشعر بالحزن. لكنها لم تشعر بشيء. على كلّ حال، لم تعد جودي موجودة لتحمل لها الدفء والحضور الحميم. لم يعُد يربطها شيء بهذا المكان.

أغلقت الباب وراءها، وظنَّت أنها لن تعود أبداً.

نهضت أنطوانيت باكراً في أول يوم من الفصل. تفحَّصت غرفتها الكئيبة والموكيت الذي اهترأ نقشه فلم يعُد بالإمكان تمييزه. كانت الغرفة مفروشة بتقتير، كرسيان خشبيان مخدوشان قرب منضدة

تالفة تماماً أيضاً وأريكة قديمة قرب النافذة. اشترت بعض الوسائد ذات الألوان الزاهية لتجعلها أكثر جمالاً ولكن رغم محاولاتها لكي تبدو الحجرة أكثر دفئاً، ظلّت كئيبة. مع ذلك، كانت تعرف أنّ الحظ حالفها لأنها وجدت مكاناً تسكن فيه. فالعديد من المؤجِّرات كنّ سيرفضن تأجير فتاة شابة بلا عمل، حتى ولو كانت طالبة. لكن السلفة الكبيرة أمّنت هذه الغرفة المتواضعة.

إنه نهارها الأول في المدرسة؛ اليوم ستبدأ التأهيل الذي سيُتيح لها أن تعيش حياةً جديدة.

تمطّت، ثم تدحرجت عن فراشها الممزّق وترنّحت، وهي لم تزَل متكاسلة، في الممرّ المؤدي إلى المطبخ المشترك. كانت قد استحمّت مساء أمس حتى لا تقف في الطابور أمام الحمام صباحاً مع المستأجرين الخمسة الآخرين الذين يشاركونها المنزل. خرج الآخرون جميعاً ليلة أمس واستطاعت أن تغذّي العداد بكمية من النقود، ثم تخبّطت على مهل في ماء حوض الاستحمام الخزفي دون أن تخشى إزعاج أحد.

في المطبخ، اشمأزّت من الفوضى التي تركها المستأجرون الآخرون: صحون وسخة مكدّسة بشكل أبراج في المجلى، أطعمة متجمّدة وصلبة، وبقايا عشاء تناوله أحدهم على عجل، ملتصقة على طاولة الفورميكا.

بحثت عبثاً عن فنجان نظيف. ثم زفرت تنهيدة وسحبت واحداً من الماء الوسخ وغسلته تحت الصنبور. وضعت الغلاية لتسخين الماء وبعض الخبز في المحمصة، وانتظرت فطورها وشعرت بوخزة حنين إلى بيت الحارس.

لكنها تذكّرت أن حنينها كان إلى تلك الحياة قبل أن يعود هو. أمّا الآن، فأنا بحالٍ أفضل هنا.

حين أصبح شايها وشطيرتها بالزبدة جاهزين، حملت فطورها إلى غرفتها. وأخيراً، ارتدت ملابسها وتناولت حقيبتها الجديدة التي تحوي كلّ الكتب اللازمة لدروسها.

كانت تفصلها عن المدرسة نصف ساعة من المشي، وبسبب انشغالها بتوفير مدّخراتها، قررت الذهاب سيراً على الأقدام. كان يوماً جميلاً من أيام الخريف، وارتفعت معنوياتها أثناء اجتيازها بلفاست.

شعرت أخيراً أنها تلك الطالبة التي أرادت أن تصيرها منذ وقت طويل للغاية.

أخذت أصابع أنطوانيت تنتقل برعونة على المراقن، وتطرق على ملامس معدنية سوداء أخفيت حروفها بلصاقات.

ركّزي، قالت لنفسها وهي تنظر إلى دفتر التمارين وتضع أصابعها على الملامس الصحيحة. أ، س، د، ف، تمتمت، ثم زلقت أصابعها على غ، ه، ج، ك، ثم ل. وتنّهدت. هل هناك حقاً أناس يُعَذَّبُون كل يوم على هذه الآلات؟ كيف ستستطيع أن تنجح في هذا؟ يبدو الأمر مستحيلاً، فكرت وهي تُعيد التمارين المخيبة عينها.

- ركّزي، يا أنطوانيت، قالت السيدة إليوت بلهجة قاسية كالفولاذ وهي تنتقل من مكتب إلى آخر، مراقبةً محاولات كلّ فتاة شابة. الدقة، وليس السرعة، هذا هو الهدف من الدرس، كرَّرت للمرة الألف.

بدت الآلة الكاتبة الصغيرة والقوية بلوحة مفاتيحها البارزة وملامسها التي أخفيت حروفها بلصاقات تسخر من أنطوانيت بينما تُرغم أصابعها على إيجاد إيقاعٍ ما. ومرَّت خمس وأربعون دقيقة أخرى.

كانت الشمس في الخارج ساطعة. وفي الداخل، ينكب عشرون رأساً يعلوها شعر مصفف بعناية، من دون أيّ تسريحة على شكل كعكة، على مهمتهم.

كانت تتحرك ثمان وثلاثون يداً بانتظام أمّا يدا أنطوانيت فأعطيتاها إحساساً بأن حجمهما تضاعفَ خلال الليل. وأصبحتا زوائد لا يمكن التحكّم بهما تنزل على الملامس وترفض الإذعان لها.

انتهت أخيراً حصّة الضرب على الآلة الكاتبة. تبعها درس عن الكتابة بالاختزال وحين فتحت أنطوانيت كتابها، نظرت بذهول إلى ما يشبه، بالنسبة لها، خربشات لا معنى لها.

كيف سأتعلّم كتابة هذا؟ قالت بيأس، وهي تحاول التحكّم بأحرف السيد بيتمان الغريبة المائلة مع نقطها وعقدها. كانت تعرف أنّ عليها النجاح في هذا.

كانت تحتاج إلى شهادة تثبت أنها مؤهلة للكتابة بالاختزال حتى تستطيع دخول سوق العمل وقد صمَّمت على أن تتسلح بنتائج الامتحانات حين ستبحث عن عمل في المرة القادمة.

بانتهاء الدرس الأول، ظنَّت أنها تستطيع البدء برسالة، عزيزي السيد سميث. . . وعلى العكس، ظلَّت مسألة إنهائها غامضة.

كانت الحصة الأخيرة قبل الغداء عبارة عن درس محاسبة، فاستطاعت الاسترخاء. لم تكن الأرقام تسبّب لها أي مشكلة، لأنه

سبق أن ترتَّب عليها أن تحسب ذهنياً قوائم الحساب في المقهى.

سُرَّت حين بدا لها أنها الوحيدة القادرة على ذلك، لكنها كبتت رغبتها في الابتسام. لم تكن تريد أن تلفت الانتباه إليها أو أن تضطرّ إلى شرح مصدر مؤهلاتها في الحساب الذهني.

كان يمكنها أن تُجيب بصدق أنها نتجت عن سنوات من العمل وإجراء حسابات عدد لا يحصى من الفواتير ذهنياً، لكنها لم ترغب بذلك.

استقبلت أنطوانيت بفرح استراحة الغداء. حين رأت بقية الفتيات يتجمّعن في مجموعات لتنظيم أمورهن، تناولت كتاباً وانطلقت على عجل إلى أقرب مقهى. لم ترغب بالاختلاط مع الطالبات الأخريات. لأنه سيترتب عليها عندئذٍ أن تجيب عن أسئلة عويصة كانت تفضّل تجنبها.

لن تستوعب الفتيات الأخريات حالتها ولا حقيقة أنها تعيش وحيدة في غرفة مفروشة. أمّا هي فلديها فكرة وافية عن منازلهن: أواني فضية فوق الصواني، سجّاد سميك على الأرض وألسنة لهب مستعرة في المدفأة؛ شموع عطرية وزهور، ومساءً، روائح طبخ زكية تفوح في الجو.

وعلى عكس أنطوانيت، لم تكن هؤلاء الفتيات تقلقن بشأن ثمن الطعام، ولا بشأن عدد القطع النقدية اللازمة للعدّاد ولا بشأن إمكانية دفع إيجارهن. ويمكن الرهان أنّ أياً منهن لم تكن تمشي حتى المدرسة لتوفر أجرة المسافة. لا، فأمهاتهن توصلهن إليها صباحاً في سيارة العائلة، وحين يرجعن، يستقبلهن أبوان ودودان، مهتمان بحمايتهن.

كانت تعرف نمط البيوت الأُسرية التي جئن منها. وخلال نزهاتها الليلية للهرب من العزلة الخانقة في غرفتها، كانت تتسكّع في الأحياء البرجوازية الصغيرة والمتوسطة في بلفاست وتمرّ من أمام بيوت يعيش فيها أناس مثل رفيقاتها في الصف. ومن خلال النوافذ البانورامية الكبيرة، كانت تلمح عائلات جالسة لتتناقش، أو إنارة لطيفة تسقط هالة ضوء على أناس مجتمعين حول مائدة الطعام، منهمكين بتناول عشائهم، ومفتونين بعضهم ببعض.

كانت الفتيات المتحدّرات من هنا يتمتّعن برونق تضفيه عليهن حياة سهلة. وكانت تعرف التأمين الذي يحميهن. حياة هؤلاء الشباب مخططة سلفاً: بالنسبة إلى الفتيان، بعد الجامعة وظيفة مرموقة؛ وبالنسبة إلى شقيقاتهم، عمل محترم لا مشقّة فيه قبل أن يتزوّجن وينذرن أنفسهن جسداً وروحاً لأسرتهن.

وطيلة غدائها، راحت تفكّر بسكنها المؤقت الكئيب: المطبخ المشترك وأكداسه الدائمة من الأواني الوسخة، والمراحيض التي تضطرها كلّ مرة لإحضار المناديل الورقية الخاصة بها، وحجرة الحمام المشتركة ذات الحوض المتشقّق.

تخيّلت آثار القذارة على ارتفاع القامة التي تركها المستأجرون المنشغلون عن تنظيف مثل هذه البقعة التافهة. شعرت بخواء في داخلها وهي تتصوّر غرفتها المقفرة وكم تبدو عارية من دون كلبتها لتستقبلها. وكادت موجة عزلة تبتلعها.

طردت هذا الإحساس واستبدلته بصورة أخرى. ها هي متبرجة، شعرها يلمع وأظافرها مطلية بمهارة، يُملي عليها موظف أنيق في مكتب عصري نصاً. رأت نفسها تخرج، وبيدها دفتر مذكرات،

وتجلس أمام آلة كاتبة إلكترونية جديدة تماماً، من دون لصاقات تخفي أحرف الملامس. رأت يديها تتحركان بسرعة وهي تكتب الرسالة دون أن ترتكب خطأً واحداً، وتسلّمها لمديرها كي يوقّعها فتسمعه يقول بابتسامة امتنان: «لا أعلم ماذا كانت هذه الشركة ستفعل من دونك».

استمرّ حلم اليقظة هذا مع فنجان القهوة الثاني وظلّ يموج في رأسها حين عادت إلى المدرسة.

جاءت نهاية الفصل، ومعها، الامتحانات الأولى. وجدت أنطوانيت التأهيل مملاً وقرّرت سلفاً المغادرة وإيجاد عمل. وحتى لو لم تُنهي العام، ستنال شهادة تُثبت أنها تركت المدرسة في السابعة عشر من عمرها، وتعرف الضرب على الآلة الكاتبة، وتُجيد أسس المحاسبة وتتدبّر أمرها في الكتابة بالاختزال.

قالت في سرَّها أن هذا سيكفي لتحصل على مقابلة. أرادت بشكلٍ خاص أن تعمل، وتتقاضى أجراً وتترك الغرفة المفروشة. فالعزلة التي تشعر بها تقتلها. لم تتّخذ أي صديقة في المدرسة، فضلاً عن أنها لم تسعَ لذلك. بدا لها أمراً حيوياً أن تنعزل. حاولت أن تحتفظ بكلّ شيء لنفسها وألّا تركّز إلّا على المستقبل الذي سيكون أفضل بكلّ تأكيد.

في نهاية الفصل، قدّمت امتحاناتها وتركت المدرسة عن طيب خاطر. لم تأسف على ذلك، مع أنها حلمت بها وقتاً طويلاً للغاية. تزوّدت بشهادات مؤهلاتها وبرسالة شخصية من السيدة إليوت، وانطلقت بحثاً عن وظيفة وسرعان ما وجدت عملاً كمضيفة استقبال في صالون حلاقة صغير.

لم يكن العمل صعباً وكان المكان بالأحرى مضيافاً. ولم تكن عاملاته يشبهن الشابات البورجوازيات المنعَّمات في المدرسة؛ وبالأحرى كنّ يشبهن الفتيات اللواتي كانت تخرج معهن للرقص. بالمقابل، ستجد صعوبة في أن تعقد صداقة معهن.

حين كانت تخرج للرقص، كانت عدّة أقداح تعزِّز ثقتها، الأمر الذي لم تكُن تُبيحه لنفسها أثناء النهار، ومن دون الجرأة الاصطناعية التي يعطيها الكحول، كانت ثقتها بنفسها تنهار. وبما أنها لم تنجح في المشاركة بالمزاح الخفيف للمتأنقات، أولئك اللاتي وجدنها متحفِّظة، وبعد بضعة محاولات للتودّد لها، تجاهلنها.

أسلوب منحرف، هذا ما كانت تريده. فحين كانت ترغب بصداقة شابات أخريات، كانت فكرة السماح لأيّ شخص بالاقتراب منها تجمِّدها. أما زميلاتها فربما كن يتساهلن، أو حتى يقدّرن، فتاةً تدّعي أنها تخرّجت من مدرسة السكرتاريا وتتحدث بنبرة برجوازية، ولكنهن سيتجنَّبنها تماماً لو اكتشفن ماضيها.

كان جميع الناس يظنون أنها تعيش في كنف أبويها ولم تكن تنوي أن تخبرهم يوماً بحقيقة وضعها.

لكنها لا تستطيع مغادرة الغرفة قبل أن تضخّم مدّخراتها، التي استنفدتها عملياً في المبالغ المدفوعة من أجل تأهيلها ولتلبية احتياجاتها من دون عمل.

# 19

لم تكن أنطوانيت ترغب في أن تفتح عينيها. حسبها أنها قامت بمحاولة أولية فاكتشفت أنّ ضوء النهار يؤذيهما، لكن حاجتها للذهاب إلى المراحيض أصبحت ملحّة. أخرجت ساقيها مرغَمة من السرير ووضعت قدميها المرتجفتين على الموكيت الرقيق الذي يغطي أرضية غرفة نومها.

حين نهضت، دارت الغرفة واضطرّت أن تضع يديها على الجدار لتتوازن. مشت مترنحة حتى الباب ثم في الممر البارد.

أصبحت ساقاها ثقيلتين في أثناء الليل واجتازت مترنحة الخطوات القليلة التي تفصلها عن حجرة الحمام. وهناك نظرت إلى نفسها في المرآة. حدّق فيها وجه كالح، لا تظهر منه سوى بقعتين حمراوتين لامعتين على وجنتيها.

شعرت بألم في حلقها، وقلبها يخفق في صدرها، وكل جسدها يؤلمها.

كانت تعرف أنها مصابة بالحمى وشعرت بالدموع تحرق عينيها وهي تتحسّر على غرفتها في بيت الحارس. حين أصيبت قبل عام بنوبة مشابهة، أحضرت لها أمها فناجين الشاي ووجبات لذيذة خاصة

لتفتح شهيتها. وهي تستعيد هذه الذكرى، كادت أنطوانيت تشعر بيدي أمها المواسيتان وهما تُبعدان بحنان شعرها الرطب من التعرق عن وجهها. وحين كانت روث تعود من عملها مساءً، كانت تركِّز الوسائد لأنطوانيت وتعدّ لها عشاءً تأكله على صينية تضعها فوق ركبتيها. وبعد أن تنهي أنطوانيت وجبتها تتكوّر لتنام وتزيح روث بحنان فوقها أغطية صوفية ناعمة ترفعها حتى كتفيها.

كان هذا قبل أن يعود هو. في وقت كانت فيه روث تستطيع أن تُظهر لها الحب الأمومي المتعطّشة له. كأنّ مرضها أعطى روث إحساساً بأنها مفيدة أمام ابنتها العاجزة، وأيقظ فيها عطفاً قلّما تركته يظهر. استمتعت أنطوانيت بهذا الشعور مبتسمةً لأمها بامتنان وهي راقدة في فراشها الوثير.

وها هي الطفلة التي كانتها تُبعث ثانيةً الآن في أثناء مرضها، وتودّ لو تتشبث بيد أمها كما كانت تفعل قبل عشر سنوات.

هذا السيل من الذكريات أثار فيها رغبة مجنونة لأن تكون هناك وتشعر ثانية أنها محبوبة ومحميّة.

كانت ماما ستضعني في سريري القديم. وستدعني أنام، وستحضر لي فناجين الشاي، وستسخن لي حساء البندورة وترفقه بشرائح خبز رقيقة وزبدة. مثل هذا النظام الغذائي للمرضى سيُعيد لها عافيتها بسرعة. وبعد ذلك، حين ستسترد ما يكفي من القوة لتجازف وتنزل إلى الأسفل، ولكن ليس لتخرج من المنزل، ستتدثّر بثوب النوم الوردي القديم كأنه شرنقة وتجلس أمام المدفأة.

وهناك، ستشاهد برامجها المفضلة في التلفاز، وهي تضع قدميها على الطاولة الدائرية الصغيرة المنجدة.

أضنتها حاجتها لرؤية أمها ولأن تدلّلها كما في الماضي. حسبها أن تفكر في حياتها في بيت الحارس، وروث تعتني بها، لتصبح أفضل حالاً. استبعدت تماماً صورة والدها، وغضبه عليها وغيرته من أيّ اهتمام تغدقه أمها عليها.

- هل بوسعي أن أعود؟ تساءلت. فقط هذه المرة.

لم ترجع إلى هناك سوى مرة أو مرتين منذ أن انتقلت إلى الغرفة المفروشة، وفقط حين تتأكّد من غياب والدها. فقد سجلت ملاحظات عن مواعيد والديها، ولم تذهب إلى هناك إلّا حين تعلم أنها لن تصادف سوى أمها. كانت روث تبدو عندئذٍ سعيدة برؤيتها وأعطَتها بعض المؤن لتأخذها إلى بيتها.

طردت بعض الشكوك التي تساورها، مدركةً أنّ روث ستكون هناك هذا الصباح ووالدها في العمل. حملتها على ذلك حاجتها المطلقة للعودة إلى الطفولة.

ارتدت أنطوانيت ملابسها بسرعة، وألقت منامتها وثيابها الداخلية في حقيبة ومشت حتى موقف الحافلة، وحرارتها لم تزل كاوية بسبب الحمى. غفت في أثناء المسافة القصيرة، حتى أنزلتها الحافلة عملياً أمام عتبة البيت. وهي تشدّ على حقيبتها الصغيرة بيدها، مشت مترنحة حتى باب المدخل، ثم تذكرت أنها لم تعُد تحمل المفتاح. فقد تركته حين غادرت إلى بيتلنز، مثلما طلب منها والدها. طرقت الباب، ثم اتكأت على الجدار كي تقاوم حالات الدوار التي توشك أن تطرحها أرضاً.

سمعت صوت خطى، ثم صرير المفتاح يدور في القفل. فُتِحَ

الباب وواجهتها أمها في المدخل. ابتسمت ابتسامة قلقة، لكن عينيها لم تُبديا أيّ تعبير.

- حبيبتي، ما هذه المفاجأة السارة. لماذا لستِ في العمل؟

- صحّتي ليست جيدة.

ولم تكَد تنطق بهذه الكلمات حتى طفرت دموع العجز من عينيها وسالت على وجنتيها الحمراوين.

- ادخلي، حبيبتي، بسرعة.

أدخلتها أمها بسرعة بعيداً عن نظرات الجيران الفضولية. روث الحريصة من الأقاويل وعلى المظاهر، أرادت طبعاً أن تتجنّب أي تساؤل محتمل عن سبب بكاء أنطوانيت على العتبة. وأغلقت الباب.

- أحتاج أن أتمدّد. هل بوسعي الذهاب إلى غرفتي؟

وهي تبدأ بهذه الكلمات، لاحظت تردّد أمها. رقَّ صوت روث:

- أنطوانيت، ماذا حلَّ بكِ؟

لمست لمساً خفيفاً جبين ابنتها.

- ولكن حرارتك مرتفعة جداً. حسناً يا حبيبتي، لا يزال سريرك جاهزاً. اذهبي ونامي وسأحضر لك فنجاناً من الشاي.

شعرت عندئذٍ أنها محبوبة ومحميّة لأول مرة منذ أشهر. كانت قد اندسّت في سريرها القديم حين دخلت أمها، وأسدلت الستائر، ووضعت الشاي قرب السرير وقبّلتها برقّة على رأسها.

- سأتصل في العمل لأخبرهم أنني سأتأخر. ارتاحي الآن.

ولم تكَد تغلق الباب وراءها، حتى غطّت أنطوانيت في نوم

مضطرب. وحين استيقظت بعد عدة ساعات، تساءلت لبرهة عن مكان وجودها. وهي مشوشة، حدقت في الظلمة قبل أن تدرك أنها عادت إلى غرفتها في بيت الحارس. أيقظها أمرٌ ما فانتصبت فوق وسائدها. أخذ صخب أصوات قوية يتسلّل عبر النافذة، وهذا ما أزعجها. ميّزت نبرة والدها الحادة وأخافها الغيظ الذي يعتمل في داخلها. لم تميّز ما يُقال لكنها تعرف أن أباها غاضب وأنها هي السبب. كان صوت أمها الفائق الرقة يوحي أنها تحاول تهدئته. ماذا يفعلون في الخارج، تساءلت أنطوانيت، مشغولة البال. ظلَّ نفور أمها من إظهار أيّ نزاع على الملأ يمنع كلّ خلاف خارج المنزل. ومثلما فعلت أنطوانيت في أحيان كثيرة عندما كانت صغيرة، انزلقت في فراشها وسحبت الأغطية فوق أذنيها. وما دامت لم تستطع سماعهما، فربما لأنهما اختفيا. وعلى أية حال، التقطت قرقعة على درجات السلم، تبعتها خطوات أمها المكتومة التي دخلت إلى الغرفة. وبشكل غريزي تظاهرت أنطوانيت أنها نائمة. لمست يد أمها كتفها بشكلٍ خفيف، ثم سمعت الكلمات التي تخشاها.

- أنت مستيقظة؟ يجب أن تنهضي. يقول والدك إنّ عليك المغادرة.

فتحت أنطوانيت عينيها قليلاً وتمعّنت في وجه أمها، آملةً أن تقرأ فيه، لمرة واحدة، أنها لن تطيع زوجها. عبَرَ وجه روث وميض شعور بالذنب، وسرعان ما حلَّ مكانه حزم لا ريب فيه.

- يرفض أن يعود إلى المنزل طالما لم تغادري. قال إنك تركتِ البيت ولا يمكنك أن ترجعي متى يحلو لك. عليكِ أن تتدبري أمرك لوحدك.

تخلّى صوت روث عن نبراته المتنازلة الاعتيادية لصالح لهجة متوسلة نوعاً ما.

بحثت أنطوانيت عن الاهتمام الذي أظهرته أمها لها من قبل، آملةً أن ترى تعبيراً رقيقاً يدلّ على أنها مستعدّة للتجاوب معها. لكن اختفى كلّ أثر لانشغالها، وحلّت مكانه هيئة شهيدة. مرة أخرى أيضاً، ظلت روث المرأة التي لا تتحمّل إطلاقاً أية مسؤولية، وإنما تلقي صراحةً باللائمة في كلّ مصائبها على كاهل الآخرين. وصار واضحاً اليوم أنّ اللوم يقع على أنطوانيت. ولأنّ أنطوانيت أشد مرضاً من أن تواجه أمها، أو حتى أن تعارضها، جرجرت نفسها من الفراش، وارتدت ملابسها وتناولت حقيبتها. وفيما بعد، حين ستحاول أن تتذكر هذه الليلة، لن تقوى على ذلك. ستتذكر ببساطة أنها غادرت.

# 20

ابتدأ ذلك بآلام في الرأس.

في الصباح الباكر، أيقظها الألم. أحسَّت أنّ رأسها يُعْتَصَرُ في ملزمة يدٍ عملاقة. تراءت لها أصابع تخترق بقسوة جلد رأسها، وتمسك قذالها قبل أن تعصرها حتى يستقرّ الألم خلف عينيها، فتشوّه الرؤية لديها.

وخلال النهار، حين توقفت آلام رأسها، أحسّت بالخمول، وبتثاقل أعضائها. كان دماغها يرفض أن يعمل. لم تقوَ على التركيز، وانمحت أنواع الكتب التي كانت تحمل لها السلوى فيما مضى حتى صار يصعب عليها قراءة المقالات القصيرة في المجلات. نحتها جانباً بإعياء.

منذ عودتها إلى غرفتها المفروشة، أدركت وهي تسعى إلى النوم أنها لن تجد أيّ راحة. كان قلقها وعزلتها وشعورها بالذنب يفسدون أحلامها، وحوّلوا لياليها إلى عذاب حقيقي.

كانت محرومة من الراحة، ومرميّة في أماكن مظلمة تطاردها الشياطين فيها.

كان يعتريها أحياناً إحساسٌ أنها تسقط، وأثناء كابوسها، تشعر

أنّ جسدها يقوم بحركات بهلوانية في محاولة يائسة ليوقف سقوطه. وحين تستيقظ مذعورة دوماً، يخفق قلبها بشدة. كان أيّ صوت مفاجئ ينبِّهها وكان ذهنها مرهقاً من العزلة.

ثم يأتي الحلم؛ كلّ ليلة، أفظع من الليالي التي سبقتها حتى إنها تضطر للاستيقاظ.

ثم تنتظر أن يبزغ الفجر، وهي عازمة على استبعاد النوم، من فرط خشيتها أن يعاودها الحلم بمجرّد أن تغمض عينيها. كان الكابوس يحملها إلى غابة تنمو فيها أشجار باسقة بكثافة وتغطي أوراقها السماء وتحجب ضوء القمر.

تفتش يائسةً عن مخرجٍ بينما الأغصان المبتلّة تصفع وجهها، ونباتات متعرِّشة دبقَة تلتفّ حول ساقيها وقدميها كالأفاعي، وتوقف ركضها التائه.

كان إحساسها أنها وقعت في فخٍّ أمراً مرعباً ويبدو لها أنّ مخلوقات تختبئ في غياهب الغابة. تشعر بعداوة يتطاير شرَرها من عينين غير مرئيتين تتربصان بها وتعرف بشكل أو بآخر أن أباها موجود هناك. تكتشف وجوده المبهم يراقبها ويسخر من محاولاتها الخجولة للهرب.

وهي لا تستطيع الرؤية في ظلمات الغابة الباردة، يعتريها يقين وحيد هو أنها مذعورة وتائهة.

وفجأة، تظهر تحت قدميها هاوية سحيقة فتشعر أنها تسقط، وأن قوة أعتى من إرادتها تمتصها.

تحاول أن تتشبّث بجدران الهاوية حتى لا تسقط، لكن يديها لا تمسكان إلّا فراغاً رطباً وبارداً. وهي عاجزة عن التحكّم بأيّ شيء، تتهاوى بلا تبصّر عبر الأعماق نحو مكان مرعب.

كانت تعرف أنها نائمة وتكافح لتستردّ وعيها، ولكن ليس قبل أن تمزّق صرخة مكتومة حنجرتها حين تغرق في الظلمات. كانت تصدر مواءً عاجزاً حين ينفجر ذعرها ويحررها. فتستيقظ متعرّقة ولاهثة، وهي لا تزال مكروبة ومرتاعة، بينما الكابوس يتلاشى.

كانت تعرف أنه يلزمها بضع ثوانٍ أخرى لتنسحق في قاعِ الهاوية المخيفة. ومن حولها أصبحت الأغطية متداخلة من فرط تخبّطها وذراعاها مشتّتان في كلّ الاتجاهات.

بعد استيقاظها، لم تكُن تفلح في عقلنة هذا الحدس بكارثة وشيكة، ويتملّكها اليأس لأنها لم تزل على قيد الحياة.

تقرّب معصميها من وجهها، وتلاحظ الندوب القديمة منذ عامين. وليلة بعد ليلة، راحت تتأمل الخطوط الزرقاء الناعمة التي تجري تماماً تحت الجلد وتتخيل أنّ شفرة تقطعهم من جديد.

تخيّلت أنها تبتلع مئات الحبات من الأسبرين كما في الماضي، ثم تتذكر الغثيان الذي أرهق جسدها لساعات بعد سحب جهاز تنظير المعدة. ولم يزل بمقدورها الإحساس بطعم العصارة الصفراء التي أحرقَت معدتها.

وحين كانت تفلح في النوم بعد كابوسها، كانت تستيقظ عندئذٍ في الساعة الرابعة والنصف بالضبط.

كأن روحاً خبيثة وضعت منبِّهاً. فالوقت مبكر جداً على النهوض.

تتكور عندئذٍ على نفسها، وتصارع لئلا تغرق ثانية في النوم وحتى تبعد أحلامها. وبينما يغلبها النعاس، تتسلّل إلى ذهنها صور والديها التي لم تعُد ترغب بها. ثم تفكر بعائلتها الإيرلندية الكبيرة التي احتقرتها وبسكان مدينتها الذين نبذوها.

تحاول أن تطرد التفكير بديريك، ونفوره حين عرف حقيقتها. بدَت لها ردّة فعله تجسيداً لردّة فعل الناس الذين كانت تخفي عنهم حقيقة ماضيها.

أخذ عالم أنطوانيت يضيق.

ولأنها أضعف من أن تذهب إلى العمل، اتّصلت لتخبرهم أنها مريضة. بالتأكيد هي مريضة، حتى لو لم يكن لديها أدنى فكرة عن الخَلل فيها. يقينها الوحيد هو أنّ العالم أصبح مكاناً مرعباً.

حين غامرت وخرجت، صدع ضجيج حركة السير رأسها وأرادت أن تحمي أذنيها بيديها حتى لا تسمعه. جعلها اجتياز الشارع تنضح عرقاً بارداً؛ وبدت كلّ سيارة أنها عازمة على دهسها، والمرور فوق جسدها وتقطيعها. وأحدثت موجات من الذعر ارتعاشاً في ساقيها حتى إنهما كادتا ترفضان التجاوب معها بينما هي تقف متردّدة فوق الرصيف. تطلبت منها كل خطوة إرادة عاتية.

صار الدخول إلى أيّ متجر مرعباً، لأنها راحت تقرأ العداء على جميع الوجوه. وإذا صمت الزبائن الآخرون، فهي تعرف أنّ سبب ذلك هو أنهم توقفوا للتو عن التحدث عنها. ولأنها لا تستطيع النظر في عيونهم، تتمتم بطلبها وتنسلّ ضامّة مشترياتها إلى صدرها. كانت متأكدة من أنها السبب في أيّ ضحكة تسمعها والباعث على صيحات السخرية والاستهزاء التي تتبعها خارج المتجر وتطاردها في الشارع.

وحين تعود إلى غرفتها المفروشة، تصعد السلالم خلسة، وهي تتضرّع أن تكون أبواب بقية المستأجرين مغلقة. كانت تسمع من وراء هذه الأبواب وشوشات أخرى، فتنزوي في غرفتها بعيداً عن الأصوات العدوانية.

وعندما يترتّب عليها أن تغادر، تضع رأسها على الباب وتصغي، راصدةً أية إشارة للحياة في المنزل. صنبور ماء يجري، أو مياه المرحاض وقرقعة على درجات السلم أو خطى مكتومة، كلّ هذه الأصوات تنذرها أنّ الخروج غير آمن. وحين تتأكد أنه لا يوجد أحد، حينها فقط، تستجمع شجاعتها لتغادر.

في عطلة نهاية الأسبوع، سمعت ضحكات على السلم، وضجيج أبواب تنفتح وموسيقى تصدح بقوة فتَعَكَّرَ صفوها. أدخلت أصابعها في أذنيها لتمنع الأصوات غير المرغوبة التي تتسرب من تحت بابها وتدخل إلى غرفتها. لم يزل عالمها يضيق باضطراد ولم تعُد تغادر غرفتها تقريباً.

ليس مطروحاً الآن مسألة عودتها إلى العمل، لكن صحّتها لم تتحسّن بما يكفي لتقلق بشأن دفع الإيجار. بقي معها بعض المدّخرات لكن يستحيل عليها أن تتأخر عن عملها حين تنفد تلك المدخرات.

أصبحت معزولة تماماً، في مهبّ الريح، ووجدت مفرّها الوحيد من هذا الاكتئاب الملازِم لها في الجرعات التي تسرقها من زجاجة الفودكا السرية. السلوى الأخيرة المتاحة لها.

انتهت تمثيلية الأسرة السعيدة التي قادتها روث لسنواتٍ كثيرة. ولم تعُد أنطوانيت تقوى على لعب دورها وقتاً أطول. ولا تستطيع مسايرة أمها في فنتازيا الأسرة الطبيعية، ولم يعد هنالك أيّ سلطة للكذبة المطمئنة التي أحبَّتها ورغبت بها لأنها تعتبرها بمثابة فتاة عادية. ومنذ المساء الذي ألقتها فيه أمها خارجاً، مريضةً ووحيدةً، اخترقت هذه الحقيقة القاسية أخيراً دفاعاتها ولم تعُد قادرة على مجابهتها.

تجتاح ذهنها الآن سوداوية قاتمة ولدت من الفهم الذي غذّته طيلة حياتها بالنفاق واليأس.

لماذا لا يسعها أن تفرح لأنّ والديها لم يعودا يريدانها في حياتهما؟ أليست متحرِّرة منهما الآن؟ لكن أنطوانيت أذعنت زمناً أطول من أن تتعلّم بسببه الاستقلال. فأيّ كلب يُداس لمدة أعوام سيموت إنْ ألقوه في الشارع واضطرّ أن يتدبر أمره لوحده. سينكمش على نفسه في الزوايا ولن يثقَ بأحد آملاً في الوقت ذاته بالقليل من العطف. والشعور الوحيد الذي سيظلّ مجهولاً له هو السلوى بإزاء حريته.

لم تكن أنطوانيت قادرة على طلب المساعدة؛ فهي أشدّ مرضاً من أن تعي حاجتها لها. الآن، انفتحت من جديد أدراج ذهنها الموصدة على ذكرياتها، وأفرغت حقيقة حياتها القصيرة. سمعت كلّ المحيطين بها يهمسون: يلومونها ويسخرون منها، ويقولون لها أنه لا أحدَ يحبها، ولن يحبّها أحد أبداً. ويأمرونها أن تتوارى.

يشلّها الخوف من الغرق ثانية في كوابيسها، فتحاول تجنّب النوم، متكورة في فراشها، وهي تفتش بنظرها الحجرة المُضاءة لتلمح التهديدات اللابدة في الظلّ إلى أن ينهكها التعب الذي يُغرقها.

وحين تستيقظ عند الفجر، يتحوّل شدو عصفور يستقبل النهار إلى صوت ناشز يرنّ في رأسها.

تظلّ مستلقية، صامتة، تشدّ الأغطية، وجسدها يرتعش من التشنجات، بينما دموعها، المتأهبة على الدوام، تسيل على طول وجنتيها.

ثم، جاء الصباح فتطلّب منها حتى الخروج من فراشها جهوداً مضنية. تكوّرت على نفسها، وإبهامها في فمها، ترتعش بأنين، وفقدت القدرة على الحراك.

تجتاح أصوات لا مادية غرفتها؛ تدوّم فوق رأسها وتتطاير في الفضاء. ولو أنها احتفظت بعينيها مغمضتين وامتنعت عن رؤية مَن تخص، لاختفت فوراً. اتخذت الكلمات شكلاً وشقّت طريقاً إلى ذهنها، لكنها ظلّت تسعى إلى طردها.

- افتحي عينيك، يا أنطوانيت. هل تسمعينني؟

ميّزت صوت المؤجّرة لكنها ازدادت تكوراً، وهي غير راغبة أن يزعجها أحد. سمِعَتْ صوت خطى تدلّ على مغادرتها. حين رنّت الأصوات من جديد، بدا لها أنّ غياب المؤجرة لم يستغرق إلّا برهة وجيزة.

- ماذا حصل لها، يا دكتور؟ لا أستطيع إيقاظها.

ثم تحدَّث صوت آخر.

- أنطوانيت، أنا طبيب. نحن هنا لنساعدك. لا شيء يدعو للخوف. نحن هنا لنساعدك، كرّر بلطف.

لم تبدِ أيّ استجابة. شعرت بيدٍ توضع على وجهها وأصابع تفتح جفنيها.

تبيَّنت وجوهاً، وجوه أعدائها تحدّق فيها. فصرخت أنطوانيت من دون توقف.

شعرت بوخزة خاطفة سريعة بينما تنغرز إبرة في ذراعها. ثم، وخلال ثوانٍ، اختفى كلّ إحساس.

# 21

حاولتُ دون جدوى، ولم أفلح في التخلص من هذه الذكريات. وبينما كنتُ أمكث في الضوء الباهت، شعرتُ بوجود أبي المرعب إلى جانبي في الغرفة، الرجل الذي اعتمد طيلة حياته على الإكراه، ولم يعتمد قط على المنطق والعقل.

لم أصل إلى هنا إلّا في صبيحة اليوم التالي لوفاته، إلى بيته الصغير المشترك المبيّض بالكلس في وسط لارن. كان قد انتقل إليه بعد وفاة أمي بوقت قصير. وفي أثناء اضطرابي، باع المنزل الذي تقاسمناه والذي طالما أحبّته قبيل وفاتها ببضعة أسابيع.

فتحتُ الباب وولجتُ مدخلاً بلا نافذة.

واجهتني السلالم ذات الموكيت القاتم ناصل اللون لكنني لم أرغب بدخول حجرات الطابق الثاني. فضّلت أن أفتح الباب المطلّ على الصالون.

أمام تلفاز كبير ثمة أريكة بمقعدين ذات لون نبيذي باهت وأذرع مهترئة ونوابض تكاد تخرج من مساندها الممزقة. ماذا فعل بالأريكة التي غطتها أمي بجهد جهيد بقماش شينتز جميل؟

حتى الوسائد العديدة المغلفة بنسيجٍ تُوشّيه الصور، التي وزعتها

بشكل فني على كل مقعد، اختفت. وثمة ساعة حائط يُرثى لها عُلقتْ على جدار المدفأة، وعوضاً عن التماثيل الصغيرة الناعمة الزرقاء والبيضاء المصنوعة من بورسلان ساكس التي كانت تعشقها أمي، وُضعت زينة وحيدة لقطٍّ متوحش من البورسلان اللامع، وقد كتبَ على قاعدته بلد المنشأ بأحرف من أبجدية مجهولة.

وحلت مكان نار الحطب مدفأة غاز عصرية مرعبة، وفي الركن قرب مدفأة الحطب، رفوف خشبية لا تحتوي الكتب التي كانت أمي تحبّ رؤيتها عليها، وإنما مجموعة تذكارات جو في الرقص. وثمة صورة فوتوغرافية صغيرة وُضعَت بشكل لا يليق بطلائها المذهّب البرّاق، وقد أزيل الغبار عنها بالكامل. إنها صورة أنطوانيت في عمر ثلاث سنوات ترتدي ثوب فيشي صنعته لها أمها قبل أعوام من ذلك. كان قد أخرجها من إطارها الفضي وترك أطرافها تنحني. أَخَذْتُها ووَضَعْتُها في محفظتي.

ارتحتُ لأن هذا المنزل الصغير الفاقد لكلّ سحر لا يحتوي إلّا النزر اليسير من الذكريات عني.

ومع أنه سبق لي أن جئتُ مرةً، لكنني لم ألاحظ حينئذٍ أنه لم يتبقَّ شيء تقريباً من حياة أبي مع أمي. وحتى لم تكن توجد صورة لها. كأنه بموتها محا حتى ذكراها.

أردتُ أن أخلص المنزل من الروائح العفنة العابقة في الهواء، ففتحتُ النوافذ رغم البرد الذي دخل. أشعلتُ سيجارة وتنشّقتُ بعمق، آملةً أن أطرد رائحة المنزل الخانقة.

كان حاضراً في كلّ مكان: خفٌّ مهترئ قرب أريكة أبلى الاستخدام لمعانها، وحيث يضع رأسه على مسندها الملطخ ببقعة

دهنية. منفضة فوق طاولة واطئة وُضعت على شرف زيارتي الوحيدة قبل بضعة أشهر، ولم تزل في مكانها. كان قد تغلّب على إدمانه التدخين حين أصبح في الستين من عمره. أمّا إدماني فقد بدأته حين تركت منزل أهلي.

تساءلتُ عن معنى وجود المنفضة. هل أمل أن أزوره من جديد، وقد غفرتُ له؟ هل كان يعتقد حقاً أنه أساء إساءةً طفيفة وأن أنانيتي وحدها هي ما أبعدتني عنه؟ هل كان يستطيع أن يكذب على نفسه إلى هذا الحدّ؟ ليس لدي إجابات عن هذه الأسئلة ولن أستطيع البتة أن أطرحها عليه الآن، لهذا هززتُ كتفي. لقد رفضت منذ أعوام أن أفهم كيف يشتغل ذهن أبي.

في المطبخ، فنجان وحيد وصحنه ينتظران فوق رفّ شبكي وقميص بلون سكري مكوي حديثاً يتدلى من علاقة ملابس معدنية قرب الباب، كأنّ أبي سيعود ويرتديه في أيّ لحظة.

نفقت حيوانات أهلي -كلب لابرادو ضخم ولطيف وقطتان- قبل موت أمي بسنوات ويبدو أن غيابهم عزّز جَوّ الكآبة في المنزل.

أتذكَّر الحب الذي كان أبي وأمي يكنّانه لهم، ومرة أخرى أيضاً طردتُ السؤال: إذا كانا قادرين أن يشعرا بالحب وحتى العطف على مخلوقات ذات الأربع قوائم، فلماذا كانت عواطفهما نحوي شحيحة إلى هذا الحدّ؟

على الطرف الآخر للباب الخلفي، ألقيتُ نظرة على الحديقة المهمَلَة قبل أن أعود على أعقابي، وكدتُ أتعثّر بعصي الغولف الخاصة بأبي. شعرتُ بسحب سوداء من الحزن تلقي ثقلها من جديد على كاهلي فطردتها بحزم.

- تباً لكِ يا توني، قلتُ في سري بنفاد صبر، إنه ميتٌ الآن. اهتمّي بفرز أوراقه وسيكون بوسعك العودة إلى إنجلترا.

أجبرتُ نفسي على تسخين الماء في الغلاية لإعداد فنجان شاي، لكن ليس قبل أن أعقِّم الفنجان بماء مغلي. لم أكن أريد أن أضع شفتي حيث وضع شفتيه. ثم استجمعتُ قواي وانهمكتُ في إنجاز ما جئتُ لأجله.

كانت المهمة الأولى هي الأصعب. وجدتُ في درج المكتب دفتراً بوَّبَت أمي عليه حسابات المنزل. وقد ملأته بدقّة مفرطة بخطِّها الناعم المتقَن، كان تقريراً يومياً عن حياة متقشِّفة. وإلى جانبه كشوفات مصرفية.

كان أبي رجلاً مقتصداً وشحيح الإنفاق. تضمّنت الحسابات مبلغاً أكبر ممّا توقعتُ بكثير. أظهر لي كشفٌ آخر أنّ مبالغ كبيرة أودعتْ، ما عدا معاشه التقاعدي الشهري. أحد هذه المبالغ جاء من بيع المنزل الأكبر الذي يخصّ والديّ والمبالغ الأخرى جاءت من بيع جميع مقتنيات أمي الأثرية التي جمعتها أمي بعناية خلال زواجهما. لقد عشقت مجموعتها من البورسلان والتحف التي عثرت عليها عند تجار السلع المستعملة وعلى بسطات الأسواق وعرَضَتها بفخر. وحين كنت أزورها، كان لديها دوماً تحفة اقتنتها حديثاً تريني إياها بتباهٍ.

أحبّت أمي شيئين في حياتها: حديقتها ومقتنياتها. وهما الوحيدان اللذان جلبا لها شيئاً من السعادة. وكلاهما أُقصيا وأُهملا في هذا المنزل الخاوي لرجل عجوز.

لم يحتَج والدي وقتاً طويلاً ليمحو زوجته من حياته. في اليوم التالي لوفاتها زرتُ أهلي. وفي ذكراها، كنت مستعدّة لأكظم الغيظ الذي أشعر به تجاه والدي: كان يعرف أنها تُحتضر، لكنه رفض المجيء إلى المشفى ليودّعها الوداع الأخير، وبينما كنتُ أمسكُ يد أمي خلال تلك الليلة الطويلة والموحشة، فَضَّلَ الرجل الذي أحبّته زمناً طويلاً أن يذهب ليشرب الكحول في نادي ليجيون البريطاني.

ولكن مهما بلغ حنقي عليه وأياً كان شعوري تجاه غيابه تلك الليلة، فقد رغبتُ أن يرافقها في تلك الليلة شخص آخر عرَفَها وأحبها. كنتُ أريد أن أتمشّى في الحديقة التي أنشأَتْها، وأن أشاهد للمرة الأخيرة مجموعة تحفها وأشعر بوجودها. وددتُ أن أتذكّرها كالأم التي كانتها حتى أعوامي الستة: تلك الأم التي تلاعبني، وتقرأ لي قصصاً في الفراش وتتركني أتسلق ركبتيها لتدلّلني. كانت تلك الأم هي التي أحببتُها دوماً. أمّا الأم الأخرى، تلك التي ضحّت بابنتها لتعيش وَهْم الزواج السعيد ولم تعترف أبداً بذنبها، فسأنساها في الوقت الحاضر.

كنتُ مستعدّة أن أنحّي غضبي جانباً وأشرب فنجاناً من الشاي مع أبي. كنتُ بأمسِّ الحاجة لتأجيل تَقَبُّلِ موتها ومشاركته بعض الذكريات معها، مثلما يترتّب على أيّ فتاة أن تفعل.

اتجهتُ نحو باب المدخل المطلي بالأزرق وحاولتُ أن أفتحه وأنا أناديه. لكنه كان موصداً. فهمتُ حينها أنني إذا ما بقيت آمل بذرَّة حياة طبيعية، فسأواجه الخيبة.

وأنا أمسك بمقبض الباب الأصفر، طرقتُ بأقصى قوتي، ثم تراجعتُ إلى الخلف وانتظرتُ أن يفتح.

سمعتُ احتكاك قدميه على الأرض، ثم مفتاحاً يدور في القفل. وعندما فُتح الباب، وقف أبي في المدخل يسد عليّ الممر، رافضاً أن يتركني أدخل. رمقني بعينين محتقنتين حمراوين، غائرتين في وجه منتفخ ليس حزناً، أدركتُ ذلك من أنفاسه، وإنما بسبب إفراطه في شرب الكحول.

- ماذا تريدين؟ قال وهو يتجشّأ.

وميضُ خوفٍ طفولي جعلني أتراجع إلى الخلف وحاولتُ أن أخفيه، لكن فات الأوان. فقد اكتشفه والتمعَ بريق انتصار في عينيه.

- وبعد، يا أنطوانيت؟ لقد سألتكِ.

مع أنّ هذا صَدَرَ عن أبي، وهو رجلٌ يُفترض أنه في حالة حداد، إلّا أن درجة عدوانيته فاجأتني، لكنني تمالكتُ نفسي.

- أتيتُ لأرى إن كنتَ بخير وتحتاج إلى مساعدة في فرز أغراض أمي. أظن أيضاً أنه بوسعنا أن نشرب فنجاناً من الشاي.

- انتظري هنا.

عند هذه الكلمات صفق الباب في وجهي، وتركني مشدوهة.

مع ذلك سيرغب أن نناقش إجراءات الدفن، قلت في سري. فأنا ابنتهما الوحيدة.

لا.

وبعد بضع دقائق، انفتح الباب ورمى عدّة أكياس من البلاستيك تغصّ بالأمتعة.

- قال: ها هي أغراض أمك. يمكنك أن تهبيها للعمل الخيري. لكن ليس في هذه الأنحاء، لا أريد أن يتعرّف عليها أحد.

ومرةً أخرى أيضاً، صفقَ الباب، وسمعتُ صوت المفتاح في

القفل وبقيتُ على العتبة، وأمتعة أمي تبرز من أكياس البلاستيك المكوّمة عند قدميّ.

لم يشأ حتى أن يستخدم إحدى حقائب أمي، فكرتُ، وأنا غير مصدّقة، بينما رحتُ أضعها في سيارتي.

اكتشفتُ بعد الدفن فقط أنه سرق منها خلسة بعض الأغراض حتى قبل وفاتها. ولم يُرد طبعاً أن أعرف ذلك ولهذا السبب على الأرجح رفض أن يسمح لي بدخول البيت لأنني كنتُ سأرى كلّ ما سبق واختفى منه. وحتى لو لم يكن يهمه رأيي، لم يكن ليرغب أبداً أن يثرثر أحد بشأن ما فعله.

اليوم، وأنا أرى الكشوف المصرفية، أدركتُ أنه لم يبِعْها بدافع الحاجة، وإنما بدافع الجشع الصرف.

لم يكن يريد إلّا شيئاً واحداً، أن يرى هذه الأموال في حساباته. وإذا أردنا أن نحكُم على ذلك من خلال رسائل الكشوف المصرفية العديدة، فلا بد أنه اضطر غالباً لإرضاء بخله.

مع ذلك لا بد أن شكوكاً ساورته بشأن نيّة أمي الاحتفاظ ببعض تحفها للذكرى... لم يكُن بوسعي أن أصدِّق أن أمي عند معرفتها بدنوّ أجلها لم تترك أيّ معلومة بهذا الشأن.

وبإزاء تدفق أسباب الاحتقار لأبي، أحسستُ أن جدران المنزل تُطْبِقُ عليّ.

تذكرتُ الحديث الذي دار بيننا حين علمتُ أنّ منزلهم عُرِضَ للبيع قبل أن تموت وأنه في غضون ثلاثة أيام تلَت موتها، دُعِيَ التجّار لإعطاء تخميناتهم في بقية مقتنياتها.

- أنتَ بعتَ حياةً كاملة من الذكريات، صرختُ مرعوبة على الهاتف.

- إنها لي وأفعل بها ما أشاء، ردَّ لي الصاع صاعين. وأمك لم تترك حتى وصية، بينما أضعتِ وقتك في التسكّع وأنتِ تنتظرين أن تفطس.

كانت هذه آخر مرة تحدَّثتُ إليه فيها حتى اتّصلت بي الخدمات الاجتماعية لتُخبرني أنه ظهرت عليه علامات الشيخوخة وسألتني إن كان يمكنني زيارته. طلبوا مني ذلك، اعتماداً على عادتي المتأصّلة في الإذعان.

وبالفعل، ذهبتُ إليه وأنا أعرف حقّ المعرفة أنني أرتكب خطأً، ولاحظتُ أنه استطاع أن يفتن جيلاً جديداً من النساء. وأمام حاشيته المؤلفة من ثلاث معجبات -المساعِدَة الاجتماعية الحسناء والشابة، والمُعَالِجَة اليومية وصديقة أكبر سناً- ابتسم لي بزهوّ حين دخلتُ الصالون.

- هكذا إذاً، ابنتي الصغيرة آتية لزيارة أبيها العجوز! هتف متعجباً بلهجة انتصار كنتُ وحدي أفهمها.

لم يُلاحظ أيّ امتنان في صوته الساخر.

وأنا أجلس اليوم في منزله، بدأ حضوره أخيراً يتلاشى كلما راح الهواء المنعش ينقّي الحجرات. أدركتُ أنه لا يوجد شيء يخصّني هنا، لا شيء يذكّرني بالماضي، لا شيء يواسيني ولا شيء يرعبني. لم يبقَ أيّ شيء من متاع أمي ما عدا طاولة المكتب، التي في داخلها يوجد الدفتر، وهذه الرسائل والصور الفوتوغرافية الثلاث.

فتشت الصالون بلا جدوى بحثاً عن صور أخرى لي ولأمي، عن شيء يربطني بماضيَّ، لكنني لم أجد شيئاً. على الطاولة الواطئة، رأيتُ صوراً عن فترة أحدث. كان أبي مع مجموعة أصدقاء في صالون بيته الجديد ويحتفلون كما يبدو بحدثٍ ما.

رأيتُ زجاجات بيرة على الطاولة، وابتسامات على وجوه المدعوّين الفرحين الذين يرفعون أقداحهم. وعلى طاولة الطعام، عدة بطاقات معروضة. هل كان عيد ميلاده؟ تساءَلْتُ. ثم وأنا أمسك مكبرة أبي، حاولتُ أن أقرأ الكتابة المتناهية الصِّغَر.

لا، كانت بطاقات كتب عليها «أهلاً وسهلاً في بيتكم الجديد». احتفالٌ بالبيت الجديد نظّمه بعد ستة أسابيع من وفاة أمي.

نظرتُ من جديد إلى الصور الفوتوغرافية والرسالة التي مزّقتها ببطء، على أمل أن أمحو كلماتها من رأسي. لكنني كنت أعرف أنه تصرُّف غير مجدٍ؛ فقد سبق وانطبعت في ذاكرتي وسيظلّ مضمون الرسالة يلاحقني زمناً طويلاً بعد أن تركتُ بيت أبي.

لم أستطِعْ التصميم على إتلاف الصور الفوتوغرافية وحدّقت من جديد في صورتي وأنا رضيعة. حين التُقِطَتْ كنتُ أصغر من أن أتذكر اليوم الذي اتخذنا فيه أنا وأمي هذه الوضعية.

كانت صورة احترافية، التقطت عندما كان عمر أنطوانيت عاماً واحداً بالتأكيد. كانت جالسة على ركبتَي أمها بينما هذه الأخيرة في الثلاثينيات من عمرها، بثوبٍ ذي ياقة مربعة وشعرٍ متماوجٍ ينسدل على كتفيها، تُمسكها بيديها. كان رأس روث مائلاً قليلاً لكن الابتسامة الصغيرة تتبدى تماماً على وجهها وهي تنظر إلى طفلتها بفخرٍ ظاهر. لا يمكن تجاهل هالة السعادة التي تحيط بالطفلة

والمرأة والتي لم تزل تظهر بوضوح، بعد زهاء نصف قرن، في الصورة الفوتوغرافية غير الملونة.

كانت الفتاة الصغيرة مكتنزة بثوبها الحريري الجميل، وخصلة شعر ناعم على رأسها ووجهها يشرق بابتسامة عريضة بلا أسنان، تمسك فَرِحةً في يدها المكتنزة خشخاشة. إنها بالفعل في هذه الصورة الطفلة التي كانتها حينذاك، كائن صغير محبوب، وابتسامتها المشرقة تشعّ باتجاه آلة التصوير.

فكرتُ بشكل خاطف أنه ما كان لأمي ولا للطفلة بين أحضانها أن يتنبآ بأن حياتهما ستنقلب رأساً على عقب، وبتنهيدة، أدرتُ الصورة ووضعتها مقلوبة على الطاولة.

فكرتُ في الظلّ الملقى على وجود هذه الطفلة وفي الطفولة التي كابدتها. فكرتُ في سقمها، حين لم تعُد تستطيع، وهي مراهقة، أن تواجه نبذ أمها المتكرّر لها، ولا سقوطها المتسارع في الظلمات.

رأيتِ ثانية صورة هذه الغرفة المفروشة البائسة التي تكوّرت أنطوانيت فيها على فراشها، وقد فقدت قدرتها على الاستيقاظ لتواجه نهاراً جديداً. شعرتُ بالرعب الذي سجنها في نهاية المطاف. رعبُ عالمٍ اجتاحه الأعداء.

# 22

بعد ساعة من زيارة الطبيب، دخلتْ أنطوانيت المشفى للمرة الثانية. وقُبلت من جديد في جناح الأمراض النفسية من هذا المشفى المشؤوم بالنسبة إلى المرضى العقليين الذي ينتصب بفخامة مرعبة في ضواحي بلفاست.

كان جناح الأمراض النفسية منفصلاً عن المبنى الرئيس للمشفى وكان ديكوره المميز والخاص يوحي للمرضى بعالم مختلف عن عالم مرضى الإقامة الطويلة. لكن تهديد المبنى الرئيس، ذلك الصرح الضخم من الآجر الأحمر المتحدّر من عصر غابر، يرهقهم دوماً، لأنهم يعرفون أنهم إذا لم يستجيبوا للعلاج، فستكفي بضع دقائق لنقلهم إلى هذا العالم الآخر؛ عالمٌ له نوافذ ذات قضبان، وملابسه موحدة بالية وأدويته تسبِّب الخبل.

قُبِلَتْ أنطوانيت في غرفة من جناح الأمراض النفسية. وفي اليوم التالي، تلقت أول جلسة علاج بالصدمات الكهربائية.

* * *

رأسها يؤلمها، انتابها غثيان فتقيأت في وعاء صغير وُضِعَ على مقربة منها.

فتحت عينيها بشكلٍ خفيف فرأت شبحاً ضبابياً برداء أزرق وأبيض. سمعت خليطاً من الكلام غير المفهوم وكلمة لم تنفكّ تتردد: أنطوانيت؛ لكن لم يعد هذا اسمها. استجمعت شيئاً فشيئاً بعض قواها، لكن هذه القوى مصحوبة بوشوشات. فالأصوات موجودة في الحجرة وترهبها. وفي جهد يائس لتهرب منها، ارتمت خارج السرير، وخرجت من الغرفة وانسلَّت إلى الممر. كانت الهمسات تلاحقها. راح قميص نومها الطويل الخاص بالمشفى يصطفق على كاحليها العاريين ويكاد أن يوقعها بينما تحاول الابتعاد عن مطارديها.

لم تتوقف إلّا حين أعماها الخوف وارتطمَت بجدار. فتهاوت على الأرض، وقبضتاها تُطبقان على أذنيها في محاولة عابثة لتكبح تلك الصرخات في داخلها.

امتدت أيادٍ لترفعها. سمعتْ من جديد هذا الاسم وأقعت على الأرض، وذراعاها مرفوعان لتحتمي من مضايقيها.

كانت تريد أن تتوسّل إليهم ألّا يؤذوها، ولكن لم تندّ عنها أيّ كلمة. وحده نحيب غريزي تخطى شفتيها مثيراً ارتعاشات لفرط ما هو يائس.

زُرِقَت حقنة أخرى في ذراعها. ثم رفعوها ووضعوها على عربة متحركة، وهي شبه غائبة عن الوعي. أعيدت إلى غرفتها، والحمد لله أنها نامت.

وحين استيقظت، وجدت رجلاً جالساً بجانب سريرها.

- آه، لقد استيقظتِ، قال حين رآها تطرف بجفنيها.

وهي حائرة، حاولت التركيز عليه، لكنها وجدت صعوبة في فهم كلماته.

- ألا تتذكريني، يا أنطوانيت؟ أنا أحد الأطباء الذين عالجوك حين كنتِ هنا منذ عامين.

لم تكُن تتذكّر. لم تكن تعرف أين كانت قبل عامين ولا أين هي الآن، وأشاحت بوجهها لتُسكِت هذا الصوت. لم يكن إلّا صوتاً آخر يكذب عليها ويسخر منها. لم تعد تسمع إلا همساً فأطبقت بقوة جفنيها على أمل أن يختفي. شعرت أخيراً أنه غادر. فتحت عينيها عندئذٍ ونظرت حولها مرعوبةً.

كانت الستائر مرفوعة وحول سريرها، رأت أشخاصاً يمرّون، وشَعَرت أنها مراقَبَة. قفزت من السرير وقد استولى عليها الغضب، وجرجرت قدميها حتى الستائر وأسدلتها. فهذا فضاؤها؛ ولا تريد أيّ دخيل عليه.

فيما بعد، ساعدتها الممرضات على ارتداء ثوب النوم، وأمسَكْنها بلطف من ذراعيها ليأخذنها إلى مطعم المشفى. وهناك، أدارت كرسيها إلى قبالة الجدار. إذا لم ترَ الآخرين، قالت في سرّها، فلن يستطيعوا رؤيتها.

اختلط كلّ شيء في ذهنها. فهي مخبولة ومضطربة لكنها تبحث رغم ذلك عن بصيص ضوء أبيض يتسلّل عبر النسيان. كانت تريد أن تلجأ إليه، لكنها بسبب العلاج، يستحيل عليها أن تتذكر لماذا.

حاولت الممرضات التحدّث إليها، لكنها رفضت أن تنبس بكلمة، آملةً بذلك ألّا تعود تسمع صوتاً من حولها. وحين كان

الطعام يُقدَّم لها، تهز رأسها بحدّة، ولا يخرج من حنجرتها سوى الأنين.

كانوا يضعون في فمها أقراص دواء ويناولونها كأساً من الماء لتشرب بضع جرعات. تبتلعتها وتغط في النوم.

حان من جديد موعد الصدمة الكهربائية. لم يكن لديها أي فكرة عن الزمن الذي مرّ منذ بداية علاجها، ولا منذ وصولها إلى هنا بطبيعة الحال. أخبرتها الممرضات أن هذا سيساعدها، لكن أنطوانيت راحت تسخر من ذلك. لقد هجرت العالم الحقيقي وليس لديها أيّ رغبة بالعودة إليه.

صارت تمضي نهاراتها في الخبل الدوائي ولياليها في النوم بفضل أدوية منوّمة تزداد فعاليتها باضطراد. وظلّت ترفض الكلام.

كانت الممرضات يجلسن إلى جانبها، ويمسكن يدها، ويردّدن اسمها، ولكن نوبات البكاء الصامت وحدها تجيبهن، بينما الدموع تسيل على وجه أنطوانيت.

- أنطوانيت، كلميني، راح الطبيب النفسي يرجوها للمرة الثالثة هذا الصباح. نريد أن نساعدك، نريد أن تتحسّن حالك من جديد. ألا تريدين مساعدتنا؟ ألا تريدين أن تتحسن حالتك؟

انتهت أنطوانيت إلى الالتفات برأسها والنظر إلى وجه طبيبها للمرة الأولى. سبق لها أن سمعت صوته. فقد اصطحبتها الممرضات لرؤية هذا الاختصاصي النفسي مرات عديدة على أمل أن تنعقد بينهما صلة ما ويغدو بالإمكان البدء بالعلاج.

لأوّل مرة خلال ثلاثة أسابيع، قالت بصوت أبحّ لكنه طفولي:

- أنتم لا تستطيعون مساعدتي.

- لماذا؟

صمتت أنطوانيت فترة مديدة قبل أن تجيب.

- عندي سرّ، سرّ. ولا أحد يعرفه غيري. أنتم لا تعرفونه.

- ما هو هذا السرّ؟

- نحن جميعاً أموات. أنا ميتة. وأنتم أيضاً. نحن أموات.

- إذا كنا أموات، فأين نحن الآن إذاً؟

- في الجحيم، لكن لا أحد سواي يعرف ذلك.

عيناها في عينيه، تحدّق في الطبيب النفسي دون أن تراه. لم تكن ترى إلّا أشباحاً. وأخذت تهتز من الأمام إلى الخلف، ويداها تمسكان ركبتيها. وصار صوتها رتيباً.

- نحن أموات. نحن جميعاً أموات.

ردّدت هذه الكلمات بلا كلل أو ملل، حتى انفجرت بالضحك لأنها كانت تعرف أن الدكتور لم يصدِّقها.

سألها الطبيب بصوت هادئ ولطيف:

- لماذا تعتقدين أنك الوحيدة التي تظنّ ذلك؟

لكن أنطوانيت انطوَت على نفسها في أعماقها وأشاحت بوجهها. نادى الدكتور الممرضات ليرافقنها من جديد، فالجلسة انتهت.

وفور عودتها إلى الصالة، أسدلت الستائر حولها وجلست وسط سريرها.

وهي تحتضن ركبتيها بيديها، ترنَّحت من الأمام إلى الخلف

بينما تطلق ضحكات حادة وهي تفكر في سرها وفي أنها الوحيدة التي تعرف أنه سر حقيقي.

في اليوم التالي، زادوا لها جرعة المهدئات وتابعوا الصدمات الكهربائية.

* * *

لم يُظهر اكتئابها أية إشارة على التحسّن. على العكس، دفعتها جلسات التيار الكهربائي الأربع إلى التحصّن في أعماقها أكثر فأكثر.

إذا كان هدفهم هو تعتيم ذاكرتها ومساعدتها على نسيان الماضي حتى تغدو قادرة تدريجياً على مواجهته، ففشلهم كان ظاهراً للعيان.

والآن، صارت الكوابيس التي كانت تؤرق نومها تقتحم ساعات يقظتها.

إحساسها الفظيع بأنها لم تعُد تتحكّم بشيء، وأنها مطاردة وتسقط أصبح يرهقها الآن خلال النهار، مُضَاعِفَاً من ذعرها، ولم تعُد الوشوشات التي كانت تعذّبها تصمت أبداً.

وطفقت تتوارى في سريرها، والستائر مسدلة، باحثةً عن ملجأ من رعبها، وترفض الكلام، حتى لا يسمعها أحد وتغدو بذلك غير مرئية.

حين كانوا يخرجونها من سريرها ليأخذونها إلى مطعم المشفى، كانت تواجه الجدار معتقدةً أن رغبتها في أن تكون لامرئية قد تحقّقت. ولم تكن تريد أن ترى كلّ هؤلاء الأشخاص الذين يحيطون بها والذين كانوا أمواتاً حتى لو لم يعوا ذلك.

بدا أن الجلسة الخامسة للعلاج بالصدمة الكهربائية أثمرت عن نتيجة. في هذه المرة، لم تحاول أن تهرب حين استردّت وعيها، وانقشعت السحب التي كانت تعتّم ذهنها، وعرفت شيئاً واحداً: أنها تشعر بالعطش.

- أيتها الممرضة، هل يمكنني الحصول على فنجان من الشاي؟

فوجئت ممرضة الخدمة بالطلب فسارعت نحو المطبخ وأعدَّته بنفسها. قدَّمت الفنجان إلى أنطوانيت.

وهي تمسكه بيديها الاثنتين، رشفت منه رشفات صغيرة متردّدة. وراحت ترغم نفسها على الرؤية عبر ضباب ذهنها، وتدرك أين هي ومن تكون.

- هل تريدين شيئاً آخر، يا أنطوانيت؟

- أمي. أريد أمي.

خيّم صمتٌ على الجو لبرهة.

- لا تستطيع المجيء الآن، قالت الرّاهبة بصوت مهدّئ. ولكنني متأكدة أنها ستأتي قريباً، ولا سيما حين تعرف تقدّمك. يجب أن تتحسّني، فهذه أول مرة تتكلمين فيها منذ وصولك إلى هنا.

- أجل، قالت أنطوانيت من دون انفعال، قبل أن تتابع ارتشاف الشاي.

# 23

- استيقظي.

شعرت أنطوانيت أنهم يهزّونها بخفة من كتفيها. فتحت عينيها بانبهار ووجدت نفسها بإزاء عينين زرقاوين تحت رموش شقراء صهباء. كان هذا الوجه يذكّرها بشخص ما، ولكن من هو؟

- هذه أنا، غوس. هل تذكرينني؟

وهي تسمع هذا الصوت، تعرّفت على غوس، الفتاة التي ارتبطت معها بعلاقة حين أقامت أول مرة في المشفى قبل عامين. رمقتها بنظرة مذهولة وقرأت الصداقة الصريحة على وجهها. مدّت أنطوانيت يداً متردّدة نحوها. أحست بالبشرة الدافئة ليد الفتاة الأخرى وأدركت أن هذا حقيقي.

- غوس، قالت وهي تائهة.

لا يمكن لغوس أن تكون موجودة هنا. فقد غادرت منذ زمن طويل. راحت أنطوانيت تتذكر أبويّ غوس اللذين جاءا لأخذها. رأت غوس النظرة الحائرة فشدّت على يدها بخفة.

- لقد رجعتُ من جديد، قالت رداً على سؤال صديقتها الصامت.

- لماذا؟

رفعت غوس كمّها وأرتها الندوب الناعمة المتورّمة التي تبدأ بخطوط غير منتظمة من المعصم وتصعد حتى المرفق تقريباً. رأت أنطوانيت أن ندوباً قديمة انفتحت من جديد؛ والعديد منها لم يكد يلتئم.

- لماذا؟ كرّرت.

لمعت الدموع في عيني غوس، فأزالتها بحركة حيوية. رفعت أنطوانيت يدها الأخرى وداعبت برقة الوجه الذي ينظر إليها، ومسحت ما بدا أنه دمعٌ.

- رجعتُ للمرة الثالثة. تعرفين أننا جميعاً نرجع، قالت غوس ببساطة. أحياناً ينتابني شعورٌ أنه لا يمكنني أن أهوي إلى الحضيض أكثر. حين ألامس القاع، أحاول أن أقول لنفسي إن السبيل الوحيد لأتقدم هو في أن أبدأ بتسلق المنحدر. وفي مرات أخرى، بينما أحسب أنني خرجتُ من الثقب الأسود وأقف على حافته، أشعر أنني أسقط من جديد.

فكرت أنطوانيت بكابوسها حين تحاول مخالب غير مرئية أن تسحبها نحو الأسفل واستوعبت بدقة ما قالته صديقتها. كانت تعرف هذا المكان. بالمقابل، لم تكن تفهم ما الذي دفع غوس إلى مثل هذه النهايات.

- ولكن لماذا، يا غوس؟ أنتِ لديك أبوان رائعان، وأسرة تحبك. فلماذا أنتِ؟

أخذت تصارع لتستوعب.

- لماذا أصرخ بصمت؟ لماذا أفعل هذا بينما لدي كل ما قد

يحلم به المرء، هل هذا ما تسألين عنه؟ لو أنني أعرف السبب، لو أنني أعرف فقط، لاستطعتُ التوقّف. ولكن هذا فقط هو ما يمنحني إحساساً بالسيطرة على الوضع. فَعَلَ أبواي كلّ ما يسعهما ليفهما، فعلا كلّ شيء ليساعداني، لكن المرة الوحيدة التي أشعر فيها أنني أوجّه حياتي الخاصة هي حين أقوم بهذه التشطيبات.

وطافت هيئة حزن عميق ممزوج بالذهول وجهها.

- ولكن أنتِ، ماذا حصل لكِ؟

قلبت يد أنطوانيت ونظرت إلى معصمها لكنها لم ترَ فيه أية ندبة حديثة. مرّت فترة صمت قبل أن تجيب أنطوانيت.

- أمي استعادته.

كانت غوس تعرف عمّن أتحدث. شدّت على يد صديقتها.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- لا أدري. أصبح كل شيء مبهماً وأتذكر فقط أنني استيقظتُ هنا. إنني متعبة للغاية، متعبة من محاولة إيجاد معنى لحياتي ومتعبة من محاولة الاستمرار على قيد الحياة.

وحتى تُظهر أنّ هذا صحيح، أغمضت عينيها، ولكنها هذه المرة وهي تغطّ في النوم، شعرت أنها أكثر اطمئناناً ممّا كانت عليه خلال الأشهر الأخيرة. فكَّرت أنّ غوس تفهم ما لن يستطيع الأطباء فهمه أبداً، لأنها هي أيضاً تعيش في المكان المعتم عينه. رأت الممرضات الفتاتين تتحدّثان فترَكْنَهما لوحدهما. ما دامت غوس نجحت في اختراق دفاعات أصغر مرضاهم، فلماذا يُرِدْن التدخل. كنّ يعرفن أن المرضى غالباً ما يتفاهمون بشكلٍ أفضل فيما بينهم،

وأن الصداقات التي تولد في قلب المشفى قد تساعد في عملية الشفاء. لم تحتج غوس إلى وقت طويل لتفهم السبب الأخير لاكتئاب أنطوانيت. حين استيقظت، رجعت غوس، وجلست على سرير صديقتها ونظرت إليها بقسوة.

- اسمعي، أنا مريضة، أمّا أنتِ، فتعيسة فقط. كان حزنك أشدّ من أن تحتمليه فحاولتِ أن تختفي وتنغلقي على نفسك.

كانت غوس تتحدث كما لو أنها صمَّمت على كسر جميع الحواجز التي أقامتها أنطوانيت حولها.

- ما يجب أن تفهميه، هو أنّ الناس يظلمون غالباً أولئك الذين آذوهم. فهم لا يحبون أن يعترفوا بذنبهم ويحقدون على ضحاياهم باعتبارهم السبب. وهذه هي حال أمك، موافقة. أمّا أباك، فيبدو لي أنه قضية أخرى.

كشّرت غوس بقرف عند التفكير برجل لم تصادفه قط وتابعت:

- إنه يحتقرك لأنك تركته يفعل بكِ ما فعل. عندما كنتِ صغيرة، لم يكن أمامك خيار. أما الآن، فبلى.

توقّفت لتتأكّد أن أنطوانيت تصغي إليها بانتباه، ثم أعلنت بلهجة جدية:

- عليكِ الابتعاد عنهما أو على الأقل أن تضعي حداً لطريقتهما في معاملتك. من الممكن لو عاندته وأظهرتِ أنه لا سلطة له عليك، فعندئذٍ لن يدعك وشأنك. وبالنسبة إلى أمك... ستتبعه دوماً في كلّ الأحوال ولن تتغير أبداً.

- ماذا تقصدين بقولك أنّ أبي يحتقرني؟ سألتها أنطوانيت وقد أصيبت في الصميم.

- خطر لي هذا ممّا أحسه بالنسبة إلى أبويّ. فهما يبذلان ما بوسعهما لأكون على ما يُرام. يحبانني رغم ما أقوم به لإهانتهما. يشتريان لي كلّ ما أريد. ويتحمّلان مسؤولية كلّ فوضى في بيتي. ومع أنني أحبهما، إلّا أنه لا يسعني أن أمنع نفسي عن احتقارهما بسبب ذلك.

- أنا خائفة، يا غوس، وافقت أنطوانيت. أخاف أن أصبح خارجاً، في الشارع.

- كيف لهذا أن يكون أسوأ ممّا تعيشينه هنا؟ ألا ترين ما يفعله أهلك لكِ؟ إنهما يحطّان من شأنك في كلّ مناسبة. يسيئان معاملتك ويحوّلانك إلى شيء يثير الشفقة. أما الحياة في الخارج فهي ممكنة دوماً، لذلك تشبّثي فيها بيديك الاثنتين وإلا ستعودين مراراً وتكراراً إلى هذا المشفى. هيا تعالي، حان موعد العشاء.

ابتسمت غوس وساعدت أنطوانيت على النهوض وارتداء ملابسها. ذهبتا معاً إلى قاعة الطعام، ولأول مرة منذ قبولها في المشفى، أكلت أنطوانيت دون أن تنظر إلى الجدار.

# 24

بينما كانت غوس وأنطوانيت جالستين في صالون المقيمين، اقتربت منهما إحدى الممرضات.

- يا فتيات، نظّمنا سهرة للمرضى في المبنى الرئيس... هذا يهمّكما؟

أبدت أنطوانيت رفضها بحركة من الرأس. لم تكن تعتقد أنّ بإمكانها أن تلهو. فمرضى المبنى الرئيس هم مقيمون دائمون، مصابون بمشاكل خطيرة للغاية قد لا تتيح لهم أن يروا العالم الخارجي ثانية أبداً.

- أوه، هيا، قالت غوس لتُلاطفها. سيكون هذا مسلياً. يمكننا ارتداء الملابس واللهو كنوعٍ من التغيير.

- لا أدري، أجابت أنطوانيت مرتابة. ماذا سأرتدي؟

فكّرت بخزانة ثيابها الفقيرة. كانت تنانيرها وبناطيلها تشدّ على خصرها وكنزاتها ضيقة جداً. فطعام المشفى المتخم زادَ وزنها أكثر من خمسة كيلوغرامات وتعرف أنها أصبحت أكثر بدانة.

ربما ستلفت ثيابها اللصوقة نظرة إعجاب بعض المرضى، لكنها لن تعود مرتاحة فيها.

كانت تعرف أيضاً أن الراهبة المكلَّفة بالجناح رمقتها بنظرة عدم استحسان حين حاولت أن تتجمّل.

- سأعطيكِ قميصاً. الكثير من أمتعتي ستناسبكِ. يمكننا أن نرتدي ونجهّز أنفسنا سوية. وأن نحتفل.

وفجأة، ساور أنطوانيت شكٌ يشبه التحريض. فقد مضى وقت طويل دون أن تتسلى فضلاً عن أنها ترغب في ذلك.

في اليوم التالي، نسيت الفتاتان مشاكلهما وهما تتسليان في الاستعداد لسهرتهما مثل مراهقتين طبيعيتين.

اختارت غوس قميصاً ذا كمين طويلين يغطيان آثار محاولاتها تشويه نفسها وأعارت صديقتها تنورة رمادية داكنة وقميصاً قرمزياً. حين ارتديتا ملابسهما، تفحّصتا بتأنٍّ وجهيهما في المرآة فوق المغسلة وعادتا فاتنتين قدر الإمكان.

وشعرها مشبوكٌ ومغطى بالبرنيق، شعرت أنطوانيت أنها شابة وجميلة لأوّل مرة منذ أسابيع. وتفحّصت الفتاتان إحداهما الأخرى بالتبادل، وتأكّدتا من أنّ أحذيتهما ملمّعة وجواربهما مشدودة، وحين أعلنتا أنهما جاهزتان، قصدتا الصالون.

وصل المرضى الآخرون قبلهما، وتجمّعوا في فرق صغيرة. كانت ثرثرات فرحة تنشر الحيوية في الصالون. الجميع ارتدوا أجمل ما عندهم وجو نادر من الفرح والإثارة يحيط بهم.

ظهرت ممرضتان بزيهما الرسمي، وهما مرتاحتان وسعيدتان لهذا الخروج عن المألوف، ورافقتاهم إلى المبنى الرئيس. كان القسم القديم من المشفى يفوح برائحة مختلفة عن رائحة جناح الأمراض النفسية: شمّت رائحة أجساد قذرة غير مستحبّة ومطهّراً

رخيص الثمن، ويبدو أنّ تدفق رائحة أدوية لاذعة طغى على جو المكان. لكن أنطوانيت لم تشمئزّ؛ استمالها مرح بقية المرضى ووصل بها الحال إلى حدّ أنها سمحت لأحدهم أن يرقص معها.

كان بابان يفضيان إلى الصالة الواسعة التي ستُقام الحفلة فيها، لكن سرعان ما اتضح، وسط وجوم الجميع، أنهما يفصلان بين الرجال والنساء. ينبغي على الرجال أن يصطفوا في جهة والنساء في جهة أخرى، ثم يدخلون من بابين مختلفين.

- ماذا يجري؟ همست أنطوانيت لغوس، بعصبية.

- لا بد أنهم يأتون بالمرضى الآخرين. مرضى الإقامات الطويلة هنا في المبنى الرئيس، وشوشتها غوس.

- كيف سنبقى مع بعضنا إذا فصلوا بيننا؟

وفجأة بدا لها رجال الجناح النفسي مضمونين وأليفين.

- قفوا في الصف! صرخت إحدى الممرضات.

اصطفّت غوس وأنطوانيت مع النساء الأخريات قرب بابهن. أعلن ضجيج خطوات وثرثرات عن وصول نساء أقسام الإقامة الطويلة. وعلى الفور، شعرت الفتاتان بالانزعاج كونهما تهندمتا بينما المقيمات يصلن وينضممن إلى الرتل خلفهن. كانت هؤلاء النساء يرتدين لباساً موحداً، وهي الثياب الوحيدة المسموحة لمرضى الإقامات الطويلة، ولكنهن وهن يتحدّثن بحيوية، بدا أنهن غير واعيات لأثوابهن الرثّة وجواربهن السميكة وأحذيتهن المهترئة. بعضهن كنّ صامتات ورؤوسهن مطأطأة، وتائهات في أحلام حرّضتها المهدئات، وكن يلتحقن بالصف وهنّ يجرجرن أقدامهن. اقتربت إحداهن كثيراً من أنطوانيت وانبعثت من أنفاسها رائحة

بارالديهيد مائلة إلى الحلاوة ومثيرة للاشمئزاز، وهو دواء سائل. فأشاحت أنطوانيت رأسها بسرعة، وقد انتابها الغثيان.

وقبل أن يسنح لها الوقت للتفكير بمصير هؤلاء النساء، انفتح البابان واندفع الحشد، جارفاً أنطوانيت وغوس مع بقية المجموعة عبر البابين.

تبادل بقية مرضى الجناح النفسي النظرات، مرعوبين. فقد اعتقدوا أنّ جناحهم سيشكّل نخبة صغيرة سترقص وتتآلف متجاهلةً الآخرين. لم يكونوا يريدون التآخي مع مرضى الإقامات الطويلة.

رأت غوس وأنطوانيت القلق على وجه النساء الأكبر سناً فتشبَّثت إحداهن بالأخرى وهن يكبحن رغبتهن بالضحك. وصرن يملن إلى الاعتقاد بثقة الشباب أنّ رجال الجناح سينقضّون عليهن مع بداية المعزوفات الموسيقية وأنهن ستصبحان ملكتا الحفلة.

كن مخطئتان. مع أنّ معظم رجال جناحهن امتازوا بتعلّم الرقص في المدرسة، لكنهم لم يتمتعوا برشاقة وسرعة رجال المبنى الرئيس. ومهما بلغت درجة مهدِّئاتهم أو اضطراباتهم العقلية التي قادتهم للعيش في المشفى، كان منظر الكثير من النساء المرتديات ملابس جميلة يمنحهم أجنحة.

أطلقت المعزوفات الموسيقية الأولى طلقة البداية. تجاهل رجال أقسام الإقامة الطويلة نساء الزي الرسمي، وانطلقوا نحو مجموعة أنطوانيت.

ارتجفت أنطوانيت أمام الحشد الفوضوي. أوّل من وصل إليها كان مريضاً طويل القامة، وجنتاه حمراوان، هرع نحوها بساقيه الطويلتين، ومشيةٍ خرقاء مثل مهر ولدَ لتوه. ودون أن يعرِّفها بنفسه،

أمسك ذراعها وجذبها بحركة دائرية إلى رقصةٍ هو وحده يعرف إيقاعها.

من الواضح أنه يخلط بين الرقص والجري على ثلاثة أطراف، فكَّرت وقد منعتها المفاجأة عن المقاومة. فضلاً عن أنها ما كانت لتنجح في ذلك. وهو طافح بالحماس، كان مراقصها يمسكها بإحكام ويركض بأقصى سرعة نحو طرف الصالة، ووحده الجدار منعه عن السقوط. ثم أدارها بحركة فيها من القوة أكثر ممّا فيها من الموهبة، وأعاد التمرين مجتازاً الصالة مرة أخرى بسرعة فائقة.

وأخيراً، توقفت الموسيقى وتوقف هذا الركض السريع الجنوني عبر الصالة. أفلتها مراقصها بأسف. وأظهرت الابتسامة العريضة المرتسمة على وجهه أنه لم يستمتع من قبل إلى هذا الحدّ ولم تستطِعْ أنطوانيت أن تمنع نفسها عن مبادلة رجل سعيد للغاية ابتسامته.

نظرت من جديد إلى مرضى جناحها ورأت أنّ بعض الرجال يتلوون من الضحك لدى رؤيتها في هذه الورطة. رمقتهم بنظرة غاضبة، واستدارت بهيئة استعطاف نحو الآخرين.

حين بدأت الأسطوانة الثانية، حذا رجال جناحها حذو مرضى الإقامة الطويلة وصاروا أسرع هذه المرة. تنهّدت أنطوانيت بارتياح عندما أمسك داني، ممرضها المفضل، ذراعها قبل أن يتمكن مراقصها السابق من طلبها مجدداً.

كانت الرقصة التالية رقصة سوينغ، وكانت أنطوانيت تُجيدها، وبينما جعلها داني تهزّ ردفيها في تناغم مع الإيقاع السريع، شعرت بالموسيقى تجتاحها وتحلّ مكان حالات الكبت لديها. دارت مرات ومرات تحت ذراعه، ومن خلف ظهره ثم عادت إلى أحضانه. وفي خضمّ متعتها الكبيرة، انفجر تصفيق حادّ حين انتهت الرقصة.

- ابقي معه، قالت لها إحدى الممرضات. إنه استعراض جميل.

وافقت أنطوانيت بفرح. ألقت تحية جذلة على مراقصها الأول وهي ترقص السوينغ قربه وابتسمت حين بادلها التحية. كان من الممتع مشاهدة هؤلاء المرضى يلهون. وكلما تقدّمت السهرة، تراخى النظام وسُمِحَ لمرضى جناحها بالبقاء معاً.

لاحظت غوس وأنطوانيت فجأة مجموعة نساء يراقبن الرقصات دون أن يشاركن فيها. ثم شاهدتا في الجهة الأخرى من الغرفة بعض الرجال يرتدون الزيّ الموحّد عينه الذي ترتديه النساء، وهم يقفون بعضهم بجانب بعض بهيئة عصبية. ولأنه ليس لديهم تعليمات واضحة من كادرهم الإداري، لم يكونوا يعرفون ما يترتب عليهم فعله واكتفوا بالبقاء جانباً، مذهولين.

- لن ندعهم هكذا، أليس كذلك؟ قالت غوس بابتسامة. تردّد أمي دوماً أنّ أيّ سهرة لا تنجح إلّا حين يلهو جميع الناس.

ذهبت أنطوانيت إلى داني وأرته المرضى الذين لم يدْعوهم أحد إلى الرقص.

- نودّ أن يلهون أيضاً. أقيمت السهرة لجميع الناس.

- ماذا تريدين أن أفعل؟

فكرت الفتاتان ملياً، ثم خطرت لغوس فكرة.

- رقصة الكونغا، بالتأكيد! لأدائها لا يحتاج المرء إلى معرفة خطوات الرقص. أنت جزء من الكادر الإداري يا داني. تُطْلِقُها وندعوهم جميعاً.

التفتت نحو بقية مرضى الجناح.

- هيا، أنتم جميعاً. ليس لدينا ما يميّزنا. لنختلط بالآخرين ونحرص على أن يلهو جميع الناس.

بدأت الموسيقى. تولى داني المهمة وتبعته أنطوانيت، ممسكةً بخصره. وبينما هما يبدآن دورتهما عبر الصالة، أمسكت أنطوانيت يد مراقصها الأول وأرته كيف ينضم إلى الرتل. وجذبت غوس إحدى النساء الصامتات الواقفات جانباً ثم انخرط جميع الناس في الرقص. وبعد فترة وجيزة، راح خمسون شخصاً يهزّون أوراكهم وهم يرقصون الكونغا في رتلٍ طويل يتعرّج ويتلوى على إيقاع الموسيقى. أخذوا يدورون ويدورون، وبعد ذلك مع صرخات «أيضاً!»، رقصوا مرة ثانية. اخترقت ابتسامات وضحكات فجأة ضباب الأدوية المسكنة والمهدئة وبدأ مرضى المبنى الرئيس يستعيدون حياتهم. راحوا يُصدرون صيحات ابتهاج وهم يدورون ويرقصون.

وفي الختام، حلّت رقصة الهوكي-كوكي[1] مكان رقصة الفالس الأخيرة. ليس من السهل تشكيل دائرة من هذا العدد الكبير من الأشخاص. وحين تمّ ذلك، ارتفعت الأقدام اليمنى نحو الخارج والأقدام اليسرى نحو الداخل، دون أيّ تقيّد بإيقاع الموسيقى. لم يكُن أحد يُبالي بها.

- هيه، داني! صرخ مريض تكشف ابتسامته العريضة الوقحة عن متعة كاملة. ولحسن الحظ أنّ مَن كانوا خارجاً لا يستطيعون أن يروا كيف نستمتع في الداخل. وإلّا لرغبوا جميعاً في المجيء!

---

(1) رقصات وأغنيات لندنية تقليدية.

# 25

بعد الحفلة بليلتين، أيقظت ممرِّضة الليل أنطوانيت.

- أنطوانيت، وشوشتها، إنها صديقتك غوس. اضطُررننا إلى أن نتّصل بأبويها. هل تودّين البقاء معها حتى وصولهما؟

طرفت أنطوانيت بعينيها، وهي لم تزل غافية، ونظرت إلى الراهبة بِحَيرة. كانت تعرف أنّ موعد النهوض لم يحن؛ فالغرفة لم تزَل معتمة.

- تعالي معي. سأشرح لك في المطبخ.

أدخلت أنطوانيت ذراعيها في ثوب النوم الذي مدّته لها الممرضة، وأدخلت قدميها في حذائها وتبعت الراهبة. كانت تخمن أنّ حدثاً خطيراً وَقَعَ بَيْدَ أنها لم تكن تعرف شيئاً عنه.

لكنها طلبت مني أن أبقى مع غوس، طمأنت نفسها. إذاً لو أنها فعلت شيئاً مرعباً -تحاشت التفكير بكلمة انتحار- لما أيقظوني في منتصف الليل.

- هل هي. . . بخير؟ استفسرت بوجل.

رأت الراهبة قلقها.

- لا تقلقي، ستعيش صديقتك. أدركناها في الوقت المناسب.

قالت لأنطوانيت أنّ غوس دخلت إلى مغطس مملوء بماء ساخن، وبشفرة حلاقة سرقتها من دُرج أحد الرجال المرضى، راحت تجرح ذارعيها. وهي تحسب أن أحداً لن يزعجها، عاقبت نفسها في نوبة تشويه ذاتي بالعديد من التشطيبات. كانت الجروح كثيرة حتى صار الماء أحمر.

- إنها شابة مريضة جداً، قالت الراهبة بحزن. لا يسعنا أن نفعل لها شيئاً أكثر في هذا الجناح. سيأتي أهلها لأخذها ولكن يحتاجون إلى وقت ليصلوا. لا أريد تركها لوحدها، ولكن لا توجد ممرضة أخرى للحراسة. وغوس لا تكفّ عن المطالبة بك.

لم تستطِع أنطوانيت أن تخفي اضطرابها من هذا الخبر. نظرت إليها الراهبة بعطف.

- هل تريدين حقاً؟

- طبعاً، سارعت إلى الإجابة. لقد ساعدتني غوس كثيراً منذ وجودي هنا. ولكن لا أفهم لماذا ترسلون في طلب أهلها!

كانت تعرف أن محاولات الانتحار تعني عموماً انتقالاً إلى المبنى الرئيس والحياة الضبابية المخبولة من الأدوية للمرضى الذين رأتهم في الاحتفال.

- ألم تخبركِ شيئاً؟ أمها اختصاصية نفسية. ونعتقد أنها في وضعٍ يسمح لها بمساعدتها الآن. لدى غوس كلّ ما تتمناه إلّا -توقفت الراهبة- السعادة.

دخلت أنطوانيت بخطى هادئة إلى الغرفة التي وُضعت فيها غوس. كانت صديقتها متكوّرة تحت الأغطية، وشعرها الأصهب يعكس شحوب وجهها. وذراعاها المضمدتان والمتصلبتان تبرزان من

الأغطية. جلست أنطوانيت بجانبها وأمسكت يدها الأقرب وداعبتها برقة.

- غوس، هذه أنا. هل تسمعينني؟ سألتها، وهي مفجوعة لرؤية صديقتها على هذه الحال.

كانت غوس تبدو متفائلة للغاية في الآونة الأخيرة، وقد لهَت بالفعل في أمسية الحفلة. التفت الرأس الأصهب ببطء وغاصت العينان الزرقاوان مباشرة في عينيها. قرأت أنطوانيت اليأس المنقوش فيهما. شعرت بالدموع تغرورق في عينيها، لكنها مسحتها برفة من جفنيها. فالبكاء لن يساعد صديقتها.

- أبواي قادمان، قالت غوس بهدوء، من خلال شفتين متيبّستين.

- أعرف.

- سيرسلاني إلى مكان جميل صغير وخاص. في هذه اللحظة، لا بد أنهما متنبهان للهاتف ليتأكدا أنهما يقومان بما هو مناسب.

- لم تخبريني قط أنّ أمك اختصاصية نفسية، صرّحت أنطوانيت بالشيء الوحيد الذي خطر ببالها.

- حقاً؟ لا بأس فهذا الأمر ليس فائق الأهمية بالنسبة إليّ. أما بالنسبة إلى أمي، أجل. فهي تولي الكثير من الأهمية لعملها ولحاجات مرضاها.

وتنهّدتْ.

- لا تراني. ترى أني أحتاج إلى مساعدة لكنها لا تراني. في نظرها، أنا فشلٌ بالنسبة لها. أي دكتورة هي إذا لم تستطعْ مساعدة ابنتها؟ والسؤال الذي كان يجب عليها طرحه هو لماذا فشلَت كأم.

رفعت غوس عينيها نحوها وابتسمت ابتسامة خفيفة.

- يبدو لكِ هذا مضحكاً بالتأكيد. أعرف أنها لا تشبه أمك في شيء، لكنني لستُ قوية مثلك.

وهي مندهشة أن أحداً وَجَدَها قوية، ظنّت أنطوانيت أن غوس تمزح، قبل أن تلاحظ أنه ليس وارداً أن تمزح صديقتها في مثل هذه اللحظة.

- أنا لست قوية.

- بلى، أنتِ كذلك. أنتِ ما زلتِ على قيد الحياة، أليس كذلك؟

وتحوّل عنها الرأس الأصهب.

عرفت أنطوانيت أنّ صديقتها أنهت كلامها.

أمسكت يد غوس بصمت حتى جاءت الممرضة.

- غوس، أبواك هنا. جاءا ليأخذاك إلى بيتك.

- ليس لوقت طويل، ردّت غوس. يجب على ماما أن تهتمّ بمرضاها، أولئك الذين يعانون مشاكل حقيقية. كما تعرفين يا أختي الراهبة، ثمّة عيادة خاصة جميلة تنتظرني. لدى أمي ما تدفعه للخبراء حتى يهتموا بي بينما هي تكسب المال من اهتمامها بالناس الذين يحتاجون إليها.

لم تحِرْ الممرضة جواباً، وبدأت بإخراج ملابس غوس.

كانت أنطوانيت تعرف أنّ وقت مغادرتها قد حان، لكنها كانت تريد البقاء مع صديقتها ومرافقتها حتى خروجها.

قالت الممرضة بلطف وهي تعرف مقدار قرب الفتاتين إحداهما من الأخرى:

- أنطوانيت، ابقي هنا. وفيما بعد يمكنكِ مرافقتنا حتى الباب ووداع صديقتك هناك.

وهي ترى الحزن على وجه أصغر مرضاها، تنهّدت.

- حين تغادر غوس، سنذهب إلى المطبخ وسأعدّ لكلتينا فنجاناً رائعاً من الشوكولا الساخنة.

لم يكن لأيّ مشروب ساخن أن يعوِّض شيئاً ممّا يحصل مع غوس، لكن أنطوانيت ثمَّنت البادرة اللطيفة وردّت بابتسامة مرتجفة.

وبعد بضع دقائق، قادت الممرضة الفتاتين إلى المدخل حيث تنتظر امرأة أنيقة ترتدي بنطالاً أسود وكنزة متناسبة معه.

لا بد أنها والدة غوس، فكّرت أنطوانيت. كأنها لا ترتدي ثيابها البتة على عجل. كأنها تسعى دوماً لتقدِّم نفسها في أبهى حلة.

حان موعد الرحيل. التفتت غوس إلى أنطوانيت وصافحتها.

- إلى اللقاء، واعتني بنفسك. لا تنسي ما قلته لك. أنتِ أقوى ممّا تظنين.

وبعد عناق سريع، افترقت الفتاتان. اتجهت غوس نحو المرأة وخرجتا سوية من المشفى بصمت. آخر صورة احتفظت بها أنطوانيت عن غوس هي صورة لمعان الشعر الأصهب بينما كانت السيارة السوداء التي جاءت لأخذها تقلّها ببطء إلى البعيد.

بعد أسبوع، عاد حلم أنطوانيت ثانية.

أنَّتْ في نومها أمام تهديد الكابوس. وحين بدأت تسقط، بلغت الأصوات الساخرة في حلمها أشدها.

لم تعُد تتحكم بنفسها.

نهضت من سريرها، مترنِّحة، ولم تزل غافية، ساعيةً بأيّ ثمن للهرب من الشياطين التي اجتاحت ذهنها مرة أخرى. لكن كان يستحيل عليها أن تفرّ منهم وراح دويّ أصواتهم يزداد كلّما ترنحت في الممرّ باتجاه الصالون. تهاوت فوق كرسي ووضعت يديها على أذنيها لئلا تسمعهم، وثنت ركبتيها تحت ذقنها.

وجدتها الممرضة تهتزّ من الأمام إلى الخلف، وتطلق أنيناً يائساً، وفهمت أنّ عودتها القصيرة إلى حالتها الطبيعية انتهَت.

استأنف الأطباء الصدمات الكهربائية، وهذه المرة، لم تتهرّب، لكنها لم تتكلم أيضاً.

# 26

كان تيم يركل بقدميه ويدور، ويبرم كرسيه الثقيل الدوّار على صوت موسيقى يسمعها في رأسه. لم تغفل أنطوانيت نظرها عنه لحظة واحدة وهي تتابع حركاته.

وبينما الكرسي يدور مرات ومرات، راحت تحدّق فيه. وعندما كان المسند يخفي وجهه ولا تعود ترى إلّا جزءاً من كتفٍ هزيل، تنتظر أن ينهي الكرسي دورته لتستطيع رؤيته من جديد. ووراء نظارته ذات الإطار المعدني، كانت عينا تيم تلمعان.

إنه يرى ما في رأسي، فكرت أنطوانيت. يمكنه أن يدخل عنوةً إلى أفكاري. غطت عينيها بيديها. إذا لم أره، لن يستطيع رؤيتي، فكَّرت بيأس. ولكنها بعد برهة وجيزة، توقفت عن الاقتناع بذلك ولم تتمالك نفسها عن القول:

- توقف. توقف عن القيام بما تفعله.

كانت هذه كلماتها الأولى منذ أكثر من أسبوع وكان ينقصها التعبير على نحوٍ غريب. كان غياب المشاعر التام فيها ينقل إنذاراً وخيّم صمت على صالون المرضى.

أحسَّت أنطوانيت أنّ جسدها يتصلّب بتأثير التّركيز وهي تنظر

بإمعان إلى الفتى على الكرسي الدوّار. شعرت بغموض أن ممرضاً موجوداً ينهض، كأنه يتوقع حدوث مشاكل، لكن نظرتها بقيت متعلّقة بتيم. وهو تائه في عالمه الخاص وتحت رحمة ذكرياته الخاصة، أدار الكرسي مرة أخرى أيضاً، وفي غضون لحظة تلاقت عيونهما. قهقه تيم.

وبدا لها أنّ السخرية التي سمعتها تصدر عن ألف حنجرة وتتصادى في ركام دماغها. وهي عاجزة عن تمالك نفسها، صرخت، ثم مزّقت زمجرة هائجة حنجرتها. انتابتها رغبة وحيدة في تلك اللحظة أن تقلبه عن كرسيه، وتحطّم القاعدة المعدنية على رأسه وتوقف للأبد ضحكه الساخر. اندفعت وأمسكت الكرسي، ملقيةً الفتى على الأرض، وبقوة يغذيها هياجها الشديد، بدأت ترفعه.

كانت تعرف أنها توشك أن تقذفه على رأسه، لكن الممرّض وصل وأمسكها من ذراعها.

- أفلتي هذا، أمرها. ضَعيه الآن.

لم تقوَ على مجاراة قوته، ولم يجد أيّ صعوبة في فكّ أصابعها. شعرت بالارتعاش كأنّ جميع عضلات جسدها قد تشنّجت. قادها الممرض بحذرٍ إلى كرسيها.

انفجر أخيراً الهيجان الكامن منذ سنوات عديدة علانيةً وبدأت القوة التي رافقت انبعاثه منها تبدّد ضباب ذهنها. وبينما ينقشع الضباب، رأت شكلاً هزيلاً ممدّداً على الأرض. كان تيم موجوداً حيث أوقعته، تائهاً في عالمه إلى حدّ أنّ غضبها لم يؤثر فيه.

كانت الصالة في حالة هيجان. أنطوانيت جالسة ومضطربة ولا تكاد تتذكّر ما حدث.

وضع الممرّض يده على كتف أنطوانيت، ثم بحث عن مريضة يمكن أن يعهَد لها أمر العناية بها حتى تأتي الراهبة المكلَّفة بالجناح وتتولى حراستها.

- ديان، هل يمكنك أن تَصحَبي أنطوانيت لتناول القهوة والبقاء معها؟

كانت ديان امرأة تبلغ زهاء الخامسة والعشرين من عمرها، وقد حقّقت تقدماً منتظماً منذ دخولها المشفى، وكان الممرض يعتقد بوضوح أنّ هالتها الأمومية قد تهدئ أنطوانيت.

قامت ديان بكلّ ما طلب منها، أخذت الفتاة المضطربة من يدها وقادتها إلى مطعم المشفى. أجلست أنطوانيت على كرسي، وأعدَّت فنجانَي قهوة وعادت مسرعة إلى الطاولة.

- تفضلي، اشربي هذا، قالت لها بلطف.

ثم وهي ترى أنّ المراهقة لا تزال تبدو سجينة عالَمِها الخاص، أشعلَتْ لُفافتَي تبغ وناولتها واحدة من فوق الطاولة.

- خُذي هذه اللفافة.

لم تدخّن أنطوانيت منذ زمن لا بأس به، لكنها أخذتها بامتنان. على أية حال، سيتيح ذلك لها أن تُشغّل يديها.

نظرتْ ديان إليها بعطف.

- إذا أردتِ رأي، يجب أن تبدئي بالتحسن. ينبغي أن يخرج كلّ هذا الغضب من داخلك.

ظلت أنطوانيت صامتة، ولم تزَل تنتاب جسدها المرتعش التشنجات. أخذ الضباب الذي عتّم دماغها منذ بضعة أسابيع ينقشع

تدريجياً. رمقتْ المرأة الأكبر منها سناً بنظرة تخلو من التعبير، دون أن تتعرَّف عليها.

- سبق أن تحدَّثنا، قالت ديان بإزاء ارتباكها. تتذكرين، أليس كذلك؟

هزَّت أنطوانيت رأسها، وقد ازداد اضطرابها. كانت تريد أن تتذكر، لأن ثمة شيءٌ في هذه المرأة ينبئها أنه يمكنها الوثوق بها. ثمة شيءٌ في وجهها وفي هيئتها المتعاطفة ينضح دفئاً وتفهّماً لم ترهما قط عند أمها. كانت تعرف أن ديان هي من صنف المرأة التي تحتقرها أمها وتجدها مبتذلة -تدلّ لهجتها على أنها جاءت من حيّ هامشي في المدينة- لكن أنطوانيت تعرف سلفاً أنّ قيمها الشخصية تختلف عن قيم أمها. تعلَّمَتْ أنّ المهم هو المكان الذي نحن فيه وليس من أين جئنا. سحبت ديان نفَساً من لفافتها. كانت التجاعيد العميقة المحفورة على وجهها وشعرها الضارب إلى الرمادي المصفّف كيفما اتفق يجعلونها تبدو أكبر من عمرها. انتبهت أنطوانيت فجأة إلى أنّ مرافقتها ترتدي زياً رسمياً لقسم مختلف، وهو ما حيَّرها مؤقتاً.

حين رأت ديان تعبير الارتباك على محيا الفتاة الشابة، شرحت بلطف:

- أنا في القسم F1 وكنتُ هنا حين جئتِ منذ زهاء ثلاث سنوات. أرى بوضوح أنكِ تتذكرين. كنتِ فتاةً وحيدة وتائهة للغاية، وهذا آلمني. لكنكِ حين غادرتِ، أملتُ ألّا تعودي. فماذا حدث؟

جاهدت أنطوانيت لتتذكر المرأة التي تجلس مقابلها. سبقَ أن صادفت أشخاصاً من هذا القسم. كان يستقبل حالات ليست بالخطيرة، وبعض المرضى محتجزون فيه بدل قضاء عقوبة سجن

قصيرة. ولم يكُن يأوي بالتأكيد أيّ شخص خطير وحين يتماثل مرضاه للشفاء، يُسمح لهم غالباً بالذهاب إلى الجناح النفسي بصالته وجَوِّه المريح عموماً.

- تحدثنا خلال إقامتك الأخيرة. كان داني في غاية القلق لأنهم تركوكِ تخرجين، كان يعتقد أنّ الوقت مبكر على ذلك. أخبريني ما الذي أعادكِ إلى هنا؟

لم تتذكّر أيّ حديث دار بينها وبين ديان، ولم يكن لدى أنطوانيت أيّ فكرة عمّا تعرفه. تجاهلت ديان صمت أنطوانيت، وتابعت كأنّ شخصين يتجاذبان أطراف الحديث وليس واحداً.

- أنتِ حدّثتني عن والدك الذي سُجِنَ بسبب ما فعله بكِ، وبعد ذلك ذهبتِ لتعيشي مع أمك.

- وأمي قالت لي أنه يجب أن أرحل.

لم تحتجْ ديان لأن تعرف المزيد ومسحَت على يدها برقة.

- سيتحسَّن حالك، وستنسيهما. يجب عليك ذلك. لا تدعيهما يفوزان.

سحبت نفساً من لفافتها وحدَّقتْ بنظرة متأمّلة في الفتاة الشابة.

- لعلّك لا تصدقينني الآن، لكنك ستصبحين سعيدة يوماً ما.

إنها محققة، فكرت أنطوانيت بتصميم. إنني لا أصدقها. لم يكن بوسعها أن تتخيل أنها ستشعر بالسعادة يوماً. فتّشت عن شيء تقوله. لم يكن لديها أي رغبة بالحديث عن والديها، لكنها صارت تعرف أنّ ديان لن تدعها تلوذ بالصمت. وهي تأمل أن تغيِّرَ مجرى الحديث عن نفسها، انتهت إلى القول:

- لماذا أنتِ هنا؟

- قتلتُ زوجي. أنتِ قرأتِ ذلك في الصحف أثناء إقامتك السابقة. ألا تتذكرين؟ قتلتُ ذاك القذر بطعنات سكين.

- لماذا؟ سألتها أنطوانيت أخيراً بشيء من الاهتمام.

- القصة التقليدية. كان يضربني حين يثمَل وكان يظلّ ثملاً. رحتُ أنظر إلى نفسي في المرآة وأرى امرأة لم أعُد أعرفها -عين مسودة من الضرب، شفة مشقوقة أو شفتان- وحسبي غباءً أنني فكَّرت بأنني ارتكبتُ خطأ. لكنك تعرفين يا عزيزتي، وقد لا تصدِّقين ذلك، أنني حين التقيته، كنتُ فتاةً جميلة سمراء. وكان لديّ أكوام من الأصدقاء المحبين لكن قُيِّضَ لي أن أختار قذراً مثله لا خير فيه.

- ولماذا بقيتِ؟

كانت أنطوانيت تعرف أنه ما كان لأمها أن تفعل ذلك أبداً. ولكانت تركت زوجها لو أنه رفع يده عليها يوماً، فكرت بمرارة. ولم يكن يهمّها أن يضربني، أنا.

- لأنه كلما كان يضربني، كان يبالغ في لوم نفسه إلى حدّ أن يتوسل لي في اليوم التالي لئلا أتركه، وبعد ذلك تغدو الأشهر القليلة التالية بمثابة شهر عسل جديد. وقعتُ في العشق، إن أردتِ أن تسمّيه هكذا، ثماني مرات بعدد السنوات ورزقتُ بطفلٍ كلّ عامين. لكن عندما كبر الأطفال، صار يضربهم بحزام. لا أسمح لأحد أن يمسّ أطفالي. حينئذٍ هجرته ورحلتُ لأعيش مع أبي.

رأت ديان أن أنطوانيت تصغي باهتمام فتابعت قصّتها.

- وهذا ما حصل. كان ثملاً تلك الليلة. دفع أبي وطرح ابني الأصغر أرضاً. تناولتُ سكين الخبز وضربته. وهل تعرفين ما الأسوأ؟ لقد أحببتُ ذلك. استبدّ بي الغيظ، وقرأتُ الخوف على

وجهه حين هاجمته وشعرتُ حقاً بالراحة. لم أشعر بالندم إلّا عندما وصلَت الشرطة.

التقطت أنفاسها قبل أن تضيف:

- لكن ليس لأنني ارتكبتُ ذلك. وإنما لأنّ الخدمات الاجتماعية أخذت أولادي مني.

- ولماذا وضعوكِ هنا؟

كانت أنطوانيت تعرف أنها قرأت في مرحلة سابقة من حياتها مقالاً في مكان ما يتحدث عن امرأة قتلت زوجاً شرساً. برَّر المحامي الجريمة بأنها كانت دفاعاً عن النفس وحصلت المرأة على البراءة.

- لأنني حين بدأتُ، لم أستطعْ أن أتوقف. أحببتُ ذلك. قالوا إنني استمريتُ في طعنه بعد أن مات. لكنه كان قد هاجم أولادي ولن أدع أحداً يؤذيهم أبداً.

تنبهتْ فجأة إلى الشخص المكلّفة بأمر العناية به ووضعت يدها على يد أنطوانيت.

- أنا آسفة يا حبيبتي. نحن مختلفتان تماماً.

لكن أنطوانيت لم تفهم حتى ما عَنَتْه ديان.

# 27

في بداية سنوات 1960، كان البارانويا يُعْتَبَرُ مرضاً خطيراً. هاجمت أنطوانيت تيم دون أن يستفزّها، لكنهم لم يأخذوا في الحسبان أنها كانت قد تلقّت صدمات كهربائية في الصباح عينه، ولا رأي الأطباء النفسيين فيما يتعلق بملاءمة هذا العلاج الخاص مع حالتها.

لم يلزم الراهبة -وهي امرأة تتبع النهج القديم ولا تقوم بشيء سوى التفكير بحرية المرضى في الجناح النفسي الجديد- إلّا إجراء بعض الاتصالات الهاتفية لترتب تحويلاً.

راقبت أنطوانيت ممرضة تحزم بعض أمتعتها.

- إلى أين أنا ذاهبة؟

لم تُجِب الممرضة، وأنهَت مهمّتها مطأطأةَ الرأسِ.

كرَّرت أنطوانيت سؤالها وهي مرعوبة.

- إلى أين أنا ذاهبة؟

- إلى هناك حيث يمكنهم الاعتناء بكِ بشكل أفضل.

جاءت الكلمات الباردة والمتقطعة من ورائها. استدارت أنطوانيت لترى من تَحَدَّث. على بُعد خطوات منها، كانت الراهبة المكلّفة بالجناح تحدّق فيها. ثلاثينية وشعرها الناعم معقود إلى

الخلف، وجسدها الممشوق تحت زيها الرسمي يبدو غارقاً في القساوة. ومنذ وصولها، اعتقدت أنطوانيت أنّ الراهبة تُكنّ لها كرهاً يتجاوز النفور البسيط.

كان كلّ عضو في كادر الموظفين يعرف سوابق المرضى وتكهّنت غريزياً أنّ الراهبة لم تشعر بالتعاطف مع قصتها. كانت تحسّ أنّ نظراتها تلاحقها حين تتمشى وترى تكشيرة كبيرة ترتسم على وجهها حين تتحدّث أنطوانيت إلى الممرضات أو إلى المرضى الذكور. وساورها شكٌّ دائم أنّ الراهبة تنتظرها لترتكب خطأً ما، وتسنح لها الفرصة لتحطمها. وأخيراً أصبح لديها اليوم المبرِّر الذي تحتاجه وشاهدت أنطوانيت التماعة رضى في عينيها عندما تلاقَت نظراتهما. لكن الراهبة هي مَن أشاحت بنظرها أولاً، وليس أنطوانيت.

كان يجب تحويل أنطوانيت قبيل حلول ذلك المساء، في وقت يستقبل فيه المرضى الزيارات. كانت رؤية مريض معروف يغادر إلى قسم الإقامة الطويلة في المشفى تهزّ مشاعر الجميع بما في ذلك الموظفين.

وبعد إفراغ خزانتها، ظلّت جالسة على سريرها، والستائر مسدلة. قدمت لها الممرضات شاياً، وضعن الصينية على عجل عند رأس سريرها وانسحبن فوراً. وكلما ظهرن، تطرح أنطوانيت عليهن السؤال عينه.

- إلى أين أنا ذاهبة؟ أين ترسلونني؟

راح بقية المرضى يتحاشونها؛ كانو يعرفون دون أن يخبرهم أحد بالأمر أن أنطوانيت ذاهبة إلى أكثر مكان يُخيفهم. فكلّ مَن لا يتماثل للشفاء يواجه مصيرها - التحويل إلى المبنى الرئيس.

حين حل المساء، جاؤوا لأخذها.

وقفت الراهبة الرئيسة ومساعدان من الرجال قرب سريرها وحملَ أحد الرجلين حقيبتها. أخبرتها وجوههم القاسية أنّ أيّ مريض سيقاوم ويصرخ ويعترض على تحويله سيُخضعونه بسرعة. لم تكن أنطوانيت تنوي أن تُرضي الراهبة بالبكاء، لذلك احتاجت أن تستجمع كلّ شجاعتها لتُعيد طرح السؤال عليها.

- أين أنا ذاهبة؟

هذه المرة، لم تتكلّف الراهبة حتى عناء تحاشي نظرتها، وقالت بابتسامة انتصار تقريباً:

- ستذهبين إلى القسم F3A.

شعرت أنطوانيت أنّ برودة جليدية تجتاحها. كان القسم F3 مكاناً يوضع فيه مرضى الإقامات الطويلة، وهم مرضى لا أمل في تماثلهم للشفاء. كان قسماً تُسجن فيه النساء ويطويهن النسيان.

لم يكن يخرجن منه إلّا عجائز، أو سقيمات أو ميتات. كان الجميع يعرفون مكان هذا القسم في المبنى الرئيس. إنه بعيد عن أنظار الفضوليين، خلف أبواب موصدَة بإحكام، لكن نوافذه الموتدة بالقضبان تُرى بوضوح من الحدائق. ومع أنّ أيّ مريض من وحدة أنطوانيت لم ينجح قطّ في رؤية ما بداخله، إلّا أنهم سمعوا جميعاً قصصاً عمّا يحدث فيه.

يُقال أنهم كانوا يتركون في تلك الحجرات المظلمة ثلاثين امرأة تحت رعاية ممرّضتين. يعزلونهن لساعات عديدة متواصلة على مقاعد خشبية صُمِّمت خصيصاً لهن، ويبقين جالسات يحدّقن في الفراغ. وهناك يعطونهن الأدوية، ليس من أجل الشفاء، وإنما لإبقاء

المريضات مذعنات، ويخضعونهن لسلسلة جلسات علاج عشوائية بالصدمات الكهربائية لضمان سلبيتهن.

لم يكُن بوسع النساء في تلك الأقسام أن يتذّمرن البتة، ولمن يتذمّرن؟ كانت تلك الأقسام مسكونة بأناس تخلوا منذ زمن طويل عن حقوقهم حين تخلت عنهم أسرهم. كانوا كائنات تائهة، نسيها العالم الخارجي.

من النادر رؤية المقيمين في القسم F3. لم يكن يحقّ لهم التنزه تحت الحراسة في الحدائق الكبيرة ولا رفقة المرضى الآخرين إلى مطعم المشفى؛ كانوا يقتادونهم إلى ركن خاص في صالة الطعام، وحين ينهون وجبتهم، يعيدونهم إلى قسمهم. كانت أنطوانيت ذات يوم في المبنى الرئيس، فشاهدت رتلاً مشتّتاً من نساء هذا القسم: لباس موحّد متهدِّل برخاوة على أجسادهن المنهكة، وممرضتان مسلّحتان بالعصي ترافقانهن إلى ركنهن من الصالون.

وهن صامتات ومطأطئات الرؤوس، مرَرَن قرب أنطوانيت يجرجرن أقدامهن، على شكل ثلاثين شبحاً رمادياً. الضجة الوحيدة الصادرة عنهن هي قرقعة خفوفهن ذات المقاس الكبير بالنسبة إلى أقدامهن.

وإضافة إلى هؤلاء النساء المحكوم عليهن بأنه لا أملَ لهن في مغادرة المشفى يوماً واستئناف الحياة العادية، كان القسم 3A يستقبل أيضاً قاتلتين. اعتبرهما القضاء غير مسؤولتين جنائياً وحكم عليهما بالحياة في مشفى الأمراض النفسية. إنه مصير لا يُحسدن عليه. على الأقل في السجن، هنالك أملٌ بالعفو. أما هنا فلا أمل.

كانت أنطوانيت قد تكهّنت أنها ستُحوّل إلى المبنى الرئيس، لكن هذا القسم كان أسوأ ممّا تخيّلت.

سيكون تحويلاً مؤقتاً بالتأكيد، فكّرت. يريدون معاقبتي فقط. ثم سيُعيدونني إلى هنا.

- كم من الوقت سأبقى هناك؟ سألت بتهيّب.

- إنه تحويل دائم، أجابوها.

لاذت أنطوانيت بالصمت. لم تجد شيئاً آخر تفعله، وكانت تأمل أن يحميها ذلك. أخفَت الخوف الذي بدأ يصدّع خدرها خلف وجه جامد الإحساس وانتظرت أن تَصحَبها الممرضة المساعِدَة.

في الخارج، كانت السماء تمطر؛ رفعت أنطوانيت وجهها نحو القطرات الناعمة. شعرت ببرودة ندية على وجنتيها وفكرت أنها لو بكت بصمت، فسيظنون أنّ دموعها هي قطرات مطر.

كانت سيارة الإسعاف التي ستنقلها تنتظر في الخارج. ساعدتها الممرضة المساعدة على الصعود، ووضعت حقيبتها بجانبها ثم أغلقت الأبواب وهي تتهرب من النظر إلى عينيها. رأت أنطوانيت الضوء يتلاشى حين أُغْلِقَتْ الأبواب عليها.

وضعت يدها على حقيبتها لتتمسّك، وأسندت ظهرها المستقيم إلى المقعد المغطى بالبلاستيك.

إنها بداية العام، قبيل قدوم الربيع المصحوب بنهارات أطول وليالٍ ألطف. اخترق البرد معطفها الرقيق، لكن أنطوانيت لم تعرف إنْ كانت ترتعش بسبب الرطوبة الليلية أم بسبب خوفها.

لم تكن تدرك إلّا أمراً واحداً، أنها معاقبة وأنّ الكلمات التي تلفّظت بها الأصوات المرهقة تحوَّلت إلى حقيقة في نهاية المطاف.

وفي القسم F3A، ستختفي.

# 28

حاولتُ أن أطرد هذه الذكريات، لكن صورة أنطوانيت التي يمسكونها من ذراعيها ويقودونها في ممرٍّ طويل مبلّط ترسّخت في ذهني.

لم يزل بمقدوري أن أشمّ رائحة المشافي، الكريهة الممزوجة برائحة الصابون الرديء، ورائحة الأطعمة البائتة وروائح العفونة التي رشحت على مدى عقود حتى من مسامات الجدران.

كانت المشفى فيما مضى مأوى للعائلات التي لا تملك مالاً، وحين جاءت إليها أنطوانيت أول مرة في سن الثالثة عشر، تراجعت خطوة إلى الوراء في مواجهة أصداء البؤس البائد الذي ظلّ يلازم هذه الأماكن.

كان يأس مئات الكائنات التي اجتازت أبوابه يرخي بثقله كغيمة غير مرئية تلتفّ حولها حتى كادت تختنق تحت وطأة بؤسهم.

تساءلتُ كيف استطعتُ أن أجد في نفسي القوة لأغفر لأبويَّ ما حدث لي. فكرتُ بساعات من العلاج، حاول خلالها الأطباء النفسيون وأنا جالسة أن يحملوني على تقبّل حقيقة طفولتي وتقبل الاعتداءات التي فرضها عليّ أبي.

لكن لماذا كان يجب أن يحدُث ذلك، تساءلتُ. ما الذي دفع رجلاً ليصبح هكذا؟ وهل فهم في أيّ لحظة من لحظات طفولته أنه كان مختلفاً؟ حين يولد طفلٌ عاجزٌ عن المشي، متى ينظر إلى رفاقه ويدرك أنهم يستطيعون الركض بينما هو لا يقوى إلّا على الزحف؟ وحين يولد طفلٌ أعمى هل يتحسّر على الحرية التي يمنحها البصر؟ وفي أيّ عمر يدرك طفل أصمّ ما يعنيه الصمت؟

وحين يسمع شخص عدواني معاصريه يتحدّثون عن مشاعر لم يحسّ بها قط، هل يحسدهم؟ وهل سيحبّ أن يشعر بالفرح الذي تثيره الأشياء الصغيرة التي يعيشونها؟ أم أنه يشعر بالعظمة ويعتبر فقدان المشاعر قوة؟

وأنا أعيد التفكير بالماضي، تذكرتُ رغبتي في أن أكون محبوبة أبي ومحطّ إعجابه، كما تذكّرت أيضاً هيجانه حين كان يتخيَّل أنه أُهين.

في سنّ الرشد، نجحتُ في فهمِ مَن كان أبي بالفعل: رجل يتصنّعُ المشاعر إلى درجةٍ يُصدّق معها حقاً أنه يحسّ بها. لم يبكِ على أمي حين ماتت، لأنه لم يكن بمقدوره أن يستوعب ما فقدَه في حياته. لم يكن قادراً على ذلك. لم يكن يعرف إلّا شيئاً واحداً، أنها أصبحتْ كائناً من الماضي، وهو لا يعيش إلّا في الحاضر وفي منظور المستقبل. وبهذا المعنى، أشفقتُ عليه لأنه لا يستطيع أن يحسّ بالمشاعر.

حاولت جدّتي أن تبرّر ثورات غضب أبي الخرافية بحادثٍ وقع له في طفولته -لعلّ كلّ أهل ينجبون وحشاً يبرِّرون بالطريقة عينها- وغالباً ما حكت لي أمي القصّة عينها، كأنه كان يجب عليّ أن أرثي

لحاله وأبرّر له كلّ أفعاله الوحشية. وحين أصبحتُ أكبر سناً، طوَّرت القصة، وروَت لي أنّ ذلك لم يكن بسبب صدمة في طفولته وحسب وإنما أيضاً بسبب الوقت الذي قضاه في الخدمة أثناء الحرب ما سبَّب له أذىً بالغاً لم يعُد معه مسؤولاً عن تصرّفاته.

كان جو الابن البكر في أسرته، وُلد في أكواخ كوليرين القذرة. كان طفلاً جميلاً بابتسامة سهلة وضحكة معدية. طويل بالنسبة إلى عمره، شعره كثيف مجعد بلون أصحر، كانت جدتي تحبّه فهو بؤبؤ عينيها. وخلال أول عامين من حياته المدرسية، أكسبه ذهنه المتقد والفضولي تقدير معلميه. كانت دفاتر علاماته جيدة وكانت أمه التي لديها طفلان آخران في ذلك الوقت فخورةً ببكرها. لكن المصيبة وقعت حين بلغ سن الثامنة من عمره. كانت جدتي طريحة الفراش، وفي مرحلة متقدّمة من رابع حمل لها، حين سمعت زعيقاً تبعته ضجة صمّاء.

هرعت إلى الحجرة المجاورة حيث ينام ثلاثة أطفال في سرير مزدوج، ولم تجد سوى جسدين غافيين وليس ثلاثة. كان جو قد زحف فوق شقيقيه حتى بلغ صحن الدرج، تعثّر وسقط رأسه أولاً على الدرج. كان ممدّداً كتلة هامدة وفاقدة الوعي في أسفل الدرجات، ورأسه على الباب تقريباً. عيناه مغمضتان ورمشاهما الطويلان يلقيان ظلالاً مخملية على وجه شاحب حتى أن جدتي ظنت للحظة أنه مات.

مزّق زعيقها القلق جدران المنزل الصغير المشترك، الرقيقة كورقة نوتة موسيقية، وجذب الجيران على الفور. في تلك الفترة، لم يكن يوجد هاتف في أحياء كوليرين الفقيرة، وما من وسيلة لاستدعاء

سيارة إسعاف في حالة الطوارئ. أرسلوا على وجه السرعة ابن أحد الجيران ليحضر الدكتور وضاعت دقائق ثمينة بانتظار قدومه. حملوا الصبي الصغير بخفّة، ووضعوه على المقعد الخلفي لسيارة الدكتور القديمة، ونقلوه إلى أقرب مشفى مع أمه المخبولة.

انتظروا عدة أسابيع قبل أن يعلنوا أنه تجاوز مرحلة الخطر ويُطمئنوا العائلة.

ذهبت جدتي كل يوم لزيارته. كانت تجتاز المدينة سواء كان الجو ماطراً أو جليدياً، بطنها بارز، ووشاحٌ على كتفيها من أجل الدفء، وتنورة طويلة تحتك بأعلى جزمتها البالية. كانت تجلس فور وصولها عند رأس سرير ابنها وتصلّي لكي يعيش. أنجبت طفلها الرابع خلال تلك المرحلة العصيبة - صبي أيضاً، وهو طفلها الأخير. ولم تكد تقوى على مغادرة السرير حتى استأنفت رحلاتها اليومية وسهرها بجانب ابنها.

كانت جدتي تتذكر تماماً يوم فتح عينيه، رآها وابتسم لها ابتسامة خفيفة.

ظلت عيناها لأعوام تغرورقان بالدموع عند تذكّر تلك اللحظة. استعاد جو صحته لكنه لم يقوَ على الكلام لأشهر عديدة. وحين نجح أخيراً في لفظ بعض المقاطع، ترافق ذلك بلعثمة شديدة جعلت وجهه يحمرّ تحت وطأة الجهد المبذول.

لم تكن الدولة الراعية موجودة قبل ثلاثين عاماً، وكان العمل شحيحاً في بلفاست. كان جدّي الإسكافي يقضي نهارات بطولها يصلح الأحذية في الحجرة الصغيرة وراء المنزل.

شحّ المال بوجود أطفال صغار، رضيع ويافعين، يجب إطعامهم، ولم يبقَ منه قط ما يلزم لتسديد نفقات ابنها البكر الطبية.

كانت الحياة معركة يومية وكان اللجوء إلى وصيّ خاص حتى يستعيد جو مستواه المدرسي ما قبل الحادث يُعتبر ترفاً لم يزل مجهولاً. لم ينل أحد من أبويه حظاً من التعليم يكفي لمساعدته.

حين عاد إلى مدرسة القرية بعد عام، كان متأخراً في تحصيله المدرسي ويعتوره عيب ملموس في النطق. وفي سن التاسعة، وضعوه في الصف عينه الذي تركه.

كان طويلاً بالنسبة إلى عمره، وأطول من الأطفال الآخرين. فاعتبره هؤلاء مثل دريئة سهلة وأخطؤوا بسخريتهم منه - ولم تكن السخرية أمراً يمكن لأبي أن يتسامح معه ببساطة. ردّ عليهم بعدوانية وخسر شعبيته.

تغيّر مزاجه واختفى الصبي القديم الصغير والمَرِح.

كانت جدتي تعرف أنه تعيس في المدرسة، لكن لم يكن بمقدورها أن تفعل له شيئاً يُذكر. وآنذاك ابتدأت ثورات غضبه المفاجئة. وهو يطلق نخيراً، راح ينقضّ على مضايقيه، وبقبضتيه المضمومتين ينهال ضرباً بكلّ قواه على جلّاده حتى يطرحه أرضاً. وسرعان ما تعلّم الأولاد الآخرون ألّا يضايقوه وأن يحذروا منه.

اضطرّ جو أن ينتظر بلوغ سن الرشد ليتعلم كيف يجعل نفسه محبوباً من جديد.

فكرت في المسارات المتوازية التي سلكتها طفولتي وطفولته.

كانت جراحي مختلفة: كنتُ عاجزة عن التعبير عن نفسي وأشعر أنني غريبة. نغصوا عليّ حياتي في المدرسة أيضاً، لكنني على النقيض منه، لم أردّ قط. وأنا طفلة، نظرتُ إلى العالم كأنني أراه من وراء الزجاج. لم أشعر قط بالاندماج، وحين كبرت، صرتُ أخاف أن أتخذ أصدقاءَ. لم أستطعْ أن أشابه الأولاد الآخرين، فعن أيّ شيء كنتُ سأحدّثهم؟

لا بد أنه شعر هو أيضاً بالعزلة عن رفاقه. اضطرّ أن ينظر إليهم وهم يلعبون ويضحكون وشعر أنه مختلف عنهم. وفيما حاولتُ أنا أن أقلدهم، لم يكن بمقدوره، هو، القيام بذلك. أودَت بي الوحدة إلى مزيدٍ من العزلة والاكتئاب. وأثارت لديه هياجاً مسعوراً ومرارةً.

في ذهن أبي، لم يخطِئ في شيء قط؛ الخطأ دوماً هو خطأ الآخرين. كان يستطيع أن يبرِّر لنفسه أيّ سلوك سيىء، وأن يجد عذراً لكلّ تصرف أناني. فالبذور التي لم يقيض لها أن تنتش أبداً، مدّت جذورها واستحالت إلى شيء قاتم وملتوٍ. اختار أبي أن يسلك طريقاً مختلفاً عن طريقي. ولبرهة، شعرتُ بالحزن وأنا أفكر في أبي حين كان شاباً وحين كنتُ أحبه. لكن سرعان ما حَجَبَتْ ذكرياتي عن الرجل الذي كانه، وأنا أكبر، كلّ الذكريات الجميلة الأخرى، تلك الذكريات التي ولّدت خوفاً شديداً كان السبيل الوحيد لمواجهته هو الانطواء التام على الذات.

فكرتُ في الأيام الأخيرة التي أمضيتها في لارن وفي المرة الأخيرة التي رأيت فيها أبي حياً. سافرتُ على وجه السرعة إلى بلفاست بعد أن اتّصلت بي الخدمات الاجتماعية لتُخبرني أنهم

أدخلوه المشفى بسبب كسرٍ خفيف تبعه التهابٌ رئوي. فإذا أردتُ أن أراه حياً، يجب ألّا أضيع الوقت. ومن دون أن أفهم تصرفاتي، حجزتُ مكاناً في طائرة الصباح، وفي المشفى، طلبتُ أن يرشدوني إلى قسم أبي. ومع كلّ خطوة، رحتُ أتساءلُ لماذا جئتُ. لماذا استقليتُ هذه الطائرة من لندن إلى بلفاست؟ لماذا أرغب برؤيته؟

وأمام قسمه، فتحتُ الأبواب ذات المصاريع ودخلت إلى صالة يغفو فيها رجال مسنون على أسرّتهم المعدنية. رأيتُ أبي. واستعداداً لزيارتي، كان قد ارتدى منامة نظيفة وتدثّر برداء نوم صوفي، وأنهى للتو تصفيف شعره وجلس على أريكة مستقيمة بجانب السرير. أدركتُ أنه لن يعيش طويلاً. جرَّدَه دنو أجله من سلطته واختزله إلى هيئة بدت رخوة على نحو غريب. فمه مفتوح بارتخاء؛ وقد تجمّع بعض اللعاب في زاويتيه وتركت بعض القطرات آثاراً رطبة على ذقنه. لم تبدُ عيناه الرمضاوان(*) المصابتان بتقرّنات وليدة أيّ إشارة تعارف وهما تحدّقان في الفراغ.

اختفت كلّ علامات تلك القوة الحيوية التي كانت تسكن جسده. كان أبي، طاغية طفولتي، الرجل الذي اعتدى عليّ جنسياً في عمر السادسة وجعلني حاملاً في سن الرابعة عشر، يوشك أن يموت.

تساءلتُ من جديد لماذا أتيتُ. لماذا أقف أمام سريره؟ لماذا وضعت ثانيةً قدمي في هذه الحياة الأخرى المصحوبة بكلّ هذه

---

(*) عينان رمضاوان أو غمصاوان: وسخ أبيض يتجمع في مجرى الدمع من العين أو في أطراف الأجفان.

العذابات؟ وأنا أقف هناك، وحقيبتي على الأرض، رحتُ أقول في سرّي أنه لا أحد يستحق أن يموت وحيداً. لكن الحقيقة هي أنّ السلاسل غير المرئية لعلاقاتنا الدامية شدَّتني للمرة الأخيرة.

صدمني هذا الجسد الهشّ لرجل عجوز. كانت تخطيطات منامته الممحية تتناقض تناقضاً صارخاً مع الأريكة الحمراء، ويغطي معطفٌ ركبتيه وتغوص قدماه العاريتان في خفّين اسكتلنديين خضراوين. وحدها يده المكسوّة بنمش الشيخوخة التي تتشبّث بزوايا الغطاء وتعتصرها تُظهره أنه غير واعٍ. راح يئن بهدوء، وهو لم يزل يبدو أنه غير مدرك لوجودي، فأمسكتُ يده الأخرى. اقتربتُ لأرى سبب ألمه، ولاحظتُ خرّاجات تشكّلت في فمه ورصَّعَتْ هذا السطح الحساس بحبيباتها الصغيرة البيضاء. استدعيتُ الممرضة.

- نظِّفي فمه، قلتُ لها بشيء من الغيظ وأنا أشير إلى بثور القُلاع. ربما فَقَدَ النطق لكنه لم يزل يشعر بالألم.

حين رأيته هناك، عاجزاً عن الاهتمام بنفسه، شعرتُ أنّ غضبي ضده الذي سكنني منذ سنوات طويلة، الغضب الذي طالما تشبَّثت به، قد تيبّس ومات في داخلي.

قلتُ في سرّي إنه ليس إلّا رجلاً عجوزاً، بينما بدأت عاطفة أقرب إلى الشفقة تنشأ.

سحبت كرسياً آخر، وجلستُ قربه وتفحَّصت الوجه الذي جَرَّدَه العمر والمرض من التعابير على نحو غريب. لم يزل يغطي جمجمته شعرٌ كثيف متماوج جميل، أشيبُ الآن. وبما أنهم نزعوا طقم أسنانه، تجوَّفَ خداه وتهدّلت ذقنه. ومع هذا الإذلال الأخير، لم

يبقَ شيء يُذكر من الرجل الذي كان بالنسبة إلى الآخرين فاتناً وجذاباً. ولم يوجد أيّ أثر للوحش الذي عذّبني زمناً طويلاً.

تذكرتُ ممرضات المأوى الذي ماتت فيه أمي وهنّ يقلن لي أن آخر حاسّة تموت هي السمع، ولكن لم يكن لديّ ما أقوله له. بالنسبة إلى هذا الأب، لم تخطر ببالي فكرة أخيرة أشاركه بها ولا ذكرى أرغب باستعادتها لأجله حتى يحملها معه في رحلته الأخيرة.

هل يعرف بوجودي هنا؟ تساءلتُ بينما الدقائق تتحول إلى ساعات صامتة وبطيئة. تناولتُ من حقيبتي كتاباً كترسٍ أختبئ وراءه، وهي طريقة تعلَّمتها في طفولتي حين كنت أريد أن أهرب من أصوات والدي المرعبة. ولكن رغم جهودي الحثيثة لمنعها، تماوجتْ رؤى عن أبي الشاب أمام ناظري.



الرجل الوسيم المبتسم الذي أحببته قبل سنوات كثيرة حضر من تلقاء نفسه إلى ذهني. بذلتُ ما بوسعي لأطرد هذه الصور لكنها لا تكاد تتلاشى، حتى تظهر ذكرى جديدة؛ ذكرى رجلٍ ذي عينين محقنتين دماً وفمٍ يرتعشُ غضباً إزاء خطأ وهمي. رأيتُ وأحسستُ بأنطوانيت الطفلة، الميتة رعباً.

جاءت الممرضة إلى جانبي حين حلَّ الليل.

- توني، عودي لتستريحي. قد تستغرق هذه الحالة بضعة أيام. سنتّصل بك في حال حدوث أمر طارئ.

وهي لا تعرف ماضي أبي، شدّت على كتفي بإيماءة تعاطف.

لم أعُد إلى بيت الرجل العجوز ذي الهواء النتن والأغطية القذرة، وإنما عدتُ إلى منزل أصدقاء خصَّصوا لي غرفة عندهم.

كان العشاء جاهزاً عند وصولي، لكنني لم أكن أرغب بشيء آخر سوى أن آوي إلى أُلْفَةِ غرفتي. هناك، سيكون بوسعي أن أندسّ في سرير مريح وأنقطع عن العالم. وهذه المرّة سأفلح في إرغام ذهني على أن يركِّز على أفكار ممتعة تجعلني في منأى عن الماضي. إنها حيلة أتقنتُها مع السنين.

كنت في غاية الإرهاق بعد أحداث النهار ولم أكَد أضع رأسي على الوسادة حتى استغرقتُ في نوم عميق بلا أحلام.

خلتُ أنه لم تكَد تمضي بضع دقائق حتى رنّ الهاتف وسحبني من السرير. ولأنني أعرف سلفاً أن الاتصال لي، أمسكتُ بإعياء السماعة الموضوعة قربي.

- ساءتْ حالة والدكِ، قالت الممرضة المناوبة. من الأفضل أن تأتي.

ارتديتُ بسرعة ملابس خارجية دافئة وخفاً رياضياً، ثم ذهبتُ لأُخطِرَ أصدقائي. كانوا ينتظرونني، الزوج في السيارة يحمّي المحرك، لأنهم كانوا يعرفون أن رنين الهاتف في ساعات مبكرة من هذا الصباح البارد لا يمكن أن يعني إلا شيئاً واحداً.

بقينا صامتين خلال المسافة القصيرة حتى المشفى. علمتُ أننا وصلنا إلى نهاية أمرٍ ما، لكن ذلك حرَّك لدي مشاعر مختلطة. قريباً، لن يعود الشخص الوحيد المتبقي لي والمسؤول عن قدومي إلى الحياة موجوداً، وموت آخر أقربائي يذكِّرنا بموت أقربائنا المقربين. لم يبق أحد ممّن شهدوا طفولتنا وهذا وحده يخلق إحساساً بالضعف. وكنتُ أعرف أن الإجابات عن الأسئلة التي لم أجرؤ أبداً على طرحها ستموت معه.

استقبلوا وصولنا إلى القسم بصمت مشؤوم دام بضع دقائق بعد أن فارقته روحه.

مات أبي وحيداً في النهاية.

# 29

خيَّم الصمت على المسافة القصيرة بين جناح الأمراض النفسية والمبنى الرئيس. كانت أنطوانيت المتكوّرة في المقعد الخلفي لسيارة الإسعاف ترتجف من الخوف أكثر من البرد وهي تُلقي نظرةً شاردةً من وراء الزجاج.

ركنت سيارة الإسعاف أمام المبنى؛ فُتحت الأبواب، وانحنت الممرضتان المساعدتان فشعرت بأنهما تمسكانها من ذراعها.

- هيا يا أنطوانيت.

نزلت من السيارة وهي صامتة. اجتازت أبواب المبنى الرئيس الخشبية والضخمة تحيط بها الممرضتان المساعدتان.

كانت الرائحة المزعجة للمبنى القديم السيىء التهوية تعبق في الجو بينما هم يسيرون في الممرات الكئيبة ذات الأرضية الرمادية. لم يقطع رتابتهم إلّا الأبواب الخشبية الداكنة التي تؤدي إلى أقسام النساء المراقبة أمنياً.

من الواضح أنه لم يُبذل أيّ جهد لتجديد المبنى منذ تحويله من مأوى إلى مشفى للأمراض العقلية. لم يَفعلوا شيئاً للتخفيف من كآبته، فما من غرسة خضراء ولا لوحة على الجدران. لا شيء

يُضيء الممرات الطويلة الممتدة على مسافة أمتار؛ ظلّت كئيبة كما كانت عليه في العصر الفيكتوري حين دشّن الفقراء هذا المكان.

وحدها الضجة الخفيفة من أحذية مرافقيها كانت تكسر الصمت الجنائزي الذي يرخي بثقله على المبنى الغافي. لكن أنطوانيت لا تكاد تسمعها وهي تركّز على عدِّ الأبواب التي تفصلها عن الوحدات المخصَّصة للنساء، حتى وصلوا إلى الجناح F3A.

وسرعان ما فُتح الباب بعد أن طرق الحارس طرقات خفيفة. من الواضح أنّ الراهبة الليلية المسؤولة كانت تنتظرهم ولم تكد أنطوانيت تدلف إلى الداخل حتى أُغلقت الأبواب خلفها. سمعت رنين المفاتيح، ثم قرقعة حين سحبوا المزلاج، وعرفتْ أن هذا الصوت يفصلها عن الحرية.

حدث كل شيء بسرعة فائقة حتى إن أنطوانيت لم يُسعِفها الوقت لإدراك ما يحصل لها. انتابها إحساس خاطف بجدران داكنة ونوافذ صغيرة ذات قضبان وبأرضية إسمنتية قبل أن تمسك الراهبة ذراعها وتشير إليها أن تتبعها.

قادت بسرعة أنطوانيت إلى المهجع. وهي تمشي في إثرها، راحت الفتاة الشابة تشدّ على بعض أمتعتها وشعرت أن خوفها يزداد. وحين لاحظت الراهبة ذلك، لم تكترث. لم تكن أنطوانيت بالنسبة لها إلّا مريضة حوّلوها ليلاً ويجب أن تأوي إلى فراشها بأسرع ما يمكن.

- لا تُحدثي ضجيجاً. المرضى الآخرون نيام، قالت لها وهما تدخلان إلى حجرة أخرى تلقي مصابيحها الشاحبة ظلالاً على صفوفٍ من الأشباح النائمة والمتكوّرة في أَسرَّة معدنية ضيقة.

من دون ستائر مسدلة حولهن للحفاظ على مظهر الكرامة، لم يكن بمقدور المقيمات أن يتخيّلن غرفاً خاصة بهن.

كانت الأسرة على العكس قريبة أحدها من الآخر ويفصل بينها درج معدني فقط.

- هذا سريرك. سأضع حقيبتك تحته وستفرزين أمتعتك غداً صباحاً. خذي قميص نومك فقط.

شعرت أنطوانيت ببشرتها تخزها بينما سرت القشعريرة في ذراعيها فخلعت بسرعة ثيابها لترتدي منامتها. وحين انتهت، اقتادتها الراهبة إلى حجرة الحمام. أحواض كبيرة بيضاء في وسط حجرة، وقربها كرسي خشبي صغير. وعلى جدار، هناك حمامات مبلّطة من دون ستائر تتدلى منها خراطيم سوداء، ملتفة مثل أفاعٍ نائمة. سمعتهم يتحدثون عن هذه الخراطيم وما تفعله بها الممرضات المساعدات: بعد أن تخلع النساء ملابسهن، يقتادوهن إلى الحمامات ويرششنهن بالماء البارد. هذه العملية لها هدفان: إخضاع غير المنضبطات وغسلهن جميعهن بأقصى سرعة.

كان يوجد بقرب الحمامات صفوف من المغاسل وقبالتها مراحيض. نظرت أنطوانيت إلى أبوابها باضطراب متزايد وحين دخلت إحداها، تأكّدت مخاوفها؛ لا تكاد تحجبها. كانت الأبواب تتوقف عند مستوى ارتفاع الركبتين والجزء العلوي منخفض للغاية حتى إن رأسها يُرى حين تقف، ولم يكن هنالك وسيلة لإغلاقه لأنه لا يوجد رتاج. فهمت أنطوانيت أن الأماكن الأكثر خصوصية في حياتها ستكون مراقَبة أيضاً.

لم تدرك فعلاً المكان الذي انتهت إليه إلّا حين ارتقت سريرها.

هناك، تدفّق القلق على شكل نوبات فتشبّثت يداها الرطبتان بالأغطية لتشدّ من عزيمتها. كادت مشاعر الهجر المشوشة تشلّها. لا بد أنّ أبويها يعرفان حق المعرفة ما حصل لها. ولن يتركاها هنا، أليس كذلك؟ وحتى لو لم يحبّانها، لا يمكنهما أن يكرهانها إلى هذا الحدّ. جالت هذه الأفكار في رأسها، وجعلت أيّ نوم مستحيلاً.

في العتمة، راحت تخمِّن الأشكال غير المميزة للنساء الأخريات اللاتي يحطن بها، وتسمع تنفسهن العميق وأصواتهن الطفولية وهن يتحرّكن في نومهن. وكان صوت اصطكاك أسنان يعلو من سرير مجاور، وأصوات شخير متقطع من سرير آخر. كانت عينا أنطوانيت تحدّقان وهي تتساءل عمّا سيحمله الغد.

جاء الصباح ومعه صخب كادر العمل النهاري الذي وصل. نهضت أنطوانيت، تناولت ملابسها وقصدت الحمام.

أرادت أن تستغله قبل استيقاظ المريضات الأخريات، معتبرة أنّ هذه فرصتها الوحيدة لحماية خصوصيتها. اغتسلت بسرعة وارتدت ملابس مساءِ الليلة الماضية ذاتها وعادت إلى سريرها.

تعرف أنّ الممرضات لا يحبذن ترتيب أسرة المرضى العجزة، لذلك بادرت بسرعة إلى ترتيب سريرها وجلست على طرفه، منتظرةً أن يخبروها ماذا ستفعل. أرسلت الراهبة المكلّفة بالقسم ممرضة شابة لتحضرها.

- الراهبة تريدك أن تتبعيني، قالت بكلمات قليلة، دون أن تفسح مجالاً للتعارف. إنها تنتظرك.

لم يكن يفصل المهجع عن مكتب الراهبة إلّا بضعة أمتار.

اجتازتا صالة كبيرة تقضي فيها المريضات نهاراتهن. كانت باردة، مفروشة بأثاث خشبي بسيط وعلى نوافذها قضبان، لكن أنطوانيت لم تكد تراها. لم تلاحظ إلّا قرقعة حزمة مفاتيح كبيرة معلّقة في حزام الممرضة، والجلبة المتواصلة لغمغمات المريضات ونبرتهن التافهة في التأسي.

وبالنتيجة، سترى بيئتها المشؤومة الجرداء، وستشعر أيضاً أنّ العجز واليأس الخالص يعبقان في الجو.

حين دخلت إلى الحجرة الصغيرة التي أُعدّت كمكتب، لاحظت أنطوانيت أنّ نوافذها الداخلية تتيح رؤية كامل القسم وأن الطاولة وُضِعَتْ بحيث يتاح للراهبة أن ترى ما يجري فيه. كانت الراهبة، وهي امرأة قصيرة شعرها أسود، موجودة في مكتبها ونهضت لتستقبل أنطوانيت.

- أهلاً وسهلاً، لا بد أنك أنطوانيت، قالت بودّ. اجلسي.

فوجئت أنطوانيت. كانت تتوقع شيئاً من القسوة فأربكها وجه الراهبة المرحّب والودود وابتسامتها الدافئة.

أشارت الراهبة إلى صينية مع إبريق شاي وفنجانين.

- هل تتناولين الشاي بالحليب والسكر؟

وافقت أنطوانيت بإيماءة، وهي أقلّ ثقة بنفسها من أن تتكلّم، ونظرت إلى الراهبة تصبّ الشاي. همست شكراً حين ناولتها الفنجان، ولفّت أصابعها حوله، مستمدة المواساة من حرارته. انتظرت متوجسةً أن تبدأ الراهبة بالكلام. لا شك أنها ستعرف مصيرها الآن.

وبعد فترة صمت، أعلنت الراهبة بنبرة رزينة:

- أنطوانيت، ماذا تعرفين عن هذا القسم؟

ودون أن تنتظر الردّ استطردت:

- هنا، لا يتلقى المرضى علاجاً شبيهاً بالعلاج الذي تلقيته هناك. يتلقى المرضى هنا مهدّئات إذا أثاروا مشاكل. ليس لدينا كادر من الموظفين يكفي للمواجهة. هل تفهمين؟

فهمت أنطوانيت. رأت أنها وجَّهت لها منذ برهة تحذيراً مغلفاً بعناية ومقدماً بشكل جميل. فلم تقل شيئاً.

فتحت الراهبة ملفاً بنياً كان على طاولة مكتبها، وعرفت أنطوانيت أنه يتضمّن سوابقها.

- حين تفقد النساء القدرة على التحكّم بأنفسهن، يتلقّين صدمات كهربائية.

وأطلقت الراهبة تنهيدة قوية.

- نحاول أن نهتمّ بهن على قدر ما نستطيع. قلة من المريضات تأتيهن زيارات فيصبحن عصيّات على كلّ علاج. لكن في حالتك، اتخذت ترتيبات لتزوري طبيباً نفسياً كل أسبوع. بحسب ملفك، يبدو أنك بدأت تستجيبين لمن كانت تتابعك في الجناح النفسي ولكنها لسوء الحظ لا تعالج مرضى المبنى الرئيس. قرأتُ أيضاً أنك لم تُظهري تعاوناً مع كبير الاختصاصيين النفسيين الذي قيَّم حالتك. مَن ستزورينه هو أيضاً رجل، وإذا كان هذا ما تستصعبينه، فليس بيدي حيلة، لكنني أعتقد أنك ستحبينه.

عند التعليق الأخير، حدّقت أنطوانيت مباشرة في عينيها. هل يعني ذلك أن هذه المرأة تريد مساعدتها؟

تجاهلت الراهبة النظرة المستفهمة وتابعت:

- المريضات لا يغادرن هذا القسم إلّا إلى قاعة الطعام. يتناولن وجباتهن في مكان منفصل، بحيث لا يختلطن بالأقسام الأخرى. وباقي الوقت، خارج فترة النوم، يمكثن في الصالة المشتركة التي اجتزتها لتوّك. هل لاحظتِ الكراسي المغلقة؟

أومأت أنطوانيت إيجاباً. كانت الراهبة تتحدث عن كراسي خشبية مجهّزة بلوح ينغلق ويمنع المريض عن الحركة. ولبرهة، أحسَّت أن صوت الراهبة الواهن يخفي مشاعر انزعاج من بعض العلاجات المتّبعة في هذا القسم.

- بعض مريضاتنا يمضين فيها معظم وقتهن. قد يصدمك هذا المشهد وتظنين أنه فظيع، لكننا لسنا قساة معهن، كما تعرفين. بعض النساء الموجودات هنا ولدن مع مشاكل وعمرهن العقلي هو عمر طفل صغير لكنهن بقوة بالغ. إذا لم نحدّ من حركاتهن، قد يؤذين أنفسهن ويجرحن الآخرين. وبعضهن الآخر مصابات باضطرابات خطيرة جداً ونعرف منذ وقت طويل أنهن لن يتماثلن للشفاء. ولن يستطعن أبداً مواجهة العالم الخارجي. وهناك مريضات أخريات أيضاً خطيرات. اثنتان معتقلتان بسبب جريمة قتل. وبقدر ما تبدوان طبيعيتين بقدر ما هما خطيرتان. لذلك يجب أن تحذري منهما. لقد اعتدنا على ممرضات ومريضات أخريات.

استعادت أنفاسها ورمقتْ أنطوانيت بنظرة متأمّلة.

- وأخريات مثلك، لم يستطعنَ ببساطة مواجهة المصيبة التي أصابتهن.

شعرت أنطوانيت أنّ موضوع هذا النقاش يتضح. التمع بريق

أمل صغير في داخلها. ما كان لهذه المرأة بالتأكيد أن تبدي هذا القدر من اللطف لو أنها اعتبرت أن حالتها ميؤوس منها. لعلّ الوضع لم يكن بالخطورة التي تخشاها.

تنهّدت الراهبة وأغلقت الملف.

- قرأتُ ملفك وحالتك مأساوية حقاً. لكننا نسمع الكثير من القصص الحزينة في هذا المكان وقصّتك ليست إلّا إحدى تلك القصص، حتى لو كانت بالنسبة لك هي كلّ شيء. أعتقد أنك حين ستستوعبين أنه يوجد أناس عانوا أكثر منك، ستبدأين بالتحسن. أعرف أن الأوان لم يحِن لتتقبّلي ذلك، لكنني آمل أن تعتمدي على عدد نجاحاتي.

طرفت أنطوانيت بعينيها تحت تأثير المفاجأة، لم يقُل لها أحد ذلك من قبل. ومع ذلك ظلّت خرساء.

- لا تقلقي من الكراسي المغلقة. إنها مخصَّصة للحالات القصوى، وليست لكِ. لا يوجد أيّ سبب لنحدّ من حركاتك وآمل ألّا تعطينا إياه أبداً.

مرة أخرى أيضاً، فهمت أنطوانيت التحذير تحت غطاء الكلمات المشجعة.

- حسنٌ، العلاج الموصى به لك هو البارالديهيد، ويؤخذ على شكل سائل.

عاودها الخوف. كانت أنطوانيت قد رأت آثار هذه الأدوية الثقيلة وكانت تخشاها.

قفزت أمام ناظريها مشاهد مواكب المقيمين يجرجرون أقدامهم، ووجوههم خالية من أي تعبير وهم يطأطئون رؤوسهم،

فشدّت أصابعها بقوة على الفنجان. لم يكن بوسع شيء أن يحوِّل شخصاً بأقصى سرعة إلى شبح ما خلا جرعات الصدمات الكهربائية المفرطة، والأشباح لا يتماثلون للشفاء.

رأت الراهبة الرعب فتابعت بسرعة.

- مع ذلك، يحق للجناح النفسي فقط أن يوصي بعلاج متَّبع في هذا القسم من المشفى. أصريتُ أن توضعي أولاً تحت المراقبة وأن يقيّم حالتك أحد الاختصاصيين النفسيين لدينا.

ابتسمتْ.

- تشخيص حالتكِ يفيد أنك تعانين من بارانويا مزمنة. أشارت الراهبة في قسمك السابق في تقريرها أنكِ هاجمتِ مريضاً لم يستفزّك. وبرأيها، أنتِ خطيرة. لا بأس، هذا رأيها. ويجب أن أشكِّلَ رأيي.

بدأت أنطوانيت تسترخي. ومع أنها تعلَّمت ألّا تثق أبداً بأحد في موقع سلطة، لكنها شعرت بالارتياح مع هذه المرأة. ورغم تحذيراتها المواربة، بدت أنها إلى جانبها. وبدا لها أن عدم البدء بجرعات البارالديهيد التي وصفتها الراهبة السابقة يمنحها فرصة.

- من الضروري أن تتعاوني مع فريقنا ومع الاختصاصي النفسي الذي سأجعلك تقابلينه، قالت الراهبة أخيراً لتختم حديثها.

نهضت، وطلبت من أنطوانيت أن تتبعها، وسبقتها لتذهب إلى صالة القسم الرئيسة.

وهما تتقدمان، تأسفت أنطوانيت لأنها لم تفلح في نطق أيّ كلمة لتشرح للراهبة وتطمئنها أنه لا ضرورة لأي مهدّئ لإخضاعها،

لكنها لم تستطعْ استعادة صوتها. كما كان حالها مع الاختصاصيين النفسيين في القسم الآخر.

كانت تريد أن تستفيض في الحديث، لكن أشياءَ كثيرة اختلطت في رأسها.

في داخلها، كانت توجد ذكريات مكبوتة ارتاعت من مواجهتها وأفكار وأحاسيس مرعبة لا تعبِّر الكلمات عنها.

في تلك الفترة، لم تكن تستطيع تحرير الكلمات الضرورية لإيصال حتى الأفكار البسيطة للغاية، وبشكل أقل أيضاً عذاب ماضيها.

ذلك العجز هو ما أتاح للراهبة أن تكتب تقريرها كما أرادته.

# 30

كانت أنطوانيت تقف في الصالة، محاطةً بنساء لا يُبدين أي اهتمام بوصول مريضة جديدة. وثمة طلاء أخضر قذر يغطّي الجدران والنوافذ التي رأت قضبانها السوداء من الخارج، وهي موجودة فوق مستوى الرأس بالضبط. وهناك أريكتان مريحتان مزوّدتان بوسائد في أحد الأركان، مخصّصتان لممرضات الحراسة. والمقاعد الأخرى الشاغرة هي من الخشب الداكن والقاسي، لا تمتاز بالراحة.

امتلأت الحجرة بالنساء، مريضاتٌ لا أثر للفردية على محياهن. وهن يرتدين زيَّ المشفى الموحد، وأثواباً بشعة من الكشمير الناصل الألوان وستراتٍ رمادية، كانت المقيمات يبدين النظرة الشاردة لمريضات تناولن جرعات قوية من المسكنات. بعضهن يغمغمن في ركن وأخريات يحدّقن بصمت في الجدران الجرداء. حملقت أنطوانيت مصدومة حين أدركت أنهن جميعهن تقريباً مقيّدات على الكراسي. إنها أول مرة ترى فيها هذا المشهد وهو ما أثارها.

للوهلة الأولى، كانت الكراسي تشبه أيّ كرسي خشبي آخر بمتكأين ولوحٍ صغير يُستخدم كرفّ، ولكن حين يقفلون هذا اللوح بالرتاج، تصبح الجالسة عليها محبوسةً وتستطيع تحريك ذراعيها فقط.

لكنهن كائنات بشرية، استنكرت، وهي ترى جميع هؤلاء النساء محبوسات في أماكنهن، عاجزات عن النهوض أو المشي. إنهن كائنات إنسانية مريضة. وليس من العدل معاملتهن هكذا.

كانت بعض المريضات جالسات بهدوء، وغيرهن يتأرجحن بقوة ويدفعن كرسيهن من الأمام إلى الخلف. وثمة نساء ساكنات يجلسن القرفصاء عند الجدران، أيديهن أمام أعينهن، مستغرقات في خوف اكتشفته أنطوانيت دون أن تفهم سببه.

كانت ضجة الخشب الذي يصطدم بالجدران أو يرتطم بالأرض تختلط بالهرج المستمر للكلام العابث والهمهمات والأصوات التي تنمّ عن كآبة ويأس بالغين ما جعل أنطوانيت تتراجع.

تمالكت نفسها قبل أن تُظهر الهلع الذي تشعر به. لم تكن تريد أن تقرأ الممرضات مشاعرها على وجهها. وإنما تريد أن تتظاهر بالكتمان ما أمكنها. تناولت كتاباً من حقيبتها، وجلست على إحدى الكراسي وطأطأت رأسها، محاولةً إظهار كلّ ما تفعله. لاحظت أنها قرأت صفحة دون أن تتذكر كلمة واحدة وألقت نظرة جديدة على الحجرة.

لفتت نظرها فتاةٌ لا يزيد عمرها عن ثلاثة عشر عاماً. وهي محبوسة في إحدى الكراسي، كانت تتدلى برخاوة على المتّكأ الخشبي، وشعرها الكامد اللون منسدل على وجه خالٍ من التعبير. وكان لسانها يخرج من فمها الفاغر وتحدّق عيناها في الأرض دون أن تراها.

في هذه اللحظة، اتجهت إحدى الممرضات نحوها وقالت لها بفرح:

- حان موعد نزهتك يا ماري.

أين يقُدنها؟ تساءلت أنطوانيت. شاهدت الممرضة تفكّ اللوحة الخشبية، وتمرّر ذراعيها حول كتفي الفتاة وتساعدها على الوقوف. تقدمت ماري بخطى مترنحة في الحجرة، وعيناها محدّقتان دوماً في الأرض.

ظلت تترنح على هذا النحو، قبل أن ترتطم بالجدار المقابل دون أن يبدو التأثر عليها. تابعت تيهها، وجسدها يصطدم بالجص حتى نهضت الممرضة الأخرى وجاءت بخطى هادئة، وجعلتها تعود أدراجها. وهي تتنزه، ظلت ماري تذهب من جدار إلى آخر مدة عشرين دقيقة. حين تعبت الممرضتات من مرافقتها، وضعنها ثانية في كرسيها. وهناك، انحنت من جديد على المتّكأ وراحت تحدّق في الأرض دون أن تراها.

كانت ماري صغيرة للغاية... ماذا حدث لها؟ لماذا توجد فتاة في مكان كهذا وهي لم تكد تتجاوز طفولتها؟ عرفت أنطوانيت فيما بعد أنها أصيبت بالتهاب السحايا.

كانت فتاة لامعة، وقد أصيبت بالفيروس في الحادية عشرة من عمرها. لم يكن العلاج متوفراً في الحقيقة، وكان كلّ مَن يلتقطون هذا الفيروس تقريباً يموتون.

نجت ماري، لكنها أصيبت بتهتّكٍ دماغي دائم وغير قابل للشفاء. حين أدرك والداها التضحية الضرورية للاهتمام بفتاة عاجزة، وقّعا على استمارات الموافقة على قبولها في المشفى.

مضى عامان على وجودها هنا، دون أن يهتم لأمرها أو يزورها

أحد، فتردّت حالتها ولن تستطيع الخروج منها أبداً. وصارت اليوم عاجزة عن التعرّف على أيّ شخص.

اجتاح أنطوانيت شعور بالتعاطف لدى رؤيتها هذا الشكل الهزيل المحبوس في كرسي؛ فتاةٌ منسية كانت فيما مضى تركض وتلعب، ولن يعود بمقدورها القيام بذلك أبداً.

قطع أفكارها صوتٌ. كانت امرأة تسأل:

- هل تحبّين طفلي؟

رفعت بصرها ورأت امرأةً قصيرة في الخمسينيات من عمرها وعلى محيّاها ابتسامة طفلة بريئة. كانت تحتضن بحنان دميةً رفعتها لتستطيع أنطوانيت رؤيتها.

- هل تحبين طفلي؟ كرّرت وهي تنظر إليها بإمعان.

- أجل، إنه جميل جداً. ما اسمه؟

ابتسمتْ لها. لم تكن تستطيع الامتناع عن الاستجابة لشخصية طفولية للغاية وذات عينين زرقاوين واسعتين تنظران إليها بكثير من الأمل.

شعَّت المرأة القصيرة سعادةً، ثم هرولت إلى مريضة أخرى لتطرح عليها السؤال عينه.

- فقدت طفلها منذ زمن طويل، تمتمت إحدى الممرضات. تُدعى دوريس. لم تسبّب أية مشكلة. ولا تقول شيئاً البتة سوى هذا. على الأقل نحو مئة مرة في اليوم.

- ماذا حصل لها؟ سألت أنطوانيت بتهيّب.

لم تكن متأكدة إن كان يجوز لها أن تطرح أسئلة حول ماضي

المريضات، ولا إن كان يحقّ للممرضات أن يروين ما يعرفنه. لكن لم يبدُ أن هذا أزعج الممرضة.

بدت مسرورة لأنها وجدت شخصاً تخوض معه حديثاً رصيناً.

- أوه، لم تفتعل دوريس المشاكل قط، أجابت وهي تهزّ كتفيها. أخيراً، أصبحت حاملاً، مع أنها ليست متزوجة. لذلك وضعوها في دار للأمهات العازبات وانتزعوا منها صبيّها الصغير وهو في عمر الستة أسابيع. ساءت حالتها كثيراً بعد ذلك، كما تعرفين، واكتأبت، وفي النهاية، انغلقت على نفسها تماماً فاستغلت أسرتها الفرصة، ووقّعت أوراقاً وعملت على احتجازها.

- هل كانت دوماً على هذه الحال؟

- ليس في البداية. لكنها خضعت لصدمات كهربائية وأخذت دواءً يتيح لها البقاء ساكنة وهادئة. مضى الآن على وجودها هنا عشر سنوات ولن تغادر أبداً.

ألقت الممرضة نظرة حذرة على أنطوانيت.

- لكنها ليست تعيسة، كما ترين. وحصلت على ما أرادت. طفلها معها دوماً.

حاولت أنطوانيت إخفاء انفعالها. رأت مرضى كثراً يعيشون في المشفى ولم يؤذوا أحداً، لكن هذه أول مرة تقترب فيها من أناس دمّرهم عدم وجود علاج والتخلي عنهم.

قرَّرت ألّا تتلاشى في هذا القسم.

# 31

نظرت أنطوانيت إلى كومة ثياب صغيرة وُضِعَت أسفل سريرها : ثوب أحمر خمري داكن ناصل، وسترة صوفية صهباء متهدّلة، وبنطالونات فضفاضة ذات حمالات وكنزة. ويوجد إلى جانبها جوارب نسائية سميكة كستنائية من خيط اسكتلندي، وقميص نوم قطني ناعم وزوج أحذية سوداء بربطات مهترئة.

- هذه ملابسك، أخبرتها الممرضة.

- ولكن لديّ ملابس.

كانت فكرة ارتداء الزيّ الموحد للمشفى الذي يغطّي الكثير من الأجساد تنفرها. وكانت تثير اشمئزازها رائحة الصابون الرديء المميّزة والبياضات المجفّفة في الغسالات المغلقة. وشعرت أنها تتخلى عن هويتها الخاصة بتخليها عن ملابسها. ستنضم إلى عالم النساء ذوات العيون الشاردة اللاتي يقضين نهاراتهن في التأرجح على كراسيهن وهن يردِّدن بشكل خاطئ أغنيات تجول في رأسهن، أو ستغدو واحدة من اللاتي لا يسمعن إلا أشباح ماضيهن. بعضهن كن يتحدّثن إلى أشباحهن بلغة تخصهن وأحياناً كانت أشباحهن تثير الغضب: صراخ، شتائم وأطباق طعام تتطاير في الهواء.

سيعني الزي الموحّد أنها واحدة منهن. سيجرّدها من إنسانيتها وسيجعلها مجرّد وجه إضافي ضمن حشد من أناس حُرِمُوا من فرديتهم ولم يعودوا أكثر من حيوانات بالنسبة إلى من يهتمون بهم. هكذا تتصوّر الممرضاتُ النساءَ اللاتي يتجرّدن من ملابسهن ويَنْقَدْن في قطيع، عاريات، إلى الحمامات المشتركة حيث يسلّطن عليهن خراطيم المياه من دون أي أثر للكرامة.

لم تكن الممرضات ترى النساء اللاتي في عهدتهن كأشخاص لهن رغبات وآمال. ولا يرتسم أيّ أثر لتعبير وجداني على وجههن حين يوزّعن الأدوية التي تزيل كلّ حياة، وكل تفكير وحلم، أو حين يشهدن جلسات الصدمات الكهربائية.

فكّرت أنطوانيت بماري وأعوامها الثلاثة عشر، ورأتها تترنّح بشكلٍ مثير للشفقة من حائط إلى آخر. لا أحد يلاحظ وجودها إلّا حين تُخرجها الممرضات من أريكتها ويُعدنها إليها.

لكنهم لو ألبسوها كفتاة طبيعية، وجدلوا شعرها بشكلٍ جميل ونظفوا وجهها، ولو لم يحوّلوها إلى كائن ذي عينين كليلتين بتأثير الأدوية، هل كانت المحترفة الفخورة بلطفها ستعاملها كدمية من خرق؟ أم كانت ستعتبرها كطفلة لقيطة؟

كانت أنطوانيت تعرف ما يعنيه الزي الموحّد. إنه الخطوة الأولى نحو حياة بأسرها في هذا المكان. إنه أوّل اعتراف بالهزيمة.

- معي ثيابي، أصرّت، وهي تخرج من حلم يقظتها.

- أعرف، ولكن مَن سيغسلها؟ لذلك توجد ملابس المشفى، وهكذا، سيكون لديك ملابس نظيفة كلّ أسبوع.

رفضت مع ذلك أن تلمس الكومة التي تنتظر على السرير.

- أنطوانيت، قالت الممرضة بصبر، هناك زوار لأشخاص القسم الذي أتيتِ منه، أمّا هنا فلا يوجد زوار. إذاً ما أهمية ما ترتدينه؟ وهنا يوجد مَن يأخذ ملابسك ويُعيدها لك نظيفة ومطويّة جيداً، لذلك لا أرى سبباً للتذمّر.

- سأغسلها بنفسي.

استدارت عند هذه الكلمات. كانت تعرف أنها قد لا تصمد طويلاً لكنها لم تكن مستعدّة أن تصبح واحدة من هذه الأرواح التائهة التي تعيش في هذا البلد الآخر الغريب، مفصولةً عن الخارج بجدران الأحكام المسبقة واللامبالاة.

# 32

تدبرت الراهبة الأمر لتحصل أنطوانيت على كتب. وجدت أنطوانيت أنّ تركيزها بدأ يعود وكانت سعيدة لأنها استعادت القدرة على القراءة من جديد.

عادت إلى القصص التي كانت تفضّلها وهي طفلة، وبدأت بألغاز آغاتا كريستي. لم تقرأ أياً منها منذ أعوامها الثلاثة عشر، وها هي إلفتها تحمل الآن لها السلوى.

وراحت تجلس نهارات بطولها في القاعة العامة بشكلٍ مريح ما أمكنها على إحدى الكراسي الخشبية القاسية وتنسى نفسها في كتابها.

ثمة امرأتان، إحداهن في العشرين من عمرها تقريباً والأخرى أكبر منها بخمس أو ست سنوات، يظلان سوية وكانت تعرف أنهما أدينتا بجريمة قتل. لاحظتْ أنهما، بخلاف بقية المريضات، يمكنهما أن تخوضا حديثاً معاً، وحين كانت لا تعود قادرة على مواصلة القراءة، كانت أنطوانيت ترغب بالرفقة أكثر من أيّ شيء آخر. وما عدا الممرضات والجلسة الأسبوعية مع طبيبها النفسي، كانت تتعطش إلى التواصل الإنساني. ولكن حتى الآن، لم تقترب أيّ من

المرأتين منها؛ فهما متآزرتان وتتجاهلان المريضات الأخريات. تساءلت أنطوانيت عمّا يمكنها فعله لتلفت انتباههما وتجعلهما ترغبان بالمجيء إليها.

لم تكن توجد أية وسيلة تسلية في القاعة، باستثناء تلفاز قديم تحتكره الممرضات. لعبت أنطوانيت مع نفسها لعبتَي ورق وقررتْ أن تستخدمه كي تجلب المرأتين للعب معها.

وضعتْ خطّتها قيد التنفيذ وهي تسحب كرسياً ليس بعيداً عنهما وتخلط الورق من أجل لعبة الصبر.

لم يمضِ وقت طويل حتى اقتربت أكبرهما سناً.

- ماذا تفعلين؟

- ألعب لعبة الصبر. هل تلعبين بالورق؟ سألت بحذر.

- لا، لا أعرف اللعب، أجابت إجابةً متردّدة.

- يمكنني أن أعلّمك، وأُعَلّمَ صديقتك أيضاً، إذا رغبتما في ذلك، اقترحت بلا مبالاة، وهي تأمل أن تبتلع المرأة الأخرى الطُعْم.

فكّرتْ المرأة لبرهة، ثم قالت:

- اتفقنا. لنلعب.

واعتباراً من هذا اليوم، شكّلت أنطوانيت والمرأتان ثلاثياً كلّ مساء. بعد العشاء، تظهر أوراق اللعب وتعلم أنطوانيت المرأتين ألعاباً تعلّمتها من جدّتها الإنجليزية. تساءلت أين تظنّ جدّتها أنها موجودة في الوقت الحالي. ما التبريرات التي ساقتها لها روث حول ما تفعله ابنتها في حياتها؟ أخبرتها بلا أدنى شك أنّ أنطوانيت تسبّب

لها مشاكل لكنها تواجه الأمر بشجاعة، تقول في سرّها، متقزّزة. بيد أنّ التفكير في عائلتها كان مؤلماً للغاية وطردت بحزم هذه الأفكار من ذهنها.

كانت العادة مهمة بالنسبة إلى أنطوانيت، واستقرّت حياتها تدريجياً في المبنى الرئيس بوتيرة مريحة. ليست سعيدة، لكنّ غيوم اكتئابها العميق تبدّدت، وأفسحت المجال لسكينة حملَت لها شيئاً من الرضى.

لاحظت أنّ الممرضات يتعاملن معها تعاملاً أمومياً، ففسّرتها عودتها التدريجية إلى الحالة السوية. ويبدو أنّ حالتها كانت نادرة. ففي هذه الأقسام، لا يتوقّعون ما يجعل المرضى يتحّسنون، فضلاً عن أنها حالة نادرة الحدوث. كانت الممرضات يعملن كحارسات أكثر منهن كمعالجات، وكانت رؤية مريض يتماثل للشفاء تمنحهن شعوراً بالنجاح. تدرك أنطوانيت ذلك فتبذل جهداً أكبر لتنال إعجابهن، لأنها لم تزل مراهقة تتوق إلى الاستحسان. لم يكُن يسعها أن تمنع نفسها عن التفكير في أنّ كلّ الممرضات أصبحن واثقات أنه ما كان ينبغي لها أن توجد هنا وأن مساعدتها على التماثل للشفاء صارت رهاناً. كانت تدرك أنهم يعاملونها بشكل مختلف.

ومع أنّ الممرضات كن لطيفات معها، إلّا أن أنطوانيت كانت تعتقد أحياناً أنهن يحاولن أن يستدرجنها لتقول إنها تريد المغادرة وهنّ يطرحن عليها أسئلة مثل: «هل تودين الذهاب إلى إنجلترا؟» أو «هل ستزورين جدتك حين تكونين هناك؟» كانت تعرف أنهن يحاولن

جعلها تتقبّل أنّ هنالك مستقبلاً ينتظرها وراء هذا المكان، لكنها لم تكن مستعدة بعد لمواجهة ذلك.

ليس المستقبل ما كان يشغل ذهنها؛ فهي لم تزل مستغرقة في إدارة ماضيها ومواجهة الحاضر. لذلك لم تكن تجيب البتة عن أسئلتهن وتكتفي بالابتسام.

كانت تغسل ملابسها بنفسها، ويصحبونها مرتين في الأسبوع إلى مغسل المشفى ويسمحون لها بأن تكويها. كانت قد خشيت أن يجعلها ارتداء ملابسها الخاصة تبدو مختلفة في عيون الأخريات، كأنها تحاول أن تتعالى عليهن، لكن لم تبدُ أياً منهن أنها أعارت انتباهاً لذلك. حتى صديقتاها لاعبتا الورق اللتان ظنّت أنهما قد تحتجان على حظوة لا تتمتعان بها، لم تبدِيا اهتماماً بالأمر. كانتا فقدتا الرغبة في ارتداء ملابسهما الخاصة. لماذا قضاء كل هذا الوقت في غسيلها وكويها، قالتا، بينما هناك من يقوم بذلك نيابة عنا؟ علقت الأكبر سناً أنه لا يوجد رجل لإثارة إعجابه، لذلك مَن سيراها على كلّ حال؟

لم تخبرهما أنطوانيت أنها تفعل هذا لتتذكر مَن تكون.

ومع أنها ظلّت تحت المراقبة وهناك تقارير يومية عنها، إلّا أن الممرضات لم يعرن اهتماماً لما كتبته الراهبة السابقة التي أشارت إلى أنها تشكِّل تهديداً على باقي المرضى. لكن في قسم من هذا النوع، يظلّ الحذر موجوداً ولم يُسمح لها بمغادرة الحجرة من دون مرافقة.

لم تكن صديقتا أنطوانيت تشبهان قاتلتين، لكنهم أخبروها أن

تبقى حذرة. كانت أكبرهن سناً، إلين، هي الخطرة فعلياً، كما تقول الممرضات، وهو ما سلّمت به أنطوانيت بعد أن نظرت في أعماق عينيها الجليدية.

قالوا لأنطوانيت أنّ إلين مُدانة بجريمتَي قتل. قتلت بدم بارد اثنين من أفراد عائلتها.

وهي لم تكتفِ بعدم تقديم أيّ تفسير لسبب ارتكاب فعلتها -سوى أنهم أغاظوها- وإنما لم تبدِ قط أيّ ندم. قبل قدوم أنطوانيت إلى القسم F3A، صعدت إلين فوق كرسي، ومرّرت قبضتها بين القضبان وكسرت زجاج نافذة. أمسكت قطعة زجاج، وقفزت عن الكرسي ووضعتها على حنجرة إحدى الممرضات، وهي تضحك. دوّت صفارات الإنذار، وحضر الممرضون المساعدون وانتهوا إلى جعلها تفلت سلاحها وحرَّروا الممرضة. وصفوا لها مهدّئات تلاها جلسات صدمات كهربائية، لكن هيئتها لا تزال تثير الخشية من اعتداء وشيك.

الأصغر سناً، جيني، بخصلات شعرها الكث الأصحر الداكن وعينيها الزرقاوين، تبدو حزينة أكثر منها عنيفة، تقول أنطوانيت في سرّها. تبدو جيني أنها تهاب إلين، التي تراقب كلّ حركة من حركاتها، ولكن حتى لحظة وصول أنطوانيت، كانتا المرأتين الوحيدتين في القسم القادرتين على التواصل فيما بينهما وهذا ما جعلهما تحتميان الواحدة بالأخرى.

كانت أنطوانيت تعرف أنّ ما دفعهما إلى مخالطتها ليست رغبتهما في أن تكونا معها، وإنما متعتهما في لعب الورق، وكانت

تعترف هي أيضاً أنّ الضجر وحده هو ما دفعها للسعي إلى رفقتهما. وبعد أسبوع من بدء اللعب بالورق، تلقّى الثلاثي مكافأة غير متوقّعة.

كانت ممرضات المناوبة الليلية يضجرن أيضاً، وصرن الآن خمس نساء يقضين الأمسيات في ألعاب علَّمتهن إياها أنطوانيت، وبالمقابل، حصلت على الشاي والإذن بالسهر حتى وقت متأخر. راحت النساء يلعبن على فيشات ورقية وكانت أنطوانيت، الأمهر بينهن، من الحكمة بحيث أنها تركت إلين تربح مرة على الأقل كلّ مساء.

وهي تدخل ذات يوم إلى صالة القسم، بعد جلسة مع طبيبها النفسي، وجدت أنطوانيت جيني جالسةً بمفردها، وهيئتها حزينة. خلال الأمسيات التي قضينها معاً، أثارت الأصغر سناً فضولها. وعلى العكس من إلين، لا شيء لديها ينمّ عن عنفٍ مكبوت. كانت قد رأت إلين ترتجف من الهيجان وحتى انتابتها نوبة ذات مرة، واحتاج الأمر إلى تضافر جهود الممرضتين للسيطرة عليها. لكن جيني تبدو غير عدائية.

اجتازت أنطوانيت الحجرة وجلست بقربها.

- أين إلين؟ سألتها.

من النادر أن تكون جيني بمفردها.

- أصابتها تشنّجات حادة في معدتها فوضعوها في غرفة لترتاح. سيأتي الدكتور ليراها فيما بعد.

- يؤلمني هذا. آمل أن تتعافى.

هزّت جيني كتفها بلا مبالاة وتابعت شرودها بنظرة حزينة.

لزمت أنطوانيت الصمت منتظرة أن تتكلم، وهو ما فعلته بعد بضع دقائق:

- كما تعرفين، لن أغادر هذا المكان أبداً.

لم تحِر أنطوانيت جواباً. هي نفسها لم تفكّر من قبل في لحظة خروجها. كان طموحها الوحيد في المستقبل هو أملها بالعودة إلى الجناح النفسي.

لكنها مع إصغائها للتقبّل الحزين في صوت جيني، كانت تعرف أيضاً من خلال الممرضات أنها لن تغادر أبداً بالتأكيد. ووجدت أنطوانيت في النهاية الشجاعة وسألتها بتهيب:

- ولكن ماذا فعلتِ؟

- قتلتُ رضيعاً. ردَّت بإجابة قاسية.

ارتعشت أنطوانيت، واحتضنت جيني رأسها بيديها وهي تراها تتراجع إلى الخلف.

- لم أكُن أقصد. كان حادثاً. لكن لم يصدِّقني أحد. لم أكن إلّا في سن الخامسة عشر. كانت أمي تعمل عند هؤلاء الناس، وبابا أيضاً. كان بستانياً، وماما مربّية وأعطوهما منزلاً صغيراً. وهذا جزء من الأجر. كان رطباً ولم يرمّمه مالكوه قط، مع أنهم يملكون أموالاً طائلة. زوجان صلفان -يخرجان دوماً ويطلبان مني أن أرعى طفلهما. وذات مساء، راح يبكي طوال الوقت. لم يشأ أن يسكت. وأنت تعرفين حال الرضع حين يبدؤون- يزعقون لساعات. وفي النهاية، انفعلتُ وأمسكته وهززته بقوة فانكسرت عنقه. كان هذا مريعاً ومع أنني قلتُ إنه حادث وأنني لم أفعل ذلك عمداً، إلّا أن

ذلك أثار ذعراً حقيقياً فاستدعوا الشرطة. راحت أمي تبكي وتصرخ، وضربني أبي. على أيّ حال، طردوا أبي وأمي وإخوتي وأخواتي من البيت الصغير. ولم أرَ أياً منهم منذ ذلك الحين. وحتى لا أعرف أين هم الآن.

- منذ متى أنتِ هنا؟

- أربع سنوات، وأنا أشتاق إلى أسرتي يومياً. كما تعرفين، لستُ مثل إلين.

كانت أنطوانيت تعرف أنها تقول الحقيقة. وتتفهّم هذه المأساة المزدوجة: انْتُزِعَتْ حياةٌ وتبدَّدتْ أخرى. شعرتْ بالشفقة تتصاعد داخلها.

ثم تخيّلت الرضيع الصغير وهي تهزه بقوة حتى تحطّمت رقبته الهشّة وألفت نفسها غير قادرة على مواساة جيني. قالت أخيراً:

- لنلعب الورق، هل يناسبك هذا؟

خلطت أنطوانيت الورق ووزعته، لكنها لم تكُن متحمسة. كانت جيني في مثل عمرها ويحقّ لها الحصول على فرصة ثانية. لكن احتمالات أن تغادر هذا المكان ذات يوم كانت ضئيلة. وأفضل ما يمكنها أن تأمله هو أن يحوّلوها إلى أحد الأقسام غير الأمنية، ولا يحدث ذلك إلّا حين تتأكد السلطات من أنها انسجمت مع حياتها في الإقامة بدلاً من أن تسعى إلى التهرب.

بدأت أنطوانيت تُدرك أنّ عدم الشفاء يعني أن تصبح مقيمة دائمة في عالم غريب موجود في المشفى.

وحتى في الجناح النفسي رأت أناساً يبحثون عن دواء لمشاكلهم، ليكتشفوا في النهاية أنّ «الدواء» حكم عليهم بحياة دائمة في هذا المكان.

فكّرت في شخصين على وجه الخصوص، فتاة جميلة ورقيقة تناهز العشرين ورجل شاب يكبرها بقليل، دخلا المشفى بسبب المشكلة ذاتها - إدمان على الكحول. لم يكن أحدهما يعرف الآخر لكن كليهما ينحدران من عائلتين ميتوديتين متزمّتتين تعتبران مرضهما خطيئة. التقيا في القسم وشعر كلّ منهما بالانجذاب نحو الآخر من خلال رابطهما المشترك - رغبتهما في التغلّب على إدمانهما للكحول.

رأتهما أنطوانيت جالسين معاً في الصالة، رأساهما متقاربان وهما يتحدّثان بصوت خفيض، غير عابئين بأيّ رفقة أخرى.

وفي أحيان أخرى، كانا يتنزهان في الحدائق، ويداهما متلامستان تقريباً. كان يُسْمَح لمرضى الجناح النفسي بالاختلاط، وكان واضحاً أمام أعين الجميع أنهما مغرمان أحدهما بالآخر.

وبعد أن ألهبَهما اليقين الراسخ بأنّ عمق العاطفة التي حملها أحدهما للآخر شَفاهما، قررا التوقيع على تصريح الخروج ضدّ رأي أطبائهما. سيبدآن حياةً جديدة معاً، كما أخبرا الجميع، وغادرا، مصحوبَيْن بأمنيات السعادة لكلٍّ منهما.

عادا بعد ثلاثة أشهر، بشرتهما صفراء، ونظرهما منهك، وآمالهما مبدّدة. قادتهما حياتهما الجديدة مباشرة إلى حانة. فقط كأس للاحتفال بخروجنا... فقط كأس آخر لأننا تماثلنا للشفاء، ثم آخر وأيضاً آخر حتى نسيا شفاءهما وما يحتفلان به.

تلقيا هذه المرة علاجاً مخصّصاً لإنقاذهما. قد يعتبر ذلك في القرن الواحد والعشرين كتعذيب. عُزِلا مدة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ في جناحين منفصلين. لم يتلقّيا أي وجبة طعام. بالعكس، قدموا لهما الويسكي. وحين انتهيا إلى رفضه وهما منهكان، أجبروهما على تجرّعه بالقوة. وعندما كان العطش الشديد يوقظهما، ظلّوا يقدّمون لهما، بدل الماء العذب والبارد الذي يرومانه، مزيداً من الويسكي. ابتلعا أقراصاً دوائية مع هذا السائل الذي أصبح ألدّ عدو لهما، أقراصاً أجبرتهما على الانحناء ليتقيّآ الكحول الذي تجرّعاه بالقوة. كان جسداهما يرتعشان من شدة التشنّج، أكثر فأكثر، بينما يصعد الويسكي الممزوج بالعصارة الصفراوية اللاذعة إلى حلقهما ويخرج من فمهما بدفقات حارقة ويلطّخ الأرض التي لم تُنظّف طيلة ثلاثة أيام من «علاجهما».

الممرضة التي روت لأنطوانيت ما رأته، وصفت الرائحة الكريهة التي فاحت في تلك الحجرات. وعندما أصبح المريضان أضعف من أن ينحنيا من سريرهما، شكّل السائل المتدفّق مستنقعات على أغطيتهما، والتصق على شعرهما، واجتاح الجو برائحته النتنة.

بعد ثلاثة أيام، لم يعودا يحبّان الويسكي، لكن كرامتهما واحترامهما لنفسيهما تحطّما. ونجح الزوجان في مغادرة المؤسسة من جديد، لكنهما اتجها هذه المرة إلى الفودكا. وإذا كانا وجدا بديلاً للويسكي، فإنهما لن يجدا أبداً ما يعوّضهما عن ثقتهما بنفسهما. لقد نَوَّمَ الكحول ألم هذا الفقدان حتى أنهما عادا مرة أخرى وتلقيا من جديد هذا «العلاج».

انتهى بهما الحال إلى التخلّي عن رغبتهما بالحياة في العالم

الخارجي. وهما الآن في قسمَين منفصلين مخصَّصين لمرضى الإقامة الطويلة. ولم يروا ضرورة لاحتجازهما.

لم يكن لديهما مكان يذهبان إليه. رأتهما أنطوانيت هائمين على وجهيهما في الحدائق، ولكن ليس معاً أبداً. إنهما كائنان ضائعان ومنعزلان جمعهما المرض، لكن العلاج فرقهما.

تساءلت ذات يوم عمّا سيحصل لهما، وفهمت الآن أنه لن يحصل لهما شيء. لقد انتهت حياتهما هنا.

ومن جهة أخرى، هنالك تلك الحسناء الصهباء التي التقت بها عند أول إقامة لها. كانت جالسة على كرسي في الخارج، تتدفّأ بالشمس. راحت أنطوانيت تتذكر زوجها وولديها.

كانت قد رأت أسرتها تزورها وقرأت الارتباك على وجه الطفلين، فهما أصغر من أن يستوعبا أنّ أمهما مريضة، ويرغبان فقط أن ترجع معهما إلى البيت.

لكنهما يرغبان بأمهما التي عرفاها، وليس بتلك الأم التي اشتدّ اكتئابها بعد الولادة حتى لم تعُد تعبأ بهما.

علمت أنطوانيت أنّ الأب تزوج ثانية وأن الولدين لم يعودا يأتيان لزيارتها.

وها هي هذه المرأة تجلس الآن على كرسي خشبي، منكمشة على نفسها، وقد تلاشى كلّ جمالها منذ زمن طويل بتأثير المهدّئات التي سبّبت تراجع لثتها ورقّقت وكمّدت شعرها اللامع فيما مضى.

في عالم الانحطاط الذي وَلَجَته منذ زمن طويل، هل تتذكر مَن كانت؟ تساءلت أنطوانيت. وأملت أن يكون الجواب لا.

لا ، قالت في سرها. حين نصبح في هذا المكان، لا نعود نؤمن بقدرتنا على العودة يوماً إلى العالم الخارجي. ثم خطرت ببالها كلمات الراهبة: «نسمع الكثير من القصص الحزينة في هذا المكان... لكنني آمل أن تكوني في عداد نجاحاتي».

رفعتْ عينيها نحو النافذة فلم يتبدَّ منها سوى قطعة من السماء. لقد تقلص الخارج وأصبح لاواقعياً.

على كلّ حال، بدأت القصص الحزينة كلها هناك في الخارج.

# 33

يتناولون طعام الفطور في القسم؛ الغداء والعشاء في مطعم المشفى الكبير وهناك يقدّمون أطباق طعام عسير الهضم وغير مستساغ. كانت أنطوانيت تكره المسير تحت الحراسة حتى صالة الطعام.

حين يصلن، تنفصل هي ونزيلات أقسام الإقامة المديدة عن المرضى الآخرين. إنها ضمن مجموعة تأكل في ركن منعزل ويعتبرونها تنتمي إلى الحالات الأخطر في المشفى، وكانت مجبَرَة مرتين في اليوم أن تتحمّل ردود فعل الآخرين تجاه مَن هم في قسمها.

كانت تعرف أنها تلفت الأنظار حين تسير في الممرات لأنها وحدها لم ترتدِ اللباس الموحد، لكنها تتجاهلها برأس مرفوع.

كان وقع خطواتها يبرز من بين حفيف الأحذية الأخرى التي تُجَرُّ جراً، أما هي فتمشي في المقدمة بجانب إحدى الممرضات.

يعتقد مرضى بقية الأقسام بالتأكيد أنني خطيرة جداً، فكّرتْ على سبيل التسلية.

حين أرسلت الراهبة الرئيسة في طلبها، تساءلت هل ستأمرها

بارتداء لباس موحد أسوة بالأخريات، لكن بدا لها أنّ الراهبة تفهمت أسباب سلوكها المتحدّي: نفورٌ من التصنيف الذي وضعوها فيه.

- أصغِي، يا أنطوانيت، أعتقد أنه يستحسن أن تعملي وأنتِ موجودة هنا، قالت لها من دون تمهيد حين دخلت المكتب. ولأنك في قسم مراقب أمنياً، لا توجد أماكن لنضعك فيها. لكن أحد الأقسام ينقصه موظف. المعالِجَة المساعدة لديهم غادرت. هل تودّين أن أرسلك إلى هناك نهاراً؟

وقبل أن يسنح الوقت لأنطوانيت لتطرح أيّ سؤال، قدَّمت لها الراهبة الجزرة التي تعرف أنها لا تُقاوم.

- عندما تكونين هناك، سيكون بمقدورك أن تجلسي مع الممرضات في صالة الطعام. ما رأيك؟

غمرتها السعادة وهي تفكِّر أنها ستنشغل وتهرب من التميز في مطعم المشفى، فلم تسأل إلى أيّ قسم سيُرسلونها، واحتفظت الراهبة بهذه المعلومة لنفسها بذكاء. لم تفكر أنطوانيت إلّا في الانتهاء من هذا المسير المقيت حتى صالة الطعام والحظوة بتقاسم أوقات الراحة مع طاقم الموظفين. وهذا يعني احتساء شايٍ لا يبقى على النار لساعات في وعاء كبير، وبسكويتٍ ورفيقات جدد.

- أجل! سارعت إلى الردّ. موافقة.

- ممتاز، قالت الراهبة بابتسامة. ستبدئين غداً.

ذهبت أنطوانيت لتنام ذاك المساء وهي تتساءل أيّ مهمات تنتظرها. أخبروها فقط أنها ستساعد الممرضات في ترتيب الأسرة والتنظيف.

لا يمكن أن يكون ذلك شاقاً. تقول في سرِّها. أليس هذا القسم هو الأصعب من جميع الأقسام؟ لهذا لا يمكن أن يكون أفظع من هذا المكان.

* * *

وفي اليوم التالي، اكتشفت ما وافقت عليه.

لم تكد تنهي فطورها حتى جاءت ممرضة تأخذها بمباغتة «اتبعيني، من فضلك».

مشت برزانة وراء الممرضة التي انعطفت نحو قسمٍ من المشفى لم يسبق لأنطوانيت أن دخلته قط.

توقفتا أمام باب مغلق. وحين وضعت الممرضة مفتاحها في القفل وفتحته، انفلتت ضجة تصمّ الآذان من الداخل. هاجمتها أصوات متنافرة مرتفعة. كانت مزيجاً من الهمهمات المتواترة، وصرخات صاخبة تتصاعد حتى تصبح حادة وكلمات لا بداية لها ولا نهاية. ترنحت أنطوانيت من شدّة ارتفاع الصوت فأمسكتها الممرضة بحزم من ذراعها، لتهدئها أكثر من أن تسندها.

ولم تكد أذناها تعتادان على ضوضاء القسم حتى وخزت عينيها رائحة قوية لاذعة. أجبرت نفسها على السيطرة على حالات الغثيان بينما منخراها يمتلئان بانبعاثات قوية من روائح العرق والبراز والبول.

كاد الهجوم المتواصل على حواسها أن يشلّ ساقيها بينما تراقب ما يحيط بها.

دخلتا إلى مكان يحاكي محاكاة ساخرة غرفة أطفال. هنا، بدلاً

من المريضات الصغيرات جداً، ثمة أشخاص مسنون جداً، عادوا إلى حالتهم الطفولية في آخر حياتهم. كان القسم ممتلئاً بأسرّة أطفال معدنية مصفوفة بترتيب، جوانبها مرفوعة لتمنع شاغليها من السقوط. أدركت أنطوانيت أن جزءاً من الجلبة ليس بشرياً وإنما يصدر عن القضبان المعدنية للأسرة التي تهزّها أذرع شاغلاتها المتيبّسة. كانت وجوه النساء ذوات اللثث الجرداء مقطبة وهنّ يزعقن ويصرخن على القادمتين الجديدتين بكلمات غير مفهومة.

كانت نساء في مراحل متفاوتة من الشيخوخة يجلسن أو يتمدّدن في أسرّتهن. ونور الشمس الباهت المتسلّل من النوافذ يلتمع على جماجم وردية من خلال شعر أشيب خفيف؛ وكانت قمصان النوم مرفوعة وتكشف عن سيقان مجعّدة، وعن حفاضات معلقة حول إليتين متغضنتين.

بعض أولئك النسوة نكصن تماماً وعُدْنَ أطفالاً رضعاً كما كنّ. رأت أنطوانيت، مرعوبة، إحداهنّ تستكشف محتوى حفاضها بأصابعها العظمية قبل أن تلوّث السرير به. وأخريات، غالبيتهن هزيلات ومتغضّنات، يجلسن القرفصاء في سريرهنّ ويصرخن بكلام بذيء وهنّ يرمقن القادمتين بنظرات متوحّشة.

إلى هنا تجنح مريضات الإقامة الطويلة حين يهرمن. لم يتماثل عقل أغلبهن للشفاء قط. أمضين في المشفى معظم حياتهن اليافعة، يتغذين خلال سنوات على المسكنات بينما دماغهن يخضع لتحريض كهربائي مفرط.

وها هن ينهين الآن حياتهن الكئيبة هنا.

لأول مرة، تواجه أنطوانيت ما يحصل للمرضى الذين لا

يغادرون أبداً. لم تتساءل من قبل لماذا لم ترَ قط أشخاصاً مسنين خلال إقامتها في المشفى، سواء في الأقسام التي كانت فيها، أو حين لمحت مقيمين آخرين. ولكنها وجدت الإجابة عن هذا السؤال.

إلى هنا يرسلون مريضات الإقامة الطويلة حين يغدو جنونهن عصياً على الاحتمال. ارتعشت، بعضاً منه بسبب الاشمئزاز وبعضه الآخر لأنها أدركت أن مستقبلها الخاص هو ربما ما تتأمّله.

فهنا، لم يتبقَّ أي أثر للكرامة الإنسانية.

هل من بينهن أمهات أو جدات؟ أحسَّت بالخجل من القرف الذي انتابها عند رؤيتهن. تذكرت ما قالته لها الراهبة عن بعض المرضى الذين لا يتجاوزون أبداً العمر العقلي لطفل صغير، وأن بعضهم عانى إلى درجة أنّ عقلهم تخرب نهائياً ولا يمكن إصلاحه أبداً. فهمت أنطوانيت كيف يمكن للخوف والحرمان تخريب العقل - سنواتٌ في هذا النظام وكذلك الانحطاط الطبيعي المتعلّق بتقدم العمر قادا غالبية الناس إلى هذه الحالة.

شعرتْ فجأة أنها مكلّفة بمهمة. وأياً كانت الأسباب التي قادت هؤلاء النسوة العجائز إلى هنا، فإنهن يستحققن أن يحظين بلحظات أخيرة ممتعة ما أمكن.

نظرتْ إلى الممرضات. قلّما كان بعض أعضاء الكادر الإداري يكبرونها سناً. وما دمنَ يستطعن العمل هنا، فإنني أستطيع أيضاً، قرّرت أنطوانيت. كانت ردة فعلها الأولى تجاه هذا المكان هو الهرب إليه لإيجاد الأمان من قسمها، الذي صار يبدو لها الآن مرفأ السلام والاطمئنان. ولن تتخلى عن ذلك.

تخيلي، قالت في سرّها بلهجة قاسية، أنّ عمر هؤلاء السيدات

العجائز عامان وهن في مرحلة يُثرن الغضب فيها. سبق لك أن نظفتِ إليتي رضيع - قولي لنفسك إنّ الأمر لا يختلف هنا.

كانت تدرك أنّ الممرضة تنظر إليها، منتظرةً تعليقاً مرعوباً أو صيحة تعجّب مشمئزة وقرَّرت ألّا تُظهر شيئاً.

- من أين تريدين أن أبدأ؟

نظرت إليها الممرضة بتعبير يوشيه الاحترام.

- يمكنك أن تعملي مع المعالِجَة المساعِدَة الأخرى، قالت لها مشيرةً إلى مكان الخدمة الذي يجب أن تذهب إليه أنطوانيت.

شَمَّرَتْ أنطوانيت كمّيها، وتقدّمت وبدأت بالعمل.

يوجد أكثر من عشرين سريراً يجب ترتيبها. أغطية يغطيها البراز يجب سحبها ووضع شراشف ناشفة وأغطية جديدة بعناية. وطوال الوقت الذي استغرقه كدّهن، كانت أنطوانيت تشعر بوجود النساء المسنّات، الهائجات لأنهن أُخْرجن من أسرتهن، ورحن ينظرن إليها بهيئة شريرة. وحين رتّبت السرير الأخير، انتصبت أنطوانيت مع همهمة رضى.

استفادت هنا من عملها لدى بيتلز. اضطرت كخادمة أن تنظّف الشاليهات عندما كان شاربو البيرة الفظّين يفشلون في الوصول إلى المراحيض ويتقيؤون على الأرض. وكخادمة غرف، أفرغت مبوّلات ملأها رجالٌ حَالَ كسلهم دون أن يغادروا غرفهم ويذهبوا إلى المراحيض العامة على بُعد خطوتين منهم. وحين عملت كفتاة لقاء مسكن ومأكل، غيّرت الحفاضات، ومسحت الأنوف، وألبست أجساداً مصابة بالارتعاش وواجهت نوبات غضب.

لكن ما كان بمقدور أيّ شيء أن يُعدّ أنطوانيت لهذا القسم.

نظرت إليها المعالِجَة المساعِدَة بابتسامة.

- أعتقد أنكِ تستحقين فنجاناً من الشاي، يا أنطوانيت. سنأخذ استراحة.

وهي ممتنّة، انضمّت إلى الحلقة الصغيرة المؤلّفة من فريق يعمل في وحدة خرف الشيخوخة. صبوا الشاي المحضّر على أصوله ووزعوا البسكويت، وظلت جالسة تمضغ بسرور، شاعرةً أنّ الآخرين قبلوها بيُسر، وهو الشعور الأول من نوعه منذ عدة أشهر.

شرعتْ الممرضات يقدِّمن لها المزيد من الشروحات حول المريضات. أغلبهن غير قادرات على ضبط أنفسهن، أخبرنها، وأخريات فظات شفهياً وجسدياً في آن معاً.

إن كنّ يحاولن إخافتي، فلن يستطعنَ، فكرت أنطوانيت.

- ماذا تريدون أن أفعل الآن؟

- ساعدينا وكوني مفيدة بالكامل. سنخبركِ بما نحتاجه بالتدريج، أجابت الممرضة المسؤولة عن المجموعة، قبل أن تضيف بابتسامة مشجّعة: لقد أبليتِ بلاءً حسناً حتى الآن.

ساعدتْ أنطوانيت في تنظيف الأرض، وترتيب الأسرّة وتغيير ملابس شاغليها. وخلال ساعات عملها المنهك، راحت تحاول التحدث إلى بعض المريضات. جلست مع أكثرهن هدوءاً ومشّطت شعرهن، وغالباً ما كانت الحركة الرهيفة للفرشاة المترافقة مع نبرة صوتها يهدئانهن. فتتلقى تارةً ابتسامة، وتارةً أخرى سيلاً من الشتائم البذيئة.

لكنها ظلّت تتخوّف من العادات التي سيطرت على الكثيرات منهن. كانت قد شاهدت رضعاً يلعبون بمحتوى حفاضهم،

ويستخدمونه كعجينة للقولبة. هنا، كان هذا مكافأة الهَرَم وليس الولد الظريف، ولا الجذاب، خاصة وأنهن قادرات على البصاق والشتم، وأيضاً على قذف المواد القذرة بدقة مذهلة.

- تسأل أنطوانيت بيأس رفيقتها المعالِجَة المساعِدَة: أودّ أن أعرف لماذا هنّ بارعات في التسديد حين يتعلّق الأمر بقذفنا بأشياء على وجهنا وخرقاوات حين تمسك أيديهن الطعام؟

اكتفت مرافقتها بالابتسام لها ومسحت وجهاً آخر متغضناً تغطيه بقايا العشاء.

مرّ النهار بسرعة كبيرة وصاحبه إحساس متزايد أنها أنجزت أمراً ما. لم تشعر منذ زمن طويل أنها مفيدة. وفي نهاية النهار، فاجأت الممرضة الرئيسة وهي تقول لها أنها ترغب بالعودة ثانية.

وخلال أسابيع عملت فيها هنا، كسبت الثقة وشعرت بالامتنان يغمرها كلّما أضاءت ابتسامةٌ وجهاً ينظر إليها. وسرعان ما نسيت الرائحة المقيتة وتعلّمت احترام الممرضات اللواتي يعملن في هذا القسم. فهذه المهمات لا تقصم الظهر وحسب، لكنها فوق ذلك تعرِّضهن للمخاطر.

كان من السهل الاستخفاف برشاقة السيدات العجائز بلا أسنان، وكان يمكن للثّاتهن المتصلّبة بسبب العمر أن تُحدث كدمات مؤذية على معصم عارٍ يغامر بالاقتراب أكثر من الحدّ.

عرفت بسرعة أسماء جميع النزيلات، مع أنهن لم يتذكّرن قط اسمها. كانت تساعد في إطعامهن، وتنظيف وجوههن وتبديل أغطيتهن. وراحت في أثناء عملها تبتسم تقريباً لجميع المقيمات وتهدّد أخريات بإصبعها حين يلطّخن لوازم السرير.

أوه، أوه، لا تزالين بشعة، تقول لهن حينذاك. أصبحت خبيرة لتنحني في الوقت المناسب حين تستشيط مريضة في الثمانين غضباً وتقذف أقرب صاروخ إليها أو توجه بصقة كبيرة كثيرة اللعاب.

لكنها شعرت على وجه الخصوص أنها مقبولة كعضو في الفريق.

وفي المساء، تعود إلى قسمها متعبة، وتستأنف ألعاب الورق. ظنّت رفيقاتها أنهم يعاقبونها بإرسالها إلى العمل. لم تنفِ أنطوانيت ذلك وراحت تتغذى من تعاطفهن.

وبعد أن احتسَت آخر مشروب ساخن، تهاوت على سريرها منهكة. لم يفلح حتى اصطكاك الأسنان أو الشخير أو الصرخات في إبقائها مستيقظة.

# 34

وهي نصف غافية، تحسَّست أنطوانيت بلسانها المتهيّب داخل فمها. بدا مختلفاً، ينقصه شيء ما. وحين لمس لسانها السنَّين الأماميين، فهمت. أحد التيجان التي ركّبتها قبل عام سقط.

تناولت من دُرجِها مرآةً صغيرة وتفحَّصت وجهها بقلق. أكَّدت صورتها مخاوفها؛ وبدل الابتسامة المشرقة التي تتفاخر بها، لم يبقَ سوى جذعٍ صغير مبرود.

فتّشت سريرها، بلا جدوى، وفكرت عندئذٍ بقلق أنها ابتلعته أثناء نومها.

كانت أنطوانيت قد رأت ما يحدث في هذه الأقسام حين تشعر مريضة بألم في أسنانها. تستدعي المشفى بكلّ بساطة طبيب أسنان مقيم يقتلع بسرعة السنّ المُعاب.

لقد فهموا منذ زمن طويل أنه من الأسهل والأقل كلفة إجراء عمليات قلع سريعة بدل ترميم العديد من الأسنان المنخورة للمقيمين سيّئي التغذية. لم يكن أيّ عضو في فريق العاملين يريد القيام بمهمة محاولة إبقاء مريض مضطرب هادئاً أكثر من بضع لحظات متواصلة كي يتيح لطبيب الأسنان معاينة السن المنخور.

لم تكن كلمات مثل «افتح فمك أكثر» و«هذا لن يؤلم» تعني شيئاً لمعظم المرضى.

كل صباح، تأتي عربة تحمل أطقم أسنان عائمة في كؤوس الماء، وعلى كلّ كأس سجّل اسم صاحبته. وقبل أن يقودوا النساء إلى حجرة الحمام، كان طاقم الموظفين النهاري يحشر الأسنان الصناعية بشكلٍ سيىء الترتيب في الأفواه المفتوحة. وأمام هذا الطقس الصباحي، سألت أنطوانيت إحدى الممرضات عن سبب حيازة الكثير من النساء الثلاثينيات، لا بل أقل، لأطقم أسنان. أجابتها الممرضة بطريقة براغماتية أن المسكّنات السائلة تسبّب تراجعاً في اللثتين، ما يضعف الأسنان.

ومن جهة أخرى كانت الأسنان الصناعية أسهل للصيانة، لأنها تجنّب المريضات الشعور بألم الأسنان، استنتجت، دون أن يهتم أحد في العالم بهذا العار الإضافي.

صمّمت أنطوانيت ألّا ينتهي بها الحال إلى فم تملؤه الأسنان الميتة على طراز الدار، وعزمت ألّا تدع طبيب الأسنان في المشفى يقترب منها تحت شعار «نحن نقلع، ولا نصلّح». ما زال لديها بعض المال المدّخر وأرادت الذهاب لزيارة طبيب الأسنان الخاص الذي وضع لها تاج السن. لذلك ناشدت بالتالي الراهبة الرئيسة وقدّمت لها التماسها.

توقّعت أن تضع العصي في الدواليب ولكن أذهَلَها الردّ.

- أجل، يجب استبداله، وافقتها الراهبة، وهي تعاين قطعة

السن الباقية. كم كلّفك هذا في المرة الأولى؟ إذا كان لديك ما تدفعينه، لا أرى سبباً لوجود مشكلة. ستكون الصعوبة الأساسية في إيجاد شخص يرافقك في الذهاب والإياب. سأهتم بالأمر يا أنطوانيت.

وبعد بضع ساعات، زفّت لأنطوانيت الخبر السار. وافقت إحدى ممرّضات قسم خرف الشيخوخة أن ترافقها إلى العيادة خلال وقت فراغها.

- سأتصلُ شخصياً بطبيب الأسنان، اقترحَت الراهبة، وسأتدبّر أمر سيارة إسعاف لتقلك.

لم يكن بمقدورها أن تتخيل ما تعنيه مبادرتها اللطيفة لمريضتها المفضّلة.

رَكَنَتْ سيارة الإسعاف في الشارع أمام العيادة، مشيرة بوضوح إلى قدوم المريض. ومع أنّ الممرضة المرافقة لها ترتدي ثياباً «مدنية» وأنطوانيت لا ترتدي الزيّ الموحّد للمشفى، لكن طبيب الأسنان كان يعرف حقّ المعرفة مَن أخذ الموعد وأن الأمر يخصّ مُقيمة في المشفى النفسي.

- أنا أصحب أنطوانيت إلى موعدها، أخبرت الممرضة عاملةَ الاستقبال بلهجة صلفة.

- تفضلا بالجلوس، سأخبره أنكما هنا.

كانت عاملة الاستقبال في غاية التهذيب، لكن أنطوانيت لاحظت شحوب لونها حين سارعت لإخطار ربّ عملها أنّ موعده التالي وصل.

مع أن أنطوانيت ارتدَت أجمل لباس عندها، لكنها عرفت فجأة أنها باعتبارها مريضة في مشفى نفسي حَوَّلَها من زبونة تدفع، وتستحق الاحترام، إلى كائن مخيفٍ إلى حدٍّ ما.

من الواضح أنّ المشفى لم ترَ أنّ حالتها تحسَّنت بما يكفي لتستطيع الذهاب وحدها إلى العيادة، وأن طبيب الأسنان سيستخلص من ذلك استنتاجاته الخاصة. لم تفكر، لا هي ولا الراهبة الرئيسة، في هذا الأمر حين أخذت الموعد.

بعد بضع دقائق أدخلوها إلى غرفة الطبيب. حين جاءت سابقاً، كانت الأحاديث الودية تسير على ما يرام، لكن نظامه الجديد المعتمد استبدل تلك المودة بهيئة باردة ومهنية.

- افتحي فمك، أمرَها، فأطاعت.

وبعد أن عاين أسنانها، قال من دون مجاملة:

- ينبغي حشو هذا السن. يجب سحب العصب، ثم يمكننا وضع تاج له.

لاحظت أنطوانيت أنه لا يتحدّث إليها، كان يوجِّه كلّ شروحاته إلى الممرضة. وحتى لو كان هذا الفم هو فمها، لم تكن تبدو أنها موجودة في نظره.

هل يعتقد أنّ وجودي في مشفى نفسي يجعلني غير قادرة على السمع أو الاستيعاب؟

الكلمات التالية أقلقتها.

- من فضلك أمسكي لها يديها، أيتها الممرضة.

وبينما راحت تتساءل لماذا يجب إمساك يديها، شعرت بقبضة

قوية تشدّها، وبدلاً من وخزة إبرة مخدِّر في لثتها، أحسَّت بألم فظيع يجتاح فمها. تحركت على الكرسي كي تُظهر تألمها، لأنه عندئذٍ سيتوقف.

كانت ترفض أن تصدِّق أنه سيسبِّب عمداً عذاباً فظيعاً إلى هذا الحدّ. وخدشت أظافرها عن غير قصد يدَ الطبيب.

- أمسكيها بقوة أكبر، قال مستاءً، وشعرت بغضبه ونفاد صبره من واجب معالجتها.

حين حرَّرتها الممرضة أخيراً، كانت لا تزال ترتجف من شدّة الألم. لم تستطع أن تصدق أنه أقدَمَ على فعل شيء كهذا، ولا أنها نجحت في تحمّله. علمت فيما بعد أنه سحب عصب سنها ولم يرَ ضرورة لزرق مريضة مصابة باضطرابات عقلية بإبرة مخدرة.

وبينما راح ألمها يخفّ، اجتاحها شعور أسوأ بكثير. الإهانة الكاملة لأنها عوملت كشيء مجرّد من الأحاسيس.

غرزت أصابعها في راحتيها لتتمالك نفسها عن البكاء بينما كانت تسمعه يتحدث إلى الممرضة ويأخذ موعداً آخر لوضع التاج.

غادرت العيادة على ساقين لا تزالان ترتجفان وقفزت بارتياح إلى سيارة الإسعاف. لم تعُد ترغب الآن إلا بشيء واحد، أن تجد الأمان في قسمها. أسندت رأسها إلى المسند وأغمضت عينيها.

عند عودتها إلى جوّها العائلي، برّرت عدم رغبتها في الكلام بالألم. لم يكُن بوسعها أن تسرد بالتفصيل الطريقة التي عوملَت بها. وفجأة، تغيّر إحساسها بالمشفى.

صارت مكاناً يمنعون الخارج من دخوله، وليس مكاناً يحتجزون المرضى فيه. أصبحت تراها الآن مكاناً موثوقاً تشعر أنها مقبولة فيه وأنهم يهتمون بها فيه.

فلماذا سترغب بمغادرته حين يكون العالم الذي ينتظرها في الخارج قاسياً إلى هذا الحد؟

# 35

حين التقت أنطوانيت أوّل مرة الطبيب النفسي من أجل جلساتها الأسبوعية، تأمّلته بحذر. كانت دفاعاتها متأهّبة، لأنها توقعت رجلاً متسلّطاً، يسعى أن يفرض عليها تأويله الذي شكّله عن طفولتها. لكنها اكتشفت رجلاً يقارب الأربعين، يرتدي بطريقة لامبالية، ابتسامته الدافئة خفَّفت فوراً مخاوفها.

طرح عليها أسئلة، وعلى العكس من الأطباء الأكبر سناً في الجناح النفسي، أسند ظهره إلى مقعده وانتظرها أن تجيب.

شرح لها بوضوح أنه ليس عليها أن تُعطيه تفاصيل ماضيها، كان بوسعه أن يتصوّرها لوحده. ما يريده، هو فهم تأثيرها عليها وما جعلها مريضة إلى هذا الحدّ. طلب منها أن تُرشده كيف يساعدها في إعداد نفسها للمستقبل. ثم طمأنها مؤكداً لها أنها حالما تشعر بالانزعاج في أي لحظة، عليها ألّا تتردّد في إخباره. هذه هي الاستراتيجية التي يتمنى تطبيقها معها. وأخيراً، انتهى إلى إراحتها حين سألها إن كانت تعتبر نفسها راضية عن برنامجه في المساعدة النفسية.

حين أعرب لها عن احترامه لشخصيتها ولرغباتها، كسب أنطوانيت تماماً إلى جانبه.

خلال جلساته معها، صَدَقَ في كلامه، فلم يسألها إطلاقاً عن سبب تحويلها ولم يطرح عليها أي سؤال متطفل عن الاعتداءات التي كانت ضحيتها. طرح عليها العديد من الأسئلة حول مرحلتها الدراسية وبدا أنه اهتم بتقدّمها في المدرسة أكثر من اهتمامه بما كابدته.

تطرّق إلى موضوع عملها في المشفى وسألها إن كانت تريد أن تعمل مع أشخاص مصابين باضطرابات عقلية.

- أخبرتني الراهبة أنكِ لطيفة جداً مع الأشخاص المسنين في قسم خرف الشيخوخة. سيكون بوسعك أن تتلقي تأهيلاً في هذا المجال إن كان يهمك.

- أحبهم حباً جماً، لذلك هو ليس عملاً صعباً بالفعل. ومن جهة أخرى، يتيح لي أن أخرج من القسم ويمنحني ما أنشغل به.

فكّرت لبرهة.

- لا. ليس هذا ما أريده حقاً. في نهاية المطاف، -وابتسمت ابتسامة عريضة- سأنتهي إلى عدم التفريق بين مَن هم مرضى ومَن هم غير مرضى.

وعلى غرار الممرضات، حاول أن يستدرجها إلى حديث قد تُخبره من خلاله ما ترغب فعلاً أن تقوم به فيما بعد.

لكن فكرة المغادرة كانت تُرعبها ولم تشعر أنها جاهزة لمواجهتها.

في ذلك اليوم، قال لها:

- لقد تحسَّنَتْ حالتكِ تقريباً يا أنطوانيت، ونودّ أن نجد وسيلة

لمساعدتك على مغادرة هذا المكان. فكِّري بالأمر وسنتحدث مرةً أخرى بعد بضعة أيام.

لكن دون أن يدري الطبيب والمريض، تسارع الزمن. تضافرت أحداث خارجة عن سيطرتهم لتُرغم أنطوانيت على الاختيار بين حياة وراء جدران الآجر العالية للمشفى أو مواجهة جديدة مع العالم الخارجي.

شهد روتينها أوّل إشارة على التغيّر بعد أسبوع، حين استدعتها الراهبة الرئيسة وهي تغادر للعمل. عندما دخلت أنطوانيت إلى المكتب، أغلقت الراهبة الباب وراءها.

- لن تذهبي إلى قسم خرف الشيخوخة اليوم، بدأت الحديث. الطبيب يريد رؤيتكِ. يجب أن يناقش أمراً مهماً معك.

صمتت، ثم انحنت فوق طاولة المكتب لتؤكِّد على أهمية كلامها القادم.

- هل تتذكرين يا أنطوانيت ما قلته لك عندما وصلتِ إلى هذا القسم؟

- أجل. قلتِ لي إنّ هناك الكثير من القصص الحزينة هنا.

- وماذا غير ذلك؟

ثم، دون أن تنتظر، أجابت بدلاً عنها:

- وآمل أن تعتمدي على عدد نجاحاتي. أريد أن تتذكري هذا عندما تذهبين لرؤية الدكتور.

وبعد بضع دقائق، جلست أنطوانيت في عيادة الطبيب النفسي، مصعوقة. لقد وقع عليها الخبر كالقنبلة.

- سيحجز عليك والداك يوم الثلاثاء، قال لها بهدوء. لنقل بعد أربعة أيام.

شرح لها أنه ناقش الوضع مع الراهبة الرئيسة قبل أن يُخبرها. قد تصبح مهنته في خطر إذا تناهى إلى سمع السلطات في المشفى أنه أخطر مريضاً بقرارٍ اتخذه إداريون وأهل قاصر، لكنه يعتقد أن أنطوانيت تستحق العناء.

- يجب أن تفهمي ما قد يغدو عليه مستقبلكِ إذا سمحتِ بأمرٍ كهذا. حتى هذه اللحظة، هنالك أناس إلى جانبك حموك إلى حدّ ما من واقع حياةٍ في قسم الإقامات الطويلة. حاولت الراهبة أن تساعدكِ بكلّ الطرق. لكنهم إذا أرسلوك إلى قسم آخر أو خصَّصوا لك طبيباً نفسياً آخر، واحداً من المدرسة القديمة، ستزول هذه الحماية. وباعتبارك مريضة محجوز عليها، ستكونين عرضة للصدمات الكهربائية ولتناول أدوية مثل البارالديهيد. هكذا يُبْقُون المرضى هنا. ينوّهون دوماً في ملفك إلى أنك هاجمت مريضاً من دون أن يستفزّك. وحتى لو لم تقدِّمي لهم أية ذريعة ليصفوا لك صدمات كهربائية أو يعطونك مسكّنات، فإن قضاءك هنا بضعة أشهر أيضاً، سيجعلك تعتادين على حياة الإقامة وستصبحين عاجزة عن استئناف حياة طبيعية.

ابتسم لها وأخبرها بما لم يسبق لأحد في المشفى أن عبَّر عنه.

- لا تعانين من شيء. أنتِ إنسانة طبيعية تماماً تأثّرتْ بوضعٍ غير عادي، وضعوك مرتين في المشفى بسبب اكتئاب، لكنكِ كنتِ ببساطة تعيسة جداً. كنتِ ضحية أحداث لا يدَ لكِ فيها. شعرتِ بالتأكيد أنك منبوذة، كنتِ منبوذة، من عائلتك، من مدرستك،

ورفاق مدرستك، وحتى من الناس الذين استخدموكِ. مشاعرك طبيعية تماماً بعد ما قاسيته. كان الغضب الذي شعرتِ به يبيّن أنكِ في سبيلك للشفاء. يمكنكِ أن تغضبي من الناس الذين عاملوك على هذا النحو. ستتحسن عدم ثقتك بنفسك، فسبَبها طفولتك. هذا هو الحال الآن. أنتِ تستحقين الاحترام على الأمور التي أنجزتِها، على ذهابك إلى المدرسة ولأنك دفعت نفقاتك المدرسية الخاصة من أجل دروس السكرتاريا.

«أما بالنسبة إلى البارانويا، تابعَ، فإنه ليس المصطلح الذي يمكنني استخدامه لوصف ما تعانين منه. لقد قلتِ لي إنك تَحذَرين الناس؛ أعتقد أن هذا مفهومٌ تماماً. كنتِ تشعرين أن الناس يتحدثون عنكِ، وإذا كان هذا أحد الأعراض الكلاسيكية للبارانويا، فإنه كان صحيحاً في حالتك. كانوا يتحدثون».



انحنى وأضاف بوقار:

- لم تبلغي الثامنة عشر بعد. أمامك الحياة بطولها. لا تضيّعيها ببقائك هنا يا أنطوانيت. أحد أسباب مرضك هو أنك كنت تعتقدين أنك لا تسيطرين على شيء في حياتك. حسنٌ، يمكنكِ أن تفعلي ذلك الآن. عليكِ أن تقرّري الإمساك بزمام مستقبلك وأعرف أنك قادرة على ذلك.

ثم أخبرَ أنطوانيت بحقوقها، التي لم تكُن تعرفها حتى الآن.

- ألا تعرفين أنك ما زلتِ موجودة هنا بإرادتك؟ هذا يعني أنه يحقّ لكِ التوقيع على خروجك. لقد أخبروا أهلك بتحويلك من الجناح النفسي، لكن لم يسنح لهم الوقت إلّا الآن ليقبلوا المجيء إلى المشفى ويوقّعوا على استمارات الموافقة. أنتِ لا تزالين حرة

في الخروج من هنا. غداً، سأكون الطبيب المسؤول عن الحراسة وهذا يعني أنكِ إذا قرّرتِ التوقيع على خروجك، فإنكِ ستتوجَّهين إليّ.

مرّت أنطوانيت بسيلٍ من الانفعالات المختلفة وهو يتكلم. أحسّت بصدمة حين علمت أنّ والديها يعرفان بتحويلها، وبالهلع حين رأت أنهما مستعدّان للتوقيع على استمارة احتجازها. ثم بالتشويش والاضطراب بإزاء القرار الذي يترتب عليها اتخاذه.

- كنتُ أودّ ألّا أستعجلك وألّا أنقل لكِ الخبر بهذه الطريقة. لكن ليس لدينا وقت. أريد إقناعك أنّ مستقبلك هو خارج جدران هذا المشفى. أريدكِ أن تجلسي في مكان هادئ وتفكري بكلّ ما قلته لكِ. مستقبلكِ بين يديك. ستعدّ الراهبة الشاي والسندويش لكِ وستُجلسكِ في صالون الزوار. خذي وقتكِ وبعد أن تفكري جيداً، آمل أن تخبرينها أنك تريدين المغادرة. إن فعلتِ ذلك صباح الغد، ستحضركِ إليّ وكذلك إلى الطبيب الثاني الذي لا بدّ أن يكون موجوداً. عليكِ أن تخبرينا أنك تمارسين حقكِ في التوقيع على خروجك باعتبارك مريضة محتَجَزَة بإرادتك.

«أنطوانيت، أعرفُ أنك ستتخذين القرار الصحيح. حين تغادرين، لا تستخفي بنفسك ثانية أبداً. لقد صمدتِ في طفولتك، وصمدتِ في حياتك هنا. وهذا بحدّ ذاته تجربة يصعب على معظم الناس مواجهتها».

وبابتسامة أخرى مشجّعة، أرسل في طلب الراهبة، التي رافقت أنطوانيت من عيادته إلى صالون الزوار، وهي حجرة قلّما يستخدمونها، فيها مقاعد مريحة، حيث لا يزعجها شيء.

أحضرت لها الراهبة الشاي والبسكويت، ابتسمت ثم شدَّت بلطف على كتف أنطوانيت وهي تُعيد كلام الطبيب.

- أعرف أنك ستتخذين القرار الصحيح، يا عزيزتي، القرار الذي نتمناه كلنا لك.

ثم غادرتْ، تاركةً أنطوانيت وحدها لتأخذ وقتها في هضم كلّ ما قاله لها الطبيب النفسي.

كانت تدرك بمنتهى الوضوح أنّ القرار الذي ستتخذه في الساعات القادمة، أياً كان هذا القرار، سيحدِّد مسار حياتها.

# 36

كانت أنطوانيت تعرف أنّ العزلة واليأس قاداها إلى المشفى مرتين. وطوال الوقت الذي أمضته في تلك الأقسام، أحسَّت أنها محميّة وفي أمانٍ بآن معاً، وفي غضون ذلك، كانت كتلة العقد الشائكة التي تربك ذهنها تنحلّ بالتدريج.

لم تكن قد غامرت خارج أسوار المشفى، ما خلا تلك الزيارة المشؤومة إلى طبيب الأسنان. لم تستقبل أيّ زائر منذ تحويلها وفقدَت التواصل مع الأشخاص القلائل الذين عقدت معهم صداقات خجولة. لم تأتِ أمها لرؤيتها ولا مرة.

وكلما تقلّص عالمها ليقتصر على جدران المشفى، ازداد شعورها بالأمان. هنا خلقت لنفسها ما يشبه حياة، لم تكن فيها وحيدة قط. أصبح لديها عادات، وصداقات مع الممرضات ورفقة دائمة. ولأوّل مرة منذ سنّ الرابعة عشر، تشعر أنها مقبولة من الناس الذين عرفوا ماضيها، وهو ما تظن أنها لن تستطيع العثور عليه ذات يوم في العالم الخارجي.

فكّرت بالحديث الذي دار بينها وبين الطبيب منذ قليل. كان شيء ما غير محدّد يُقلقها وتُريد أن تضع إصبعها عليه لتدرسه.

كرَّرت كلماته في سرّها، وحين فهمت معناها، صعَقَها ما حاول الطبيب أن يقوله لها.

لقد قال إنها موجودة هنا بإرادتها.

وما كان لمريض موجودٍ بإرادته في جناحٍ نفسي أن يُحَوَّل إلى المبنى الرئيس من دون تصريحٍ من وليّ أمره الشرعي. وقد أشار الطبيب بوضوح أنّ والديها أُخْطِرا بتحويلها. لا بد أنهما أخبرا المشفى باستعدادهما للحجز عليها إذاً.

ولم تكَد تستوعب ذلك حتى تدفَّقت أسئلة أخرى، تتبعها أجوبتها.

مَن كان يفتح كل البريد في منزل أهلها؟ ليس والدها، لأنه أمي عملياً. لا، إنها أمها.

ومَن كان يجيب على الهاتف؟ أمها. كان والدها يرهب هذا الجهاز وكان يتجاهل دوماً رنينه المزعج.

إذاً مع مَن تحدَّث المشفى يوم قرَّر الجناح النفسي أنّ مرضها تفاقم ممّا يستدعي نقلها منه؟ مع أمها.

عليكِ أن تتقبَّلي ذلك، والآن! أنّبَت نفسها. ليس أبوكِ وحده مَن أراد التخلّص منكِ.

هذه هي الحقيقة، فهمت أنطوانيت، التي تهرّبت منها طيلة حياتها: لم يكن حبّ أمها لها يساوي شيئاً. ولم تتلقَّ منذ أحد عشر عاماً دليلاً على الحب من جانب أبيها، لأنها تقبّلت منذ زمن طويل أنه رجل لاأخلاقي وفاسد. ولذلك توقفت عن التساؤل عن السبب أو إيجاد أعذار له. بيَّنت لها الأشهر التي أمضتها في المشفى أنه

يوجد أناس لا يمكن تفسير سلوكهم بطريقة عقلانية؛ لأنهم صُنِعوا هكذا.

لكنها أملت بخلاف كلّ توقّع أن أمها كانت تحبّها رغم الطريقة التي عاملتها بها، وأغمضت عينيها بإرادتها عن حقيقة الوضع والواقع القاسي لسلوك أمها. لم يعُد ذلك ممكناً في الوقت الحاضر. حان الوقت لمواجهة ضعف وخواء حبّ أمها لها. وترتَّب عليها أن تستوعب أنّ هذا ما كادَ يحطّمها مرة ثانية.

خلال طفولتها المبكرة، كانت كلّ حياة أنطوانيت تدور حول أمها. فهي مَن تحتضنها حين تقع وتمسح دموعها حين تبكي. وكلّ مساء، هي مَن كانت تحمّمها، وتغسل بالماء والصابون وجهها الناعم ثم تحملها، مدثَّرة بمنشفة زغبيّة الملمس، إلى الغرفة فتنشفها وترشّها ببودرة مطرّية للبشرة.

كانت روث تحضنها في سريرها وتقرأ لها قصة قبل أن تخفّف نور المصباح وتتمنى لها ليلة طيبة مع قبلة. راحت تتذكر أمها وهي جالسة على أريكة، ومصباح على منضدة صغيرة بجانبها، يضيء بنوره رأسها المطأطأ وهي تضع اللمسات الأخيرة على الفستان الأخير الذي خاطته لابنتها.

كان عطر أمها المألوف، الفواح من مسحوق ممزوج بعبير الياسمين الدائم، ينعشها، تماماً كدفء جسدها حين تهدهدها. كانت ذراعاها هما اللتان تحتضنان أنطوانيت، وقلبها هو الذي يخفق على صدر ابنتها الصغير وصوتها هو الذي يُحدِّث الفتاة الصغيرة عن الجنيات والسحر حين تقرأ لها قصصاً بصوت عالٍ.

ويَد روث هي التي أمسكت بحزم يدها الصغيرة حين كانتا تجتازان طريقاً - «من أجل سلامتك»، تقول لها.

كانت تلك الأم هي الأم التي أحبَّتها أنطوانيت. تلك الأم لم تعُد موجودة، لكنها رفضت دوماً أن تتقبَّل ذلك. في الحقيقة، توقفت عن أن تكون تلك الأم حين كانت أنطوانيت في السادسة من عمرها.

آنذاك حلَّ البرود مكان الدفء، وتلاشت قبلات النوم وكفَّت الذراعان الحاميتان عن هدهدتها. وضعت روث حداً لكلّ شيء يوم أخبرتها أنطوانيت بما جعلها والدها تكابده.

قبل اليوم، حين كانت ذكرى ذلك اليوم تهدِّد بدخول ذهنها، كانت تطردها. أمّا الآن، فتريد سبر أغوارها.

تذكرت صورة الطفلة الصغيرة ذات السنوات الست التي تستجمع شجاعتها لتُخبر أمها أنّ والدها تحرّش بها وقبّلها. كانت الفتاة الصغيرة تعتقد أنه يكفيها أن تنقل الأمر حتى يتوقف ذلك.

راحت تتذكر التعابير التي ارتسمت على وجه روث ذلك اليوم: تلاشى الحب وحلّ مكانه الغضب والخوف. لكن وجهها، وقد أدركت أنطوانيت هذا اليوم فقط، لم يعكس المفاجأة ولا الصدمة.

هذه المرة، لم تطرد ذكرياتها. كانت تعرف أنّ عليها مواجهتها لأنها تريد أن تدرس الدور الذي لعبته أمها في حياتها.

مَن كانت أمها؟ تذكرت الأم المهتمة بطفولتها المبكرة، تلك التي عبدتها. ثم تذكرت روث الباردة والمتحفظة لسنوات من الاعتداءات حتى نهاية القضية. أخافتها تلك الأم.

ثم وُجدت الصديقة في جولات الضحك والمسامرة لعامين أمضتاهما سوية في بيت الحارس. وأخيراً، هنالك الأم التي خانت

ثقتها بها، تلك التي استعادت زوجها، ورمت ابنتها إلى الشارع وعملت على احتجازها في مصح.

ذكرى أخرى انبعثت. حين جاءت إلى المشفى في المرة السابقة قبل عدة أشهر، وصلت في حالة انهيار عصبي وغم شديد أفقداها القدرة على الكلام. لكنها شهدت فترة قصيرة من التماسك. فاتصلت بأمها هاتفياً، متوسلةً أن تأتي.

لامت روث ابنتها على أنانيتها، وعلى الطرف الآخر من الخط، سمعت أنطوانيت اللازمة المعتادة المكرّرة على مرّ السنين. لقد كانت مصدراً دائماً للإزعاج، وهذه الإزعاجات قد تقود روث يوماً إلى المكان عينه الموجودة فيه ابنتها.

- أنا مَن يجب أن تكون هناك، وليس أنتِ، قالت أخيراً قبل أن تغلق السماعة.

أي أمٍّ يمكنها أن تقول ذلك؟ أي أمٍّ لا تأتي لزيارة ابنتها في المشفى، ولو لمرة واحدة؟ تساءلت أنطوانيت. وأي فتاة ظلّت تكذب على نفسها وهي تعتقد بأنّ أمها تكنُّ الحبّ لها؟ وظلت تؤمن بشخص توقّف عن الوجود منذ سنوات خلَت.

نجحت أنطوانيت أن تفهم أنّ الذكريات خائنة، وواجهت وهي جالسة في الصالة حقيقة مؤلمة أخرى. اخترعت ذاكرتها أماً محبَّة وحباً مطلقاً لم يوجد قط، ولم تتوقف أنطوانيت قط عن تصديق هذه الذكريات الزائفة. وحين استعصى عليها الاستمرار في هذا الوهم زمناً أطول، جعلت نفسها مسؤولة عمّا اعتبرته تراجعاً مفاجئاً للحنان الأمومي. لا بد أنها ضعيفة، وخبيثة، وعاجزة. لا بد أنّ مفتاح فقدان حبّ أمها يَكمن في داخلها حتماً.

غالباً ما فتحت الصندوق المغلق في رأسها وأخرجت تلك الذكريات عن أمها التي تحميها، وتحرص عليها وتلعب معها. كانت قد طمسَت تماماً المرات التي لم تفعل فيها روث شيئاً من كلّ ذلك.

فهمت الآن أن أمها نجحت دوماً في تقديم الأمور على طريقتها لتُقنعها أنّ نسختها عن الواقع كانت الأفضل.

كانت روث قد حوَّلت البراءة إلى إثم، والضحية إلى جانية، وأجبرت أنطوانيت أن تتقبل هذه الحالة فعلياً. جعلتها متواطئة في إعادة كتابتها للحقيقة.

وهي تجلس في صالون الزوار الصامت، حاولت أنطوانيت أن ترتِّب بقدر ما تستطيع كلّ ما عرفته عن أمها على مدى سنوات.

لو أنها استطاعت أن تفهم لماذا أصبحت روث بهذه القسوة وهذا النفور، لربما ساعدها ذلك على تقبل أفعالها.

ماذا كان يوجد خلف القناع وفي ذهن امرأة متعدِّدة الوجوه؟

هذا هو السؤال الذي تريد الإجابة عنه قبل أن تتحدّث إلى الراهبة أو إلى الطبيب النفسي وكانت تعرف أنه في مكان ما داخل ذكرياتها الدفينة توجد القرائن التي من شأنها أن تقودها إلى الفهم.

# 37

غالباً ما تذكَّرت روث فتوتها في أثناء السهرات المديدة في بيت الحارس.

كانت الابنة البكر بين ولدين، وعمَّدوها باسم وينيفر روث رودن - «اسم فظيع» كانت تقول غالباً، بهيئة امرأة محزونة تعرف أنها عوملت بشكل سيئ.

كانت تتذكر طفولتها كمرحلة تعيسة. فأمها إيزابيل امرأة جميلة ورقيقة أحبّتها أنطوانيت حباً جمّاً كجدة، لكن روث تجدها متسلِّطة.

حتى عندما كانت فتاة صغيرة، كانت تشعر أنّ عدم التفاهم هو السائد بينهما.

- كانت دوماً فخورة بقوامها، تنتقدها روث غالباً.

كان والدها رجلاً وسيماً أسمر تولَّهت به بشكل واضح، وبدا لأنطوانيت أنّ أمها عانت من زواج والديها السعيد.

- كان خاضعاً لها بكلّ تأكيد، قالت باستياء فيما يخصّهما.

ثم أضافت بضحكة احتقار:

- نجحتْ في إقناعه أنها كائن ضعيف يجب الاهتمام به، لكنكِ

تعرفين يا حبيبتي إرادة جدّتك الفولاذية. بالتأكيد، كان خالك بؤبؤ عينيها. أما أنا فكنت المفضّلة عند أبي. بالنسبة له، كنتُ جميلة.

قالت أنطوانيت لأمها ذات مرة أنها ترغب بأخٍ صغير، وأجابتها روث بأنها لم ترغب قط بأخيها. ويبدو أنها قرَّرت وهي طفلة أنّ الأخوة الصغار لا يفيدون في شيء ولم تغيّر رأيها في سنّ الرشد. لم تغفر قط لأخيها الصغير أنه سرق منها اهتمام والديها، وفيما بعد، لم تفلح قط أن تهضم زواجه الجميل وسعادته. ومن الطبيعي أنها قرّرت ألّا تفرض على ابنتها المصير ذاته.

في بداية القرن العشرين، التقط مصوِّر محترف صورة عائلية متكلّفة لجدّي أنطوانيت وأمها وخالها. يظهر فيها صبيٌّ وسيمٌ في السابعة من عمره تقريباً وفتاة صغيرة في سن العاشرة يجلسان عند قدميّ راشدين ممشوقيْن. كانت روث تبدو طفلة كئيبة وعابسة، تميل إلى البدانة. مع ذلك، تتذكّر روث طفولتها المبكرة على أنها زمن سعيد، قبل الحرب العالمية الأولى.

كان والدها المعبود معلّم خياطة لدى غولديرز غرين، وكانت متعة روث الحقيقية أن ترافقه إلى المشغل. وهناك، تشاهد الرجال الذين يشغّلهم جالسين وسيقانهم متصالبة على الأرض، يخيطون بمهارة قطع القماش التي يجمعونها ملابس. كانت الفتاة الصغيرة تشعر أنها مميزة هناك - فهي ابنة المعلم المحبوبة، والمدلَّلة من جميع الرجال الموجودين. كانوا يعطونها قصاصات من القماش، ويظهرون لها كيف تُخاط، وهناك تعلَّمت كيف تفصّل الأثواب.

كانت تفضّل أن تكون محطّ اهتمام الخياطين أكثر من أن تكون في المنزل، مع أم لا تحبّها، وأخٍ تحقد عليه.

وعندما أصبحت روث في العشرين من عمرها، توفّي والدها فجأة. فأعياها الألم. لم يكن والدها إلّا في الخمسينيات من عمره ولم يكُن موته متوقعاً نهائياً.

- أصابته جلطة دماغية، تقول روث بحزن لابنتها في كلّ مرة تتحدثان فيها عن أهمّ شخص في حياتها. كان يعمل عملاً شاقاً. ويحاول دوماً أن يسعدها، هي بالذات، أضافت بمرارة.

كانت أنطوانيت تعرف أنها تتحدث عن أمها، إيزابيل، وأنها بطريقة معينة، تحمّلها مسؤولية وفاة والدها.

أصبح أهل البيت ضائعين تماماً من دون رب أسرة. شقيق روث، الأصغر منها بثلاث سنوات والمتمتع بهيئة جسدية بشوشة، وطبيعة ودودة وحبيب والدته، صار الآن رجل البيت. وشعرت روث، التي كانت لا تزال تعيش في منزل عائلتها كما هو معتاد في تلك الفترة، أنها أصبحت هامشية.

- كان أخي يعبد أمنا، تماماً مثل أي رجل، قالت بحقد دفين. حسنٌ، لقد تزوج امرأة تشبهها.

وفيما بعد، حين كانت أمها تتذكر زوجة أخيها، تشعر أنطوانيت بحقدها عليها من دون أن تفهمه.

كانت تتذكر فقط امرأة فائقة الجمال استقبلتهما دوماً بالترحاب حين كانت روث وهي تأتيان في إحدى زياراتهما النادرة إلى شقة خالها اللندنيّة.

نشبت الحرب العالمية الثانية، مخلّفة وراءها علاقات حب عابرة وزيجات سريعة. وبعد ثمانية عشر شهراً على إعلان الحرب، تزوج شقيق روث ورزق بطفل.

أما روث، التي تكبره بثلاث سنوات، فبقيت عانساً - «اسم فظيع آخر»، نفخت متأفّفة. كانت قلقة من ألّا تتزوج أبداً وتغار من أخيها الذي حقّق ما كانت ترغب به: أن تتزوج بعرس على الأصول. لم يكن بقاؤها عازبة إلى ما يقارب سن الثلاثين مصيراً مرغوباً في عصر يُحْكَمُ فيه على النساء من خلال قيمة أزواجهن.

لكن الحرب ملأت حياة روث بالإثارة والمغامرة والفرص، وغالباً ما ستقول فيما بعد أن التجارب التي خاضتها آنذاك كانت أسعد تجارب حياتها. روت مساهمتها في المجهود الحربي وهي تعمل في مزرعة. وهناك، بعيداً عن ظلّ أمها وأخيها، انطلقت روث وحظيت بصديقات.

مع ذلك كانت مُدرِكَة لسنّها، ولعدم وجود خطيب في حياتها تتبادل معه الثرثرات العادية. وحتى تتجنب أن يشفقوا عليها، اختلقت واحداً وقالت لصديقاتها أنه قُتل في الحرب. وحين روت القصة لأنطوانيت بعد عشر سنوات، كادت هي نفسها أن تصدقها.

أم روث، إيزابيل، هي مَن كشفت لأنطوانيت أنّ هذا محض خيال. كان «الخطيب» جندياً متزوجاً تقاسم ذات يوم الكاتو والشاي مع روث في مقهى صغير.

- أشعر بالقلق عليها أحياناً يا أنطوانيت، أسرَّتْ لها جدّتها. إنها تختلق أموراً وتأخذ بتصديقها.

وخلال الحرب، التقت روث زوج المستقبل في مقاطعة كونت. كانت قد ذهبت إليها مع زميلاتها للمشاركة في حفلة راقصة جانبية. في ذلك المساء، ارتدت فستاناً لائقاً مع سترة قصيرة فصَّلتها وخاطتها بيديها.

وجدته صديقاتها رائعاً وزاد انبهارهن حين علمن أنها صَنَعته بنفسها.

وخلال هذه السهرة الحارّة واللامعة في نهاية يونيو، جذب انتباه النساء مجموعة جنود شباب ببزات الكاكي المكوية بإتقان، وبدوا لهن أجمل بكثير من الرجال الذين اعتدن على معاشرتهم. جلسن غير بعيدات وألقين نظرات مواربة على الجنود الشبان. أحدهم على وجه الخصوص أثار فضولهن: عينان برّاقتان، وابتسامة سلسة وخصلات شعر صهباء داكنة ولامعة مثل حذائه الصقيل تماماً. وعلى الأخص، حين رأينه يرقص الفالس مع شريكته على مدار الصالة، لم يعرفن قط راقصاً بمثل مهارته.

كان يُدعى جو ماغواير وكن ليفعلن أيّ شيء حتى يأخذهن بين ذراعيه، وقدماه لا تكادان تلامسان الأرض. ظهر فجأة إلى جانب روث.

- هل ترقصين؟ هذه أول كلمات سمعته ينطقها.

بالتأكيد! فكرت، وهي شبه مشلولة لأنه تقرَّب منها هي، وليس من إحدى اللواتي يصغرنها سناً، لكنها حافظت على هدوئها الظاهري، وابتسمت له ابتسامة صغيرة وتبعته إلى حلبة الرقص.

في ذلك المساء، دخل حياتها. بعد تلك الرقصة السحرية، تكفَّل بكلّ الرقصات. وقعت بجنون في غرام العسكري الشاب والوسيم. ولاحظت نظرات النساء الأخريات الغيورة وتلذّذت بها.

لم ترَ روث السنوات الخمس التي تشكِّل فرق العمر بينهما، ولم تسمع لكنته الإيرلندية الغليظة ولم تلاحظ تدني تعليمه؛ فقد

بهرتها هيئته الخلّابة ووقعت تحت تأثير سحرها. في ذلك المساء، وجدت الفتاة العانس ذات التسعة والعشرين عاماً بطلها.

ورأى جو ماغواير، الرجل المتعطش للاحترام والاعتراف به، امرأةً مأمونة بلكنتها البرجوازية، امرأة من صنف لم يأمَل قط أنّ بوسعه لقاءه ذات يوم.

تزوّجا بعد بضعة أسابيع، في الثالث عشر من أغسطس. ولأسباب مختلفة، لم يستطع أي منهما أن يصدِّق حظه. هي امتنّت له لأنه أنقذها من عار العزوبية في سن الثلاثين، وهو ظنّ أنه وجد امرأةً استحقّت إعجابه لطالما رغب بها في مسقط رأسه.

ولولا الحرب، لما التقى أبداً هذان الشخصان غير المنسجمين.

لكن روث اعتبرت أنها حقَّقت أول جزء من حلمها: زوج وسيم. وبعد ثلاثة عشر شهراً، ولدت ابنتهما.

وهي تتساءل عمّا تعرفه عن أمها، أدركت أنطوانيت أنه لم يزل ينقصها قِطَع لإكمال لعبة البوزل.

فتّشت عنها في أعماق ذهنها. وانتهت إلى استخراج اثنتين من الذكريات، وبهما وجدت تفسيراً للّغز الذي تمثّله أمها.

رأت نفسها في صالون الشاي. وهي ترتدي أجمل فساتينها، وكانت أمها قد أنهته في الأسبوع ذاته، جلست بابتهاج على وسادة موضوعة على كرسي. أمّا جدّتها فتجمّلت بمساحيق خفيفة، وارتدت تايوراً شفافاً واعتمرت قبعة لائقة تنسدل منها خصلات شعر مقصّبة بلون أصهب ذهبي.

كانت تقدّم حلوى إلى أنطوانيت وأمها.

كانت روث، بأظافرها وشفتيها القرمزية، تكشف عن تناقض صارخ مع إيزابيل. وكان شعرها المتماوج مكشوفاً وقرطان كبيران يتدليان من أذنيها. في ذلك اليوم، ارتدت فستاناً يكشف جيدها صنعته بنفسها. وطوال فترة ثرثرتهما، بدت المرأتان سعيدتين.

ثم اقتربت امرأة كبيرة في السن من طاولتهما، بدا أنها تعرف جدّتها، واستقبلتها إيزابيل بابتسامة دافئة. وبعد بضع مجاملات، هتفت الغريبة بإعجاب:

- جميلة، لا أعرف ماذا تفعلين. ولكن كلما رأيتكِ، تبدين أصغر سناً، وعندما تكبر هذه الطفلة الجميلة ستشبهك مثل قطرتَي ماء. سيحسب الناس أنها ابنتك وليست ابنة روث!

وبعد ضحكة قصيرة، انصرفت.

شعرت أنطوانيت أنّ الدفء الذي كان يلفّهما تبدد، كأنّ نسمة جليدية دخلت صالون الشاي. وفي غضون بضع ثوان، خيّم صمت مزعج على الجو حتى كسرته روث بتعليق خفيف أبدته بصوت متهدج. حتى وهي في سن الخامسة، عرفت أنطوانيت دون أن تفهم ذلك لماذا أغاظ الإطراء أمها.

تعود الذكرى الثانية إلى فترة أعوامها الثلاثة. كانت تقوم بما تتسلى به كلّ فتاة صغيرة، ارتداء ملابس الماما، اللهو بمساحيق تجميلها والتشبّه بامرأة راشدة. طَلَت وجنتيها بلون ورديّ وفمها بلون أحمر فاقع مثلما رأت أمها تفعل ذلك أغلب الأحيان. ثم شمَّرت فستانها الطويل وذهبت تبحث عن أمها. كانت تريد أن تُريها كم هي جميلة. لكنها حين هرعت نحوها، مادَّة ذراعيها لتحتضنها،

فوجئت. بدل ابتسامة السرور التي كانت تتوقعها، رمقتها روث بنظرة جليدية.

- بهذه المساحيق، تُشبهين جدتك. يخيلُ لي أنّ عينيها هما اللتان تنظران إلي. إذاً ستصبحين أجمل من أمك.

وهي تفكِّر في ذلك وتتذكر ما سمعته ولهجة أمها، عرفت أنطوانيت أنّ أمها لم تحب ما رأته. ولم تعاود اللعب قط في التنكّر.

تشكل هاتان الحادثتان الآن كلاً متكاملاً في رأس أنطوانيت. فهمتْ جيداً أنّ أمها كابدت طيلة حياتها من عدم شعورها بالأمان ومن غيرتها. كانت روث تغار من أمها، وتغار من الحب الذي يكنّه والدها لزوجته، ومن تفاني أخيها تجاه أمها ومن جمال إيزابيل الهش. تضخّمت هذه الغيرة وشملتْ كلّ مَن يصرف الانتباه عمّا تعتبر أنها تستحقه.

وحين لم تعُد ابنتها طفلة صغيرة مطواعة وإنما شخصاً صغيراً، شملتها غيرتها.

من جهة أخرى، كانت لدى روث تلك الحاجة لحماية المظاهر وخوفها ممّا يظنّه الآخرون فيها. لذلك ضحَّت بحياتها وعلاقاتها لتحافظ على وهمٍ أرادت إظهاره للآخرين وتصديقه هي نفسها. اختلقت سلسلة أكاذيب، ووجوداً مزيفاً كان فيه زوجها الوسيم هو رجل تفخر به، وليس شخصاً فظاً جاهلاً اعتدى على طفلتهما.

وهي تُعيد التفكير في حياتها، تقبَّلت أنطوانيت أنّ حبّ روث الأمومي اختفى تماماً بسبب حاجتها إلى حماية حلمها.

كان جو يمارس سلطة مطلقة على زوجته. وقد كرّس منذ زمن

طويل طاقته ليقرأ الأشخاص المحيطين به، ويكتشف هشاشتهم، ثم ليتحكّم بضحاياه.

وزوجته، التي ظلّ ذهنها مركّزاً دوماً على الإيرلندي الوسيم الذي تزوّجته ضد رغبة عائلتها، صارت تحت رحمته تماماً. أراد أيضاً أن يتحكّم بأنطوانيت، وبدأ يحطّمها حين كانت مراهقة تتمتع بتفكيرها الخاص.

وأمام الفشل، لم يعُد يريدها. لم يكن جو يستطيع أن يتحمّل أحداً حوله ليس معجباً به. ولم يرغب أن ينظر في عيني ابنته ويقرأ فيهما الاحتقار. حسبه أن يسمع اسم ابنته حتى يثور غضباً.

واضطرّت روث أن تختار. وفي كلّ مرة، اختارته هو. شهدت وحشيته وسمحت بها. اختارته حتى حين عرفت أنه جعل ابنتهما حاملاً، ورتّبت عملية إجهاض أنطوانيت. جرت تلك العملية بشكلٍ سيئ للغاية وحين استيقظت أنطوانيت في عزّ الليل، وهي تنزف إلى حدّ الموت، قبلت روث أن تخاطر بحياة ابنتها وهي ترسلها وحيدة في سيارة الإسعاف إلى مشفى يقع على بعد عشرين كيلومتراً عن أقرب منشأة. رفضت أن ترافقها خلال تلك المسافة مع أنها تعرف أنها قد تكون الأخيرة. تذكّرت أنطوانيت الصدمة على وجوه المسعفين الذين حملوا النّقالة ونظرة أمها الباردة حينما أُغلقت الأبواب دون أن تصعد إلى سيارة الإسعاف ذات الأنوار الزرقاء الدوارة التي باشرت سباقها ضدّ الزمن.

لا بد أنهم أخطروا روث أنه قد لا يعود بوسع أنطوانيت بعد ما جرى أن تنجب طفلاً. لكنها لم تأتِ على ذكر ذلك قط.

وبعد ذلك جاء الاكتئاب الذي قاد أنطوانيت إلى هنا. ما هو منشؤه؟ وما دفعها أخيراً إلى الانهيار؟

في مراحل مبكرة، اعتمدت استراتيجيات لتواجه المِحَن التي تمرّ فيها. في سن العاشرة، اخترعت حجرة تأوي إليها حين تصبح حقيقة وجودها أقسى من أن تحتملها. في عالمها المتخيّل، وهناك فقط، كان يمكنها أن تتظاهر بحياة تظنّ أنها حياة أيّ طفل طبيعي. هناك، ارتدت ملابس جميلة، وأحاطت بها فتيات صغيرات يثرثرن ويتنافسن على لفت انتباهها، ويرغبن في أن تكون صديقتهن المفضلة.

هناك، كان الجميع يقدِّرونها، ويصغون إليها، وكانت الضحكات تتصادى في الحجرة. كانت الشمس تسطع دوماً حين تلجأ إليها، وتغمرها أشعتها المتسلِّلة عبر نوافذ غير مرئية بضوء دافئ ذهبي.

كان والداها يأتيان لرؤيتها، يحتضنانها بوجهٍ باسم، ويُظهران لها أنها مهمّة بالنسبة لهما. كان الأب اللطيف هو مَن يصل دوماً مع أمها، الرجل الذي عرفته في سنّ الخامسة؛ لا يوجد أيّ أثر للخبث عليه. في تلك الحجرة، كانت أمها سعيدة ولم تكن تظهر على وجهها أيّ تكشيرة استياء. وظلّت جودي جرواً مضحكاً، أما في الركن، فتوجد علب ذكرياتها. علبة تحتوي ذكرياتها السيئة مغلقة بإحكام، ولا يمكن لمحتواها أن يخرج منها، أمّا العلبة الأصغر التي تحوي الذكريات السعيدة، فكانت مفتوحة.

لكن حين كبرت أنطوانيت، تحوّلت الحجرة إلى مكان كئيب، خالٍ من الأصدقاء، تأتي إليه أمها بمفردها. لكنها لم تكن أم أحلامها الطفولية، الأم التي أحبّتها وهدهدتها.

كانت هذه الأم تنظر إليها بجفاء، وعيناها الخضراوان الغامقتان تتّهمانها وتلقيان باللائمة عليها. وفي زوايا الحجرة، انقلبت العلب. وانفتح غطاء العلبة الأكبر حجماً مع الذكريات السيئة، متقيئةً محتوياتها من دون ترتيب، وخالقةً ذهناً مؤذياً اجتاح أحلامها وهمس لها أنها هي المسؤولة عن مصائبها، وليس أولئك الذين نبذوها. في كلّ ليلة، يعذّبها هذا الذهن حتى تحوَّل رأسها إلى مجرد سديم.

ثم وقعت مريضة وطرَدتها أمها، واتّضحت الطبيعة الكارثية لخيانة روث. حينئذٍ خسرت معركتها في أن تعيش مراهَقَة طبيعية. يتضمن ذهننا حيزاً خاوياً تماماً. لا يحتوي أي ذكرى وأي تفكير. كانت أنطوانيت تريد أن تجد هذا المكان لأنها إن وجدته، لن يعود بوسع شيء أن ينال منها. كانت تريد أن تتقوقع على ذاتها في شرنقة أغطيتها وألّا تواجه من جديد الواقع أبداً.

انغلق ذهنها حينذاك بفعل الهجوم وجنحت إلى المشفى.

مرة أخرى أيضاً، فكرت أنطوانيت بحزن في الأحداث التي جمعتها. أولاً، بصفتها مريضة طوعية ما كان بالإمكان تحويلها إطلاقاً من دون إذن أمها.

ثانياً، لم تكلّف روث نفسها عناء أيّ جهد لزيارة ابنتها ومعرفة احتمالات تحسّن ابنتها. وثالثاً، عرفت روث دوماً أيّ صنف من الرجال هو زوجها.

نهضت من مقعدها وضغطت على زرّ الجرس في الجدار. أصبحت جاهزة الآن.

وبعد بضع دقائق، دخلت الراهبة وجلست مقابل مريضتها.

- هل قررتِ أخيراً ما ستفعلينه غداً؟

وبدل أن تجيب عن سؤالها، نظرت أنطوانيت في عينيها وقالت لها:

- هل تعرفين كيف يعرّف القاموس زِنا المحارم؟ بحثتُ عن ذلك ذات مرة.



- لا. أخبريني.

- هو أيّ نشاط جنسي بين شخصين من العائلة نفسها أو تربطهما صلة عائلية قوية تجعل زواجهما غير شرعي أو منافياً للأعراف. علاقاتهما الجنسية غير شرعية. والأشخاص الذين يقترفونه يُعتبرون قذرين. لكن المسألة لا تكمُن هنا.

- أخبريني أين تكمن إذاً؟

- في الاغتصاب، آلاف الاغتصابات.

كانت أول مرة تعبّر فيها أنطوانيت عن أفكارها لأحدٍ ما. نظرتْ إلى قضبان النوافذ، وأدركت أنها لا تزال حبيسة سجن ذكرياتها بعد مضيّ عام على إطلاق سراح والدها. واستطردت بصوت فيه من الاستكانة أكثر من الحزن.

- استردّت أمي الرجل الذي اغتصبني آلاف المرات. هذا ما حصل حين اعتدى عليّ ثلاث مرات في الأسبوع على مدار سبع سنوات. وقد مثّلت عقوبة سجنه أقلّ من يوم واحد بالنسبة إلى كل مرة اغتصبني فيها. ألف مرة - وأنا مَن أمرتني بالرحيل.

بقيت الراهبة صامتة، كأنها كانت تعرف حجم معاناة فتاة شابة في سنّ السابعة عشر تتقبّل حقيقة حياتها.

ارتعشت أنطوانيت لبرهة، ثم رأت في مخيلتها صفوفاً من

الأسرّة ذات القضبان مع سيدات عجائز بشعرهن الأشيب. وسمعت بكاء وأنين نساء يستيقظن بعد جلسات الصدمات الكهربائية ورأت عيونهن الزجاجية والتائهة وهن ينظرن حولهن بعجز، إلى أطلال ذاكرتهن المبتعدة كلّما تلقين علاجاً من تلك العلاجات.

ثم فكّرت بأمها وبالفوضى التي أحدثتها لحياتها من فرط وعود لم يوفَ بها وأحلامٍ لم تتحقّق. وكادت تدمِّر ابنتها في الوقت نفسه.

كانت أنطوانيت تعرف أنها إذا بقيت بين جدران هذا المشفى، لن تستطيع، كأمها، التخلّص من الحقائق المؤلمة في حياتها. لكنها إنْ فعلَت ذلك، ستحرم نفسها من أيّ مستقبل.

تذكّرت فجأة يوم سقطت عن حصان ابنة عمها هازل. قالت لها هازل: «عليكِ أن تعاودي امتطاء الحصان. وإلّا لن تمطيه أبداً، ستشعرين بالخوف دوماً».

استجمعت شجاعتها بإصرار وأطاعت ابنة عمها. آن الأوان لتفعل الأمر ذاته.

- سأوقّع على خروجي، قالت ببساطة.

في اليوم التالي، كتبت بزهوّ اسمها على استمارات الخروج: توني ماغواير.

وتوني هي مَن غادرت المشفى. أما أنطوانيت المراهقة المذعورة، فلم تعُد موجودة.

# 38

قبل أن أغادر المشفى مساءً، قررتُ أنّ الألاعيب التي كانت تلعبها أمي قد انتهت. لن أشارك ثانية في مناوراتها النفسية.

اتصلتُ بها هاتفياً.

- أنا بخير. قلتُ باختصار. لقد شفيتُ تماماً. أخبَرَني المشفى أنّ صحتي تحسنت بما يكفي لأغادر. وأنا قادمة لزيارتك.

كنتُ أعرف أمي؛ ما كانت لتعترض على رأي الأطباء وعالم الطبّ. ولم أخطئ.

أربَكَها كثيراً عدم خضوعي فلم تُبْدِ أيّ مقاومة.

وأنا أنعطف نحو شارعهما في ذلك اليوم، رأيتُ أنّ أمي حققت حلمها أخيراً بمنزل كبير خلال إقامتي في المشفى.

كانا قد نقلا منزلهما قبل بضعة أشهر من خروجي وأعطاني الطبيب عنوانهما الجديد. المنزل بناء أبيض ذو طابقين متراجع عن الشارع في ضاحية أنيقة من بلفاست.

لا بد أنهما باعا بيت الحارس. بقيتُ بضع ثوانٍ أتأمل من الخارج ما كان يمكن أن يكون منزل الأسرة السعيدة.

لكنني كنتُ أعرف الحقيقة. سيشيخ والداي سويةً، مع سرّهما الرهيب.

فتحت أمي الباب على مصراعيه. وفهمت من طرفة عين أنّ كلّ شيء تغير. أين أم ذكرياتي، تلك التي كانت تُرهبني بنظرة قبل أن تُظهر لي بعدها بلحظة حناناً لا حدود له؟ بدت هذه المرأة أقصر، باختصار تضاءلت، ولاحظت لأول مرة أنني تجاوزتها طولاً بعدّة سنتيمترات. كان جسدها يُبدي هيئة مهزومة، تهدّل كتفاها وعيناها تتهربان من عيني كأنها تريد إخفاء انفعالاتها.

هل كانت تتذكر المرات التي خانت فيها ثقتي؟ أم أنها أعادت أيضاً كتابة هذا الجزء من تاريخنا العائلي؟

تنحّت لتدعني أدخل، ثم حضّرت لنا الشاي. حين سكبته، سألتني عن مشاريعي.

- أريد الذهاب إلى إنجلترا، أجبتُ، وشعرتُ بالحزن بإزاء الارتياح الذي بدا على وجهها، مع أنني كنتُ أتوقّعه.

- متى تفكرين بالمغادرة، يا حبيبتي؟

- في أقرب وقت ممكن. توجد وكالة هنا يمكنها أن تجد لي عملاً في فندق. أريد أن أصبح عاملة استقبال. وهكذا سأحصل على سكنٍ وأجرٍ جيد.

لم أسأل أمي إن كان بوسعي البقاء معها وحملتُ ببساطة حقيبتي إلى الغرفة، فلم تعترض. بقيت هناك ثلاثة أيام قبل أن أغادر إلى إنجلترا.

استطعتُ أن أتجنّب أبي تماماً. أصرّ على البقاء بعيداً عن طريقي ولم تطأ قدماه المنزل طالما أنا فيه.

عانقتُ أمي عند الوداع، ووعدتها أن أراسلها ثم قفزتُ إلى سيارة أجرة ستقلّني إلى الرصيف البحري.

لم أخبر والداي قط أنني عرفتُ أنهما كانا سيحجزان عليّ. فالمجابهة لن تفضي إلى شيء، وصار لدي مشاريعي الآن. شيَّدتُ سداً في وجه الحبّ القديم الذي شعرتُ به حيال أمي فور اختفاء المراهقة التي كُنتها.

وأنا على الجسر أراقب معبر الركاب يُرْفَع على الجسر وبلفاست تتوارى في الأفق، عرفتُ أنني قد لا أعود أبداً - ليس للعيش فيها على أيّ حال. وأما بالنسبة إلى وعود المراسلة... حسنٌ، إنه وعد لا أنوي الإيفاء به إطلاقاً.

وحين تلاشت الأضواء الأخيرة للمدينة، ذهبتُ إلى الحانة، وطلبتُ قدح نبيذ وشربتُ نخب صحّتي.

ونخب حياة جديدة.

# 39

سحبتُ ذهني خارج الماضي وحاولتُ طرد ذكريات أنطوانيت، والطفلة التي كانتها قبل أكثر من ثلاثين عاماً خلَت. سكبتُ لنفسي كأساً مترَعَة وأشعلتُ لفافة تبغ وفكرتُ بالأحرى بتلك المرأة التي أصبحتها.

إذا كانت أنطوانيت دخلت المشفى، فإنّ توني هي مَن واجهت والديها أخيراً قبل أن تغادر إيرلندا. ودون أن تنبس بكلمة واحدة، بيّنت لهما أنها تخلّصت من ماضيها، أما هما فلن يستطيعا ذلك أبداً.

وبعد عامين، اقتفت أمي أثري واتّصلت بي. يكفي اتصالٌ باكٍ لنستأنف لعبة الأسرة السعيدة.

بالنتيجة، اكتشفتُ أنهم خلال إقامتي في المشفى طلبوا من روث مراراً وتكراراً أن تأتي لرؤيتي.

قالوا لها إنّ فرصة ابنتها في الشفاء ضئيلة من دونها - فالأمر أخطر من انهيار عصبي ولا يعرفون إن كنتُ سأستطيع مواجهة العالم الخارجي من جديد. شرح الأطباء المشكلة لروث بشكلٍ واضح:

- لا تستطيع ابنتك أن تتقبّل أنكِ كنتِ تعرفين بما يحصل لها خلال كلّ تلك السنوات، أخبروها.

لم تُبْدِ روث ردّ الفعل المطلوب. وكان هذا يستدعي إعادة النظر في كلّ الأكاذيب التي اختلقتها. لكنها ظلت وقتاً طويلاً ترفض أن تواجه ولو للحظة أنها قد تُلام.

- دكتور، كيف تجرؤ على اتهامي؟ لم أكُن أعرف. يكفيني ما عانيت. لم أرَ قط تعاطفاً من أحد، على عكس أنطوانيت. أنا مَن ينبغي أن تكون هناك، وليست هي. إذا كانت تحتاج أحد والديها إلى هذا الحدّ، سأرسل أباها. هو مَن عليه الاهتمام بها.

كانت هذه آخر مرة يتّصل فيها المشفى بأمي. ولكن رغم معرفتي بذلك، لم أستطعْ أن أخلَص إلى نبذها بالكامل.

وخلال الثلاثين سنة التالية، كنتُ نشيطة. أشدتُ أعمالي الخاصة، واجتزتُ كينيا بحافلة وكسبتُ دعوى ضدّ شريك تجاري جشع. أصبحتُ امرأة أخرى، امرأة تعلّمت أن تعتمد على صداقة الآخرين ومحبّتهم، وتعلّمت أن تكون سعيدة. لكنني لم أملك الشجاعة قط لأقطع كلّ اتصال بوالديَّ.

أوه، وفي غضون سنة انتهت أمي إلى أن تحبّني. أصبحتُ توني، الفتاة التي نجحتْ، الفتاة التي تأتي إلى إيرلندا في العطل الصيفية محمَّلة بالهدايا، توني التي خرجت منها ولم تتحدّث قط عن ماضيها. سمحتُ لأمي أن تعطيني مكانها في الحلم الذي اخترعته: زوج وسيم، وبيتها الخاص وابنة.

حين أصبحتُ راشدة، عرفتُ أنّ الآوان فات على مراجعة الحياة الحالمة لأمي. وبالأحرى قتلها.

لكنها لم تستطع مغادرة الحياة الدنيا دون أن تواجه الحقيقة من

جديد. خلال أيامها الأخيرة في المأوى، حين جئتُ لأجلس معها وأمسك يدها حتى النهاية، شعرتْ أمي بالخوف. ليس من الموت، وإنما من مواجهة الله الذي تؤمن به.

هل كانت تعتقد أنّ ذنوبها ستحرمها من أيّ مغفرة؟ ربما. وأياً كان السبب، فقد صارعت الموت وهي تتمناه في الوقت ذاته.

من خلال طبيبها، وممرِّضتها وكاهنها، علمتُ ما يكفي عن حياة أمي في المأوى قبل وصولي لأُشَكِّل فكرة واضحة عن عذابها فيما لو حضرت. كان بمقدوري أن أتخيّلها تماماً:

امرأة عجوز تضطرب في نومها، ممدّدة في سرير القسم. يخترق الألم وعيها، ويوقظه. تحاول إبقاء عينيها مغمضتين، ما دام الرعب يخنقها بقبضتيه.

صورة تطفو من وراء جفنيها المغمضين: غرفة صغيرة مُضاءة بنور أصفر باهت من مصباح وحيد عارٍ وضوء سيارة الإسعاف الأزرق يومض. مراهقة مرعوبة مستلقية، النصف الأسفل من منامتها مشرّب بالدم، ونظرتها تتوسل أن يساعدوها.

تجبر نفسها على طرد هذه الصورة، لكن صورةً أخرى تحلّ مكانها؛ صورة أرادت أن تمحوها، لكنها تحاول عبثاً، ولا تفلح في ذلك. هذه المرة، يتهمها طبيب نفسي أنها حاولت إرسال ابنتها إلى الموت.

لكن هذا غير صحيح، تحتجّ. أرسلتْ ابنتها إلى أفضل مشفى، وجميع الناس يعرفون أنه يجب على أنطوانيت أن تذهب إلى هناك. . .

وهي مذعورة، تضغط زر الجرس قرب سريرها، وتنتظر متمدّدةً ولاهثةً، قدوم الممرضة.

- روث، تسمع الصوت اللطيف يسألها، ماذا يحدث؟
وبلكنتها الإنجليزية النبيلة، تجيب أمي:
- يجب أن أرى الكاهن، يجب أن أحدِّثه هذه الليلة.
- ألا يمكن الانتظار حتى الصباح؟ لقد غادر لتوّه والرجل المسكين بقي هنا اثنتي عشرة ساعة، وأتى ليراك مساء البارحة، ألا تتذكرين؟
ظلت المرأة العجوز صمّاء لهذا النداء.
- لا، يا عزيزتي. قد أكون ميتة صباح الغد.
هنا يرقّ صوتها وتتشبث أصابعها التي لم تزل قوية على نحوٍ مدهش بيد الممرضة. تغمض العينان الخضروان الغامقتان لبرهة، مخبئتين تصميماً فولاذياً لابداً في أعماقهما.
- أحتاجه الآن.
- حسنٌ يا روث، سأستدعيه ما دام هذا يهمكِ.
عند هذه الكلمات، انصرفت الممرضة من دون ضجة من خفيها ذوَي النعلين المسطحين.
تتهاوى المرأة العجوز على وسائدها مُطلِقَة تنهيدة ارتياح وتعلو شفتيها نصف ابتسامة. حتى هنا، كانت تحرص أن تطاع.
تمرّ الدقائق، ثم تسمع خطى الكاهن الأكثر اتزاناً. يسحب كرسياً وتحسّ بيده تلمس يدها.
- روث، تسمعه يقول لها. أخبريني ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك؟
تطلق أنيناً بينما تنتابها موجة ألم جديدة وتنظر إليه بهيئة تضايقه فجأة.

- ابنتي. أريدها أن تأتي.

- ولكنني يا روث، لم أكُن أعرف أن لديك ابنة! يهتف متعجِّباً ومتفاجئاً.

- أوه، أجل، لكننا لا نراها أغلب الأحيان، تعيش في لندن. تتصل هاتفياً كلّ أسبوع لترى كيف حالي وأطلب منها دوماً أن تتحدّث إلى أبيها. تتدبر أمورها جيداً في الحياة. ستأتي لو طلب أبوها منها ذلك. سأكلّمه غداً.

يتساءل الكاهن باختصار مرة أخرى عن سبب استدعائه في منتصف الليل، لكنه يقرّر أن يدعها تتكلم، آملاً أن تعترف له هذه المرة.

اعتصرت يده بقوة أكبر.

- أرى أحلاماً فظيعة، انتهت إلى الإقرار.

يحدِّق نظرته في نظرتها، ويقرأ الخوف فيها ويعرف أنّ مصدره أبعد من المرض.

- روث، ما الذي يبلبلك؟ هل يوجد شيء تودّين إخباري به؟ شيءٌ يجب أن أعرفه؟

تتردّد المرأة العجوز، وتهمس أخيراً:

- لا، سأكون على ما يرام حين تحضر ابنتي.

وهنا تستدير وتغطّ في نوم مضطرب. ينصرف الكاهن، وهو يشعر أنه يغادر روحاً مضطربة لم ينجح في مساعدتها للمرة الثانية خلال أربع وعشرين ساعة.

وبناءً على طلب أمي، اتصل أبي.

وهذا الاتصال جاء بي إليها. يكفيني أن تحتاجني لأقطع هذه المسافة.

أمضيتُ أياماً ولياليَ مديدة إلى جانبها وهي تنزلق ببطء نحو الموت. حين كنتُ هناك، أحسستُ بشبح طفولتي.

عادت إليّ الأنطوانيت التي كنتها وقادتني للنظر إلى الأشياء كما كانت في الواقع. فككتُ خيطاً بعد خيط نسيج الأكاذيب التي رويتها لنفسي.

- كانت أمي تحبّني، اعترضتُ.

- كانت تحبّها أكثر، أجابت. لقد ارتكبت الخيانة الأخيرة. دفعتكِ لئلا تعودي تحبينها.

لكن لم يكن بوسعي أن أطيعها. لا أريد أن أواجه غدر أمي دوماً. شعرتُ من جديد بموجةِ حبٍّ ممزوجة بالشفقة تشكِّل مزيجاً من الانفعالات التي ولّدتها أمي في داخلي لسنوات عديدة. ظلّت مخلصة لرجل اعتدى على ابنتهم ولم يكن يمكن لشيء أن يبرِّر الدور الذي لعبته، لكنني وجدتُ لها دوماً عذراً فيما مضى.

صار يترتب عليّ الآن أن أتقبَّل أخيراً حقيقة والداي. وإذا كان أحدهما ارتكب الجريمة، فالآخر أذنب بسبب سلبيته، ولأنه وقف متفرِّجاً دون أن يفعل شيئاً ليضع حداً لسنوات من الاعتداءات.

هنا، وأنا جالسة إلى جانب أمي أسهر عليها، قبلتُ جسامة أفعالها وغرقتُ في حزن فظيع. بكيتُ المرأة التي ظننتُ دوماً أنه كان يُفترض بها أن تكونها؛ وبكيتُ العلاقة السعيدة والودودة التي كان

يُفترض بنا أن نعقدها، وخلال أيامها الأخيرة، بكيتُ لأنّ الأوان قد فات بالنسبة إلى كلينا الآن. وتقبلتُ أنني لم أتوقّف قطّ عن حبّها، رغم محاولاتي الكثيرة على مرّ السنين. وحتى حين توصلتُ للاقتناع بأنّ امرأة لا تفعل شيئاً لتحمي طفلتها من جريمة فظيعة هي مذنبة مثل مقترفها، لم أستطِعْ تغيير مشاعري. فالحب، كما اكتشفت، هو عادة عصيّة على الضياع.

ماتت أمي واليوم سأدفن أبي. عاودتُ التفكير بأنطوانيت، الطفلة التي كنتُها، وبحبّها للحيوانات والكتب، وبكلّ شيء كانت قادرة عليه. لقد صمدَتْ في إقامتها بالمشفى. وحظيتْ بأصدقاء وخرجت أشدّ صلابة وأكثر استقلالية من ذي قبل. وكم كان سهلاً أن يكون لها شأن آخر. لكن ذلك لم يحدث.

فكرتُ بما أَنْجَزَتْهُ، ولأول مرة شعرتُ بإحساس آخر غير الحزن الذي طالما سبّبه اسمها.

أحسستُ بالفخر. فخرٌ بإزاء ما أَنْجَزَتْهُ.

لا تهمليها، أمرتُ نفسي. لا تدعيها تصارع ولا تسمحي لصمودها أن يذهب سدى. وما دمتِ لن تسمحي لنصفَيك اللذين تفصلين بينهما أن يلتقيا ويتّحدا، فلن تصبحي أبداً إنسانة كاملة مستقلة. لقد مات والداك الآن. دعيهما يرحلان.

نظرتُ في المرآة، متوقعةً أن أرى فيها صورة أنطوانيت المراهقة، لكنني لم أعثُر على أثر للطفلة التي كنتُها. رأيتُ امرأة في الأربعين من عمرها تؤطر خصلات الشعر الشقراء وجهها المطلي بالمساحيق بعناية؛ امرأة تهتم بمظهرها.

ثم هدأ الوجه وابتسم، وهكذا، رأيتُ امرأة خَلَّفَتْ أخيراً شياطينها وراءها.

لم يعُد أمامي إلّا شيء واحد أفعله لأقطع صلتي بالماضي. غداً، سيترتب عليّ أن أواجه أقربائي الذين لم أرهم منذ ثلاثين عاماً وأن أتحدّث إلى سكان المدينة الذين أحبوا أبي وأُعجبوا به.

وبعد ذلك، سأكون حرة أخيراً.

# 40

كانت الشمس ساطعة يوم دُفن أبي.

لم يتوقّف هاتف صديقتي عن الرنين، مع اتصالات محلّية تعرب عن تعازيها الصادقة وتعليقات مختلفة جذرياً من أصدقائي في إنجلترا.

إحداهن تدبّرت أمرها وجاءت إلى هنا لتساعدني فشعرتُ بالراحة لوجود شخص بقربي قادرٍ على فهم ما أشعر به.

كان على عمي، الذي لم أرَه منذ كنتُ في الرابعة عشر من عمري، أن يقوم بظهور مختصر مع أبنائه.

اتصلتُ بهم في اليوم التالي لوفاة جو وتحدثتُ مع عمي لأول مرة بعد أكثر من ثلاثين عاماً.

كان واضحاً أنه دفنٌ لشخص شعبي - «هذا العجوز الصالح جو»، رجلٌ ذو حضور جميل دائم وموهوبٌ بسحرٍ حافظ عليه حتى أعوامه الثمانين؛ رجلٌ ستأتي المدينة لرؤيته أفواجاً؛ رجلٌ يريدون تكريمه والإشادة به.

نشرَت الصحف المحلية صورة جو بجانب مقال يشيد بانتصاره في مباريات كثيرة بلعبة غولف الهواة وبموهبته الأسطورية في

استخدام عصا البلياردو. ويغفل ذكر مزاج أبي غير المتوقع الذي يكشف عنه أحياناً حين يخسر مباراة بلياردو، أو يخفق في ضربة غولف أو يكون ضحية احتقار متخيّل. هذا هو جو ماغواير، صاحب الابتسامة المُعدِيَة والسحر المؤثر الذي سيذكرونه.

كيف كان شقيقه الأصغر يتذكّره، تساءلتُ. وأيّ قصص رواها لأبنائه - أبناء شقيق أبي وأبناء عمي.

اخترتُ ثيابي بعناية، ليس مراعاةً له، وإنما كدرعٍ يحميني. ارتديتُ تايوراً أسود، واخترتُ حذاءً وحقيبةَ يد متناسبين معه، ووضعت بعناية مساحيق التجميل وغسلت وجففتُ شعري ذي الخصلات الشقراء حالياً. هل سيعرفونني؟ على كل حال، لم يبقَ شيء يُذْكَر من أنطوانيت، تلك الطفلة التي كنتها.

لم تعد تتردّد علي؛ لم أعد أرى وجهها، ولم أعد أشعر بمخاوفها ولا أقاسمها كوابيسها. مرّت ثلاث سنوات منذ أن استغرقتُ في المرآة ورأيتُ عينيها تنظران إليّ.

لكنني كنتُ أعرف أنها لم تزل موجودة في أعماق ذهني، في ركنٍ نحرَص على إخفائه حتى عن أنفسنا، ولم ترحَل قط. في ذلك اليوم، شعرتُ بوجودها إلى جانبي. وأحسستُ برغبتها في عدم إهمالها وتفهمتُ غضبها لعجزها عن كره الرجل الذي دمَّرها.

حدث ذلك منذ زمن طويل، قبل سنوات، حين كانت عائلة أبي هي عائلة أنطوانيت أيضاً، لكنهم نفوها من قلوبهم حين اختاروا مساندة أبيها. حيالهم، لا أشعر بشيء.

لقد شُفِيَ ألم فراقهم واختفت تماماً ندوب نبذهم. سيترتّب عليّ اليوم لأول مرة منذ كنت طفلة أن أواجههم.

أظهرت لي المرآة صورة توني، سيدة الأعمال الناجحة. على وجهها، هيئة حازمة تدلّ على أنهم لن يروا غيرها.

كان الكاهن الذي سيُقيم القداس قد دفن أمي واستمعَ إليّ حين كادت ذكرياتي تغرقني قبل ثلاث سنوات، لحظة وفاة أمي. لم يرغب في إقامة هذا القدّاس، متذرعاً أنّ أباها لم يعد من رعيَّته، لكنني رَجَوْته أن يقوم بذلك. كنتُ أعرف أنه تذكَّر تلك الأيام التي قضاها مع أمي في المأوى خلال الأسابيع الأخيرة من حياتها. كنت جالسة بجانبها حين قهرها أخيراً السرطان الذي صارعت ضدّه منذ ما يقارب الستتين.

آنذاك، قوّضت زيارات أبي اليومية تقريباً حاجز الحماية الذي أشدته ضد أنطوانيت، شبح طفولتي. لم يكن الكاهن يعرف حقّ المعرفة إلّا حالة جنوني حين جئتُ إليه، معتقداً أنني انتكستُ من جديد. ومن خلالي، صارَ يعرف أيّ نوع من الرجال كان أبي، والألم الذي سبَّبه، والحيوات التي دمَّرها وعدم شعوره بالندم.

إنني بحاجة إلى حضوره، قلتُ له. قوّته ولطفه سيحملان لي الدعم الضروري لألعب دور الابنة المحترمة للمرة الأخيرة. وكان يعرف، دون أن أضطرّ لإخباره بذلك، أنني مع مراسم الدفن هذه، أريد أن أدفن ماضيّ.

وكنا نتذكّر سوية دفن أمي الحزين حين رفض أبي أن يدعو أحداً إلى المنزل بعد الجنّاز ومنع تقديم أيّ مرطبات أيضاً.

في ذلك اليوم، عاد الحاضرون من أصدقاء الفقيدة إلى بيوتهم بعد الجناز دون أن يُقدّم لهم فنجان شاي. وذهب أبي إلى الحانة. قطعاً لم يحدُث قط وداع بمثل هذه الكآبة في إيرلندا المضيافة.

لم تكن أمي المنعزلة من أولئك اللواتي يقترح حرس الشرف البريطاني تنظيم استقبال لها. كانت كأنّ السنوات التي أمضتها في إيرلندا لم توجد قط.

وتخلّص هذا «العجوز الصالح جو» من فعل شنيع إلى هذا الحدّ من دون أيّ مسّ بسمعته. أليس هو الأرمل المسكين الذي اهتمّ بزوجته طيلة سنوات مرضها؟ ألم يفعل ذلك من دون مساعدة ابنة مع أنها لم تكن في حالة عوز؟

ابنة قلما غادرتْ إنجلترا ولم تأتِ إلّا حين تلقّت أمها كلّ العناية الضرورية في المأوى؟

تعمّدت المدينة أن تكون مراسم جنازته مختلفة. عند وصولي، كان بعض السكان قد تجمّعوا سلفاً أمام مكان الجنّاز.

واحتراماً للمرأة التي كانوا يحسبون أنها القريبة الأولى للفقيد، تباعدوا وتركوني أدخل. كنت أعرف أنهم سيمنحوني عدة دقائق قبل أن يتبعوني، وهو الوقت اللازم للوداع الأخير واستعادة رباطة الجأش.

صعدتُ درجات السلم المؤدية إلى صالون المأتم كما فعلتُ قبل ثلاث سنوات ودخلتُ الصالة الصغيرة ذات المقاعد المصفوفة والمزوّدة بكتب الصلوات.

شاهدتُ أبي ممدّداً في نعشه المفتوح ولم أشعر بشيء سوى حزنٍ كئيبٍ في نهاية هذه المرحلة من حياتي.

كان يبدو نائماً؛ شعره الكثيف مسرّح نحو الخلف، مبرزاً وجهاً ملوناً، وأسنانه الاصطناعية الآن تتبدى من خلال شفتين مجوّفتين في

ابتسامة أخيرة. مرة أخرى أيضاً، كان وجهه جميلاً، لأنّ الرجل الذي حضَّرَه أظهرَ براعته. اجتاحتني قشعريرة باردة، كأنه لم يزَل حياً، وأنا أحلم بلحظات سعيدة من دون أية فكرة شاردة تكدّره. شعرتُ أن روحه تتريث، وهي تحتقرني لآخر مرة.

بالأمس، أعطيتُ مفاتيح منزل أبي إلى أحد أصدقائه وطلبتُ منه أن ينتقي ثياباً مناسبة لدفنه. لم أكُن أقوى على الذهاب إلى غرفته، وفتح خزانته ولمس أشيائه.

ليس قبل أن أتأكد من أنه رحلَ نهائياً.

أَحْسَنَ صديقه الاختيار. كان أبي يرتدي سترة رمادية مع منديل مغسول حديثاً في جيب الصدر، بينما عُقِدَتْ ربطة عنق عسكرية بإحكام حول ياقة قميصه السكري المكوي بإتقان. وعُرِضَتْ أوسمته التي نالها خلال الحرب بافتخار، كتذكير بأنه كان واحداً من آلاف الأبطال الإيرلنديين الشماليين الذين تطوّعوا للدفاع عن بلدهم.

في الموت، صار هذا «العجوز الصالح جو» رجلاً فاضلاً ومستعداً لاستقبال زواره لآخر مرة وأنا، ابنته، وقفتُ هناك حيث ينبغي أن أقف، إلى جانبه.

وصل أقارب أبي، يقودهم عمي. ولأول مرة منذ كنت في سن الرابعة عشر، أصبحنا في الحجرة ذاتها. ورغم أن عمي أقصر وأنحف من أبي، إلّا أن هنالك تشابهاً مزعجاً معه أربكني. الشعر الأشيب الكثيف المسرّح إلى الخلف عينه، يكشفُ عن وجه لا يُفَسَّر، من نمط أخيه وأبيهما من قبلهما. نظر إلى النعش، وأياً كان شعوره نحو أخيه الذي أُعجب به فيما مضى وأحبه، فإنه لم يُظهِره.

وهو يستدير لينصرف، وقفتُ أمامه.

- مرحباً عمي. شكراً لقدومك.

ثم مددتُ يدي لأصافحه.

رفضَت عيناه أن تلتقي بعينيّ بينما تلامست أصابعنا برخاوة فيما يشبه قبضة يد. تمتم وهو لم يزل يتهرّب من نظرتي:

- مرحباً.

ومن دون تعليق أو كلمات عزاء، تابع سيره نحو الجهة المقابلة من صالون الجنّاز. تبعه ابنه وأبناء أخته، وفهمتُ أنه لم يتغير شيء.

هل أملتُ بمصالحة عائلية؟ ربما لاشعورياً. رسمتُ ابتسامة لا معنى لها على وجهي واستقبلتُ الشخص التالي الذي ينتظر الاقتراب من النعش. تقدّموا واحداً إثر آخر، انحنوا ونظروا إلى وجه أبي قبل أن يذهبوا للجلوس. كانت الحجرة تعجّ بالهمسات وأحياناً كان منديلٌ يمسح دمعة.

شعر متعهّد الدفن، وهو رجل قوي البنية برهنَ على لطفه حين اهتمّ بدفن أمي، أنه يوجد خللٌ وجاء ليُخبر أقارب أبي أنهم سيقدّمون مرطبات بعد مراسم الدفن وأنه يأمل أن يراهم هناك. اعتذروا بتهذيب حازم. فهم لم يأتوا إلّا لسبب واحدٍ ووحيد - رؤية جو، أخيهم، وعمهم وابن عمهم، يوارى الثرى. وعلى ابنته أن تبقى الغريبة.

وبينما يفصلني عنهم ليس فقط ممرّ، وإنما أيضاً هوة لم تردمها السنين، شعرتُ شعوراً خاطفاً بخسارة حياة أخرى كان يمكن أن أعيشها.

وأنا أقف وحيدة، التفتُّ نحو نعش أبي. بدا وجهه كأنه ينظر

إليّ، وفي مخيلتي، لم تزل ابتسامته تسخر مني. سمعتُ الكلمات التي غالباً ما ردّدها.

«لن يحبك الناس يا أنطوانيت إن أخبرتِهم. سيُلقي الجميع اللوم عليك».

وهناك، على بعد خطوات مني، تقف العائلة التي فعلت ذلك.

حين رأت صديقتي أنني لن أنضمّ إلى عائلتي، جاءت لتقف إلى جانبي، وابتسمت لي بلطف في إشارة إلى حبّها ودعمها، فاستعدتُ شجاعتي. طردتُ ذلك الصوت القادم من الماضي، وهدَّأتُ حسراتي التي امتنعتُ عن الشعور بها خلال ثلاثين عاماً، وطفقتُ أستقبل العديد من الأشخاص الآخرين القادمين من الجيران ليقدّموا احترامهم لأبي ودعمهم لي أنا، ابنته.

لفتت انتباهي امرأة وحيدة، كأنها لا تريد أن تقطع سلسلة أفكارها. في الستين من عمرها، شعرها أشيب قصير مقصوص حتى قذالها، ترتدي تايوراً أنيقاً أسودِ يُبرز قامتها الناحلة، تبدو دخيلة على صالة الجنّاز هذه.

كانت تقف منتصبة القامة؛ لم تحنِ السنون ظهرها. كانت شبكة التجاعيد الناعمة على وجهها ستبدي، لولا الظروف، الفكاهة والدعابة، لكن الحزن وحده يخترقها اليوم وهي تُطيل نظرتها على النعش.

أثَّر حزنها بي لكن حين تلاقت عيوننا، رأيتُ توجّساً ممزوجاً بألمها. ابتسمتُ لها ابتسامة أرَدتها مطمئنة، واستجمعتُ شجاعتي لأذهب إليها. لمستُ لمساً خفيفاً يدها لأنني كنتُ أعرفُ أنّ الكلام هجرها مؤقتاً.

وهي تعتقد أنني أنا أيضاً مضطربة، جلستْ بلا ضجيج وتناولتْ كتاب صلوات.

ستأتي الكلمات فيما بعد، قلتُ في سري، وبقيتُ واقفة حتى دخل الكاهن. خيَّم الصمت على الصالة حين أخذ مكانه. التفتُّ إلى الحضور وبدأ الجناز.

حين انتهى، خُتِمَ النعش وعرفتُ أنني رأيتُ وجه أبي لآخر مرة. سكتَ أخيراً الصوت الذي عذّبني طيلة عقود وصار بوسعي الآن أن أذهب إلى المقبرة وأحضر وضع النعش تحت التراب.

كان هذا اليوم بالنسبة إلى جميع الأشخاص الحاضرين هو يوم دفنه، أما بالنسبة لي، فهو يوم وداع إيرلندا.

كانت هذه آخر مرة أذهب فيها إلى المقبرة وهو اليوم الذي ابتسمتُ فيه للمرة الأخيرة لأصدقاء أبي الذين أحبوا شخصيته الشعبية لكنهم لم يعرفوا الرجل قط.

إنه ضريح لن أزوره أبداً ولن أهتم به؛ ستغطّيه الأعشاب وسيُنسى أخيراً والداي الراقدين فيه للأبد.

ترك أبي تعليمات تفيد أنّ أمي وقّعت قبل وفاتها موافقتها على أن يُقاسمها قبرها. أخرجوا النعش الأول المغطى بعشب اصطناعي لإخفائه عن أنظار الأشخاص المحزونين، وانتظر قرب القبر. وخلال مراسم المقبرة القصيرة، تحدَّيتُ الأعراف ووقفتُ بجانب النعش. فوقف أقارب أبي في الجهة المقابلة مطأطئي الرؤوس.

كنتُ وحدي أعرف أنّ الأزهار التي وضعتُها هناك، وهي الأخيرة التي سأضعها، كانت مقدَّمَة لأمي. وبما أني لم أزل أبكي

المرأة التي أفسدَها أبي، أسفتُ على المرأة التي كان بوسعها أن تكونها وعلى العلاقة التي لم تنشأ بيننا قط.

في ذاك اليوم، أنزلوا نعش أبي أولاً، وبرضىً يغمرني، تبعه نعشُ أمي. ستنتصر عليه أخيراً إلى الأبد، فكرتُ بسخرية.

انتهت المراسم القصيرة، وأصبح النعش جاهزاً ليوارى الثرى. كان عمي قد ذَرَّ حفنة تراب على الصندوق الخشبي. وفي صباح اليوم التالي، ستأتي النساء ليتأمّلن الأزهار التي تغطي الضريح، كدليل على شعبية الفقيد.

لن أكون بينهن.

شاهدتُ عائلتي تنصرف وعرفت أنني لن أراها ثانية أبداً. استقليتُ سيارة الليموزين السوداء التي تقود الموكب حتى نادي جوقة الشرف البريطاني.

لقد كرَّمَت مدينة لارن أبي. في مماته، حظي بإعجاب واحترام أناس سذَّج. والتمس نادي جوقة الشرف البريطاني برقَّة إذني ليتكفّل بتقديم المرطبات بعد الدفن. أذنتُ له ببساطة، وبكرمٍ إيرلندي خالص، أعدَّ أعضاء النادي وليمة حقيقية.

كانت الطاولات الخشبية المنصوبة على حوامل تكادُ تئنّ تحت ثقل الموائد. ترتّب على نساء لارن أن يبدأْنَ العمل فجراً، لأنّ جميع الأطباق المبسوطة أمامي، كما أرى، محضَّرة منزلياً.

كان يوجد من جهة أكوام من السندويش، نقانق صغيرة، رقائق وفطائر باللحم، قطع من الدجاج المشوي وقصعات من سلطة الخضار، ومن جهة أخرى، طبق منوّع من الكاتو المنزلي الخفيف وكاتو الفاكهة الغني الذي أحببته كثيراً في طفولتي.

شعيرية من كلّ الألوان كانت تزيّن بوفرة الكريمة الإنجليزية السميكة التي تزخرف حلوى الديبلومات بالكرز، بينما زبادي الكريمة إلى جانبها من أجل ضبط الكوليسترول الزائد. وبالطبع، كان هناك عدد لا يحصى من أباريق الشاي الثقيل يصبّه حشد من المتطوعين في فناجين من السيراميك الأبيض.

لوحظ غياب أقرباء أبي. لم يقدِّموا أي عذر لسكان لارن قبل أن يغادروا وكنتُ أعرف أنّ مغادرتهم أثارت الفضول، لكنني لم أقدِّم أيّ تبرير.

كانت معرفة العائلة بحقيقة أبي تمنعها بالتأكيد من مخالطة الناس الذين يرونه بمنظار مختلف. ولعلّ رغبتهم بالابتعاد عني، أنا التذكير الأخير الحيّ به، كانت شغلهم الشاغل. ومهما يكن من أمر، شعرتُ بوخز الآلام الماضية ينكأ ندوب جراحٍ تعافَت منذ زمن طويل، وبوميضٍ مؤقّت لذلك الإحساس القديم بالعزلة. طردتهم، وذهبتُ للاندماج بأصدقائي.

روى الرجال الذين شربوا الشاي بسرعة ليذهبوا مباشرة إلى الحانة قصصاً عن هذا «العجوز الصالح جو» والذكريات التي يحملونها عنه.

ومع اقتراب العصر، راحت أصواتهم ترتفع، وسيقانهم تتباعد، وأصبحت مشيتهم أكثر ترنّحاً. أخذت وجوههم تزداد احمراراً وتعالى صخب الحكايات أكثر فأكثر. تداولت ألسنهم الحياة التي عاشها أبي خلال السنوات الأخيرة من زواجه.

في ذلك اليوم، علمتُ أن أبي لم يكن فقط لاعب غولف ممتاز للهواة ولاعب بلياردو لامع، وإنما أصبح أيضاً راقص صالونات

لسنوات طويلة قبل موت أمي وحقّق العديد من الانتصارات. وفي آخر حياته، كان هو مَن يقود النساء على حلبة الرقص في الحفلات الشهرية الراقصة لنادي جوقة الشرف البريطانية.

أتذكر أمي تروي لي عن مساء لقائهما؛ كيف وقعت في غرامه تماماً في أثناء حفلة راقصة محلية. سُحِرَتْ أمي به وظلّت هكذا طيلة خمسين عاماً.

أمي الخجولة، التي لم تشعُر قط أنها جذّابة، لم تكن المرأة الوحيدة التي تولّعت بأبي خلال سنوات زواجهما الطويلة. وطالما تكهّنت بذلك، إلّا أنني لم أتأكد أنه غازل في أيّ وقت امرأة قرب المنزل. في لغط الأحاديث، والصيحات الضاحكة والقصص التي لا تُصدّق، غاب اسم أمي. لم تكَد تمضي ثلاث سنوات على موتها، حتى تلاشى ظلّها من ذاكرتهم.

كان نادي جوقة الشرف البريطانية ميدانه الدائم؛ ولم تكُن روث تحبّ الكحول وقلّما ذهبت إليه. في ذلك اليوم، لم يتحدثوا إلّا عن جو ولم يأتوا على ذكر تلك المرأة التي ظلّت زوجته لأكثر من نصف قرن.

قدَّموني إلى شريكته في الرقص وعرفتُ عندئذٍ مَن هي المرأة المسنة التي رأيتها في الجنّاز.

نحيتُ جانباً الغيظ الذي شعرتُ به بإزاء إقصاء أمي، وابتسمت بتهذيب.

أمسكَت ذراعي باكيةً.

- أوه، يا أنطوانيت، هل يزعجك إذا ناديتك هكذا؟ كثيراً ما حدّثني أبوك عنك حتى أحسستُ أني أعرفك.

كان ذلك يزعجني على نحوٍ مخيف، لكنني احتفظتُ بالابتسامة على وجهي وأجبتُ:

- ينادونني توني الآن.

لم يكن بوسعي أن أخبرها أنّ أبي وحده كان يناديني هكذا وأن أنطوانيت هو اسم فتاة صغيرة مذعورة، وليس اسمي أنا.

- سأفتقد جو كثيراً. آسفة، يا عزيزتي، لا بد أنّ فقدانه يؤلمك أنتِ أيضاً.

شدّت على ذراعي معربةً عن تعاطفها.

أعطيتها ساعة يد أبي التي أعادتها المشفى لي. وعند رؤيتي سعادتها بهذا التذكار، فهمتُ أنه كان مهماً بالنسبة لها.

ابتسمَت لي، وهي تُبدي رغبتها في متابعة حديثنا، ربما لأنني كنت الرابط الأخير برجلٍ مهم في حياتها.

- أنا جدّة الآن - لدى ابنتي طفلان صغيران. يأتون لزيارتي كلّ عطلة أسبوع تقريباً.

رأيتُ وجهها يعكس الفرح الذي تحمله لها الزيارات الاعتيادية لهذين الطفلين وشعرتُ بقشعريرة تعتريني.

كم أتقن أبي إخفاء طبيعته الحقيقية.

كررت حديثها عن مقدار افتقادها له، معتقدةً أنني أحتاج إلى سماع هذه الكلمات لتواسيني. كان عليها ألّا تعرف أنني بكيتُ افتقادي لتلك الوشائج غير المرئية التي ربطتني بوالديَّ.

وشائج خفية لا تُرى بالعين المجردة لكنها أقوى من الفولاذ - وقد انقطعت أخيراً.

اقترب النهار من نهايته واستطعتُ أخيراً التخلي عن تلك الابتسامة التي ظلَّت متخشّرة على وجهي حتى صارت عضلاته تؤلمني.

كنتُ أعرف أنني قطعت صلتي تقريباً مع أشباحي، وذهبتُ للتحدّث مع الكاهن لآخر مرة. فهو لم يقدِّم لي الدعم الذي كنتُ بأمسّ الحاجة إليه حين كانت أمي تُحتضر وحسب، وإنما سَهَّلَ لي أيضاً مهمتي في هذه المراسم الجنائزية الشاقة.

- هل تتذكر حين تحدَّثنا منذ ثلاث سنوات في المأوى قبل وفاة أمي؟

- أجل، يا توني، أتذكر ذلك جيداً.

نظر إليّ، متأملاً.

- وكيف تشعرين الآن؟

- فارغة، أجبتُ، لكنني مرتاحة لأنّ كلّ شيء انتهى.

لم يسألني عمّا أعنيه. أضاف فقط:

- ألن تعودي؟ ثمة أشخاصٌ يحبونك هنا.

- لا. قطعتُ صلتي بهذا المكان.

وعرفتُ أنه فهم أنني أريد قطيعة تامة مع الماضي. خطر ببالي عندئذٍ ما فكرتُ به حين كنتُ في المشفى: ما دام بمقدور الأشخاص القاطنين في المكان الذي عاش فيه أبواي أن ينسوني، فإنّ بمقدوري أيضاً أن أنسى سنواتي في إيرلندا.

بعد ذلك المساء، فتّشتُ عن السلام الذي سيحمله لي موت أبي، كما اعتقدتُ. لكنني بعد محاولاتي العابثة لأشعر بالسعادة لأنني تحررت أخيراً، لم أعثر عليه.

حاولتُ أن أقول في سرّي أنني لن أتلقى ثانيةً اتصالات تُخبرني أن أحد أبويَّ مريض. ولن يعود يتوجّب عليّ أن أوهم سكان لارن أنني عشتُ طفولة طبيعية وأنني كنتُ ابنةً محترمة تزور منزل والديها العجوزين. ولن يتوجب عليّ ثانيةً سماعُ تعليقات عن شَبَهي بالأب الذي يتحدثون عنه.

شعرتُ بفراغ، إحساسٌ يشوّشه أمرٌ ما تُرك معلّقاً. تناولتُ مفاتيح السيارة آملةً أن أروّح عن نفسي بنزهة.

وكأن للسيارة فكرتها الخاصة، أقلّتني إلى المنزل الأخير الذي تقاسَمَه والداي. أحبَّت أمي البستنة دوماً. وحين أصبحَت في السبعين من عمرها، انتقلا إلى بيتهما الأخير.

كانت مزرعة قديمة لا نبتَ فيها، إلّا الأعشاب الضارة. أمضت السنوات التي سبقت موتها في إنشاء حديقة تمجيداً للجمال. في ذكرياتي، كانت أمي العجوز تعمل دوماً في الحديقة، طلقة المحيّا. كان خلق الكثير من الجمال يحمل لها السلام الذي لم تجدْه في زواجها.

بعد موتها، حين أحاول أن أتخيّل أمي، أراها دوماً في هذه الحديقة.

شعرتُ بحاجةٍ قمعتها منذ أن كنتُ في لارن. كنتُ أريد أن أتنزّه لآخر مرة في حديقة أمي. كنتُ أرغب أن أطرق بابَ آخر مسكن لها وأطلب من الأشخاص الذين يقطنونه الإذن للقيام بذلك.

في المقبرة، لم أشعر بوجود أمي، ولكن سيكون الحال ذاته هنا بالتأكيد. لم أبحث عن أيّ سبب لأفسّر حاجتي إليها. أريد فقط أن

أتذكّرها مرة أيضاً، كما كانت عند آخر زيارة لي إلى هنا، في العام الذي سبق موتها.

كانت حينها ضعيفة لكن وجهها شعّ سعادة عندما أرتني النباتات التي اعتنَت بها برقّة.

توجهتُ نحو المنزل، لكنني لم أجد فيه إلّا ورشة حديثة العهد. لافتة المتعهّد منصوبة ولاحظتُ أنه في القريب العاجل ستحلّ ملاعب تنس مكان الحديقة الغناء.

- دعكِ من هذا يا توني، همس لي صوت ماضيَّ. لقد رحلا الآن. لقد رحلت.

ثم فكرتُ في عقوبة سجن أبي، التي لم تقرِّرها العدالة، وإنما قرَّرتها أمي. فخلال الثلاثين عاماً التالية، أخذت أمي بثأرها. وضعَت زوجها داخل قفص صُنِعَت قضبانه من الشعور بالذنب، عاقبته بلا ندم على كلّ ما جعلها تُعانيه وعلى العذاب الذي كابَدَته.

وفي كلّ مرة يعرض التلفاز برنامجاً عن الاعتداءات الجنسية، تصرّ أمي أن يشاهداه، مدركةً أنه يموت خجلاً. في تلك السنوات، قُلِبَتْ الأدوار وانتهى به الأمر إلى الإذعان لها. لأنها هي مَن كانت تسيطر على كل شيء - المنزل والحسابات وهو.

وهكذا، خلال ثلاثين عاماً، عاش مع الشعور بالذنب. لأنه ظنّ حتى مماته أنها لم تعرف قط.

وأنا لم أحرِّره قط من سجنه العقلي. لم يعرف قط أنني في السادسة من عمري أخبرتُها.

لا، لم أكشف له ذلك قط. لأن هذا كان سيعتقه.

بعد أن غادرتُ إيرلندا وأنا مراهقة، وجدتُ أن العمل في مكتب ليس مجزياً. عملتُ كنادلة، وانضممتُ إلى فريق يبيع الموسوعات من باب إلى باب وانتهيتُ إلى تنظيم عمل خاص بي.

اتبعتُ علاجاً بالأدوية لعدة سنوات وتعلمتُ أنني حين أسلمتُ نفسي إلى أشخاص كنتُ أثق بهم، فهذا لم يضرّ في شيء الصداقات الحقيقية، التي تدوم.

وعلى مرّ السنين، طرح الناس عليّ السؤال نفسه مراراً وتكراراً: هل غفرتِ لوالديك؟ لم أغفر لهما لكنني لم أُدِنْهُما أيضاً.

هل تكرهين والديك؟ لقد أخذتُ عبراً شتّى من إقامتي في المشفى ومن الفوضى التي أحدثتها أمي في حياتها، وإحدى هذه العِبَر هي أنّ الحقد ينال من الشخص الذي يحمله. ومثل أسيد لاذع، يحرق داخله ويدمر حياته. لكن من يُوَجَّه إليه هذا الحقد لا يشعر أبداً بتأثيراته.

لم أدَع شرّ أبي أو ضعف أمي يفوزا بسماحي لهذا الشعور بالحقد أن يتغلغل في حياتي.

والسؤال الأخير. هل وجدتِ السعادة؟

أجل، وجدتُ السعادة.

تونى ماغواير

# تركوا بابا يعود

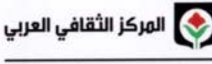
ظنَّتْ أنها أصبحت أخيراً في مأمن من الاعتداءات التي كابدَتها منذ طفولتها المبكرة، لكنها كانت مخطئة.

تتابع توني ماغواير في **تركوا بابا يعود** قصة طفولتها المأساوية وتروي حقيقتها الرهيبة. فهذا الكتاب تتمّة لسيرة **لا تخبري ماما** التي تعاطف معها مئات الآلاف من القراء حول العالم، وهو لا يقلّ إثارة عن الجزء الأول.

بفضل الشهادة التي أدلت بها توني عن الأذى الجسيم الذي ألحقه بها والدها، دخل هذا الرجل السجن، وظنَّتْ أنها ستعيش أخيراً حياة طبيعية، كباقي الفتيات. حتى جاء ذلك اليوم وخرج فيه والدها من السجن وعاد إلى المنزل...

بكلمات موزونة، مؤثّرة، غير صادمة، تقدّم لنا توني ماغواير درساً قويّاً عن الصمود والشجاعة والأمل، لا يمكننا معه إلّا أن نُشيد بصلابة هذه المرأة التي استطاعت أن تتخطى كل الغدر والآلام والصعوبات التي صدمتها بها الحياة منذ نعومة أظافرها.




المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com

ISBN 978-9953-68-891-6



صورة الغلاف: Plainpicture/Folio Images/Lena Katarina Johansson